
ساندرا سراج
رواية
مَا رواهُ البحر
دار دوّن

ساندرا سراج

ما رواه البحر

رواية



إهـــداء

إلى سحر منصور
المرأة التي حولَّت كل محنة لمنحة
اليد التي تربت على قلبي حين يهلكني العالم
أهدي روحي إلى ضيق ضلوعها الذي يضاهي اتساع العوالم بأجمعها
إلى أمي التي تأخذ بيدي وتعلمني حتى ما لا تعلمه

وإلى نورا عاطف
صديقتي التي أصبحت ملاكي الحارس، لا تقلقي كلبتك بخير.

ساندرا

إلى البحر الذي لا يبوح بسر أحد لأحد
لك يا من لا تحب الوحدة.. فقط تكره الخذلان
وإلى كل الأشياء التي تراجعت عنها بعقلي
وما زال قلبي عالقًا بها

الرواية مستوحاة من أحداث حقيقية، لذلك
إن كُنت تبحث عن المثالية فاتركها الآن؛ قد
تُلوث أوهامك بواقعيَّتها!

(١)

عام ٩٦١م..

بعد احتلال الروم لحلب وبعدما هُزم سيف الدولة الحمداني، وتم أسر العديد من رجاله الأوفياء من ضمنهم ابن عمه «أبو فراس الحمداني»، وكان قد تركه ليتم أسره دون أن يُنجده بعدما لعب الكارهون بعقله أن «أبا فراس» يطمح في الاستيلاء على السلطة وكرسي الحكم.

«أبو فراس» جالسًا أسيرًا بثيابه وسيفه الملطخين بدماء الروم على أرضهم بعد سبع سنوات من أسره، رافضًا أن يخلعهم؛ إذلالًا للروم ظاهريًا، وراجيًا ألا ينسى ذلك الرجل الذي كان سيفه يرعب قلوب الأعداء باطنيًا.

- ما بِك شاردًا يا «أبا فراس» لا تسُبُّني كعادتك؟

قالها الجندي الذي يشفق على حال أبي فراس من باطنه، رغم شدته معه؛ طاعةً للأوامر التي يتلقاها..

لينظر له «أبو فراس» نظرة خالية من كُل شيء، وكأن عينيه لوحا زجاج لا روح بهما، ويقول:

- لماذا لم تقتلني ودم أخيك على ثيابي منذ سنوات؟ ألا تتحرش بك رائحة ما تبقى منه؟

لتحتدَّ نظرة الجندي، فيرفع سيفه غاضبًا، ويقترب من «أبي فراس» ليجده لم يحرك ساكنًا، فيعلم أنه يتحرش به؛ كي ينال

مراده.. يقول له وسيفه يكاد ينحر رقبته:

- أراك تتمنى الموت.

ثم يُبعد سيفه ويكمل:

- أنت قتلتَ أخي مرة واحدة، أما أنا فأقتلك يوميًّا منذ سبع سنوات. ألا ترى خواء عينيك؛ لم يعد بِك ما يصرخ، يستنجد، ولا اشتياق لحلبك العزيزة، أنا هُنا أنتقم لأخي، أما أنت فلم يحاول من أجلك عصبك حتى.. أنْهِ طعامك، فأنت لا تأكل جيدًا مؤخرًا.

ليحرك أبو فراس يديه ويمسك بالقلم والورقة اللذين لم يفارقاه لسبع سنوات، فقط هما كانا رفيقيه ويكتب:

أراكَ عَصِيَّ الدّمع شِيمتُك الصبْرُ أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟

بلى أنا مُشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ ولكنَّ مثلي لا يُذاعُ له سرُّ

* * *

(٢)

مسرح الأزبكية - يناير ١٩٦٥

في إحدى حفلات الست أم كلثوم الخميسية بين المئات من مُحبيها يجلس الشاعر أحمد رامي متوسطًا الصف الأول يتأملها تقف على المسرح ترتدي فستانًا أسود، وتحمل منديلها الذي تعتصره قلقًا، وهي جالسة تنتظر أن تنتهي الموسيقى، وتتأمل النساء من جمهورها اللاتي يرتدين فساتين قصيرة، ورجالهن يرتدون حُلات رسمية، ويتمايلون على ألحان السنباطي، حتى يحين دورها، فتنهض في شموخ تتألم أيدي الجمهور تصفيقًا له، ويتأملها أحمد رامي شاعرًا بالغبطة والضيق في الوقت ذاته؛ لأنها تغني كلماتٍ ليست نابعة من روحه ليدمع بينما ينتهي التصفيق، وتبتعد عن الميكروفون وتقول:

أراكَ عَصِيَّ الدّمع شِيمتُك الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟
نعم[1] أنا مُشتاقٌ وعنديَ لوعة
ولكنَّ مثلي لا يُذاعُ له سرٌّ

***

---

(١) في مطلع البيت الثاني في قصيدة أبى فراس الأصلية هو "بلى" وليست "نعم" حيث أن هذه إجابة لسؤال منفى (السؤال في البيت الأول)، وبذلك فإن "نعم" ظهرت في الأغنية فقط وليس القصيدة الأصلية.

(٣)

شتاء يناير القارص عادةً ما يصيبني بالثوران والهياج.. ولِمَ لا وأنا البحر؟! إن لم أثُرْ في يناير فمتى أثور إذًا؟!

انطلق صوت أم كلثوم من سماعات ذلك الرجل الثلاثيني المُلقى على الرمال بملامحه الحادة وشعره الغزير وذقنه الكثيفة العشوائية التي تطلب الاستغاثة فينهض.. وبمُجرد أن انتهت الموسيقى جذب انتباهي أكثر.. لماذا يقاوم؟؟ وما الذي يقاومه؟ ينهض ويتأمل أمواجي الثائرة وأنا أراقبه.. فجأة صرخ يقول:

«الله يا ست الله»، ويبدأ بالغناء معها..

أراكَ عَصِيَّ الدّمع شِيمتُك الصبْرُ

أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟

ليكمل وهو مُجهشٌ بالبُكاء، ويقول صارخًا مترنحًا:

نعم أنا مُشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ

ولكنَّ مثلي لا يُذاعُ له سرُّ

على مرِّ سنواتٍ تأملتُ شروق الشمس وغروبها، البعض تُشرق الشمس من جنون عشقهم.. تأملتُ بُكاء البعض الآخر وكأن سعادتهم هي التي تغرب.. وجدت أنهم في النهاية نفس الأشخاص.. يصيبني هذا بالربكة، فيزيد من اضطراب أمواجي؛ أحيانًا يُحزنني، وأحيانًا يُسعدني، وأحيانًا تُربكني سرعة تقلب القلوب.. رُبما لذلك سُميت «قلوب» لسرعة تقلُّبها.

سقط الرجل أرضًا يتأملني في صمتٍ.. يتأملني في ضعف وقلة حيلة.. لم أستطع تفسير حالته المزاجية.. فقد كان صامتًا معظم الوقت.. ليس ثرثارًا كالآخرين يحكون لي كل شيء كما اعتادوا.. بعينيه نار لا تعلم أهي من الشغف أم من الغضب؟ من العشق أم من الألم؟ نار لا تعلم هل تدفئ أم تحرق.. لكن يقيني الوحيد أنها وإن أحرقت أحدًا فستحرقه وحده.

اعتدل ليتحدث أخيرًا.. قال بيأس شديد:

- ربحتُ مُجددًا، ربحتُ، ولكن كم من الربح سيُعوِّضني عن خساراتي الفادحة؟

قالها وهو يرفع زجاجة بيديه في تحية مهزومة لا تليق بشخصٍ ربح للتو «جائزة (SONY) الدولية للتصوير، إنه لشيء حزين أن يُهزم شخص بانتصاره.

حاولتُ إيجاد ردة الفعل المناسبة لحالته تلك، ولكن كعادتي فضلتُ أن أكون الرفيق الصامت دائمًا.. فماذا يُمكن أن يُقال ليعوض شخصًا عما فقده، فعلى الرغم من التطور العلمي والطبي الذي شهده العالم لم يستطع عالِم واحد بعدُ أن يجد ما يُمكن أن يُفعل أو يُقال ليجبر القلوب.. فلو وُجد ما يُمكن أن يُقال لجفَّت البحور والمحيطات وجفَّت الأفواه؛ طمعًا في السكينة والراحة.. فقط لو وُجدت.

لا أعلم من قال إن البشر يتخطُّون قصص الحُب كُليًّا، هم يردمونها فقط، ثم ينبشون فيها من حين لآخر أحيانًا لسببٍ رُبما ما يكون إلا الحنين، وأحيانًا لا لسببٍ يكون بطريقةٍ ما هو كل الأسباب المنطقية للمُحب ليغوص في تفاصيل عشقه غير المُكتمل

الذي فتَّت قلبه.. ورُبما حنينه يكون في الأساس لذكرى قلبه المُكتمل لا للحبيب.

حَل الليل وكان «عاصي» كما اعتاد أن ينادي نفسه أمامي ما زال يدندن مع أم كلثوم، التي يشعر وكأنها تربَّت على كتفه بصوتها الحنون القوي، ثم تلطم قلبه بالحقيقة التي يحاول جاهدًا تجاهلها.. فأستمع معه وهو مُمدد على الرمال يتأمل السماء المُكحَّلة ببعض النجوم لتستفزه، وكأنها تقول له: «هيت لك»، ليهم بها، ففي نهاية المطاف هو ليس يوسف الصديق، يُخرج كاميرته من حقيبتها، ويوجِّهها تجاه السماء؛ ليلتقط بعض الصور لي أيضًا، ويهمس موجهًا كلامه إليَّ:

- سأبقى معك حتى الصباح، لا أريد أن أكون وحدي اليوم.

جلسنا سويًا نستمع إلى أم كلثوم، حتى تبين الخط الأبيض من الخط الأسود، وامتلأت السماء بالسُّحُب.. أو رُبما أنها كانت بقايا دخان سجائر عاصي التي أحرقها.. أم إنها روح أم كلثوم جاءت تتأمل ملامح ذلك الرجل الذي يبكي فراق من أحبها أعوامًا على صوتها دون ملل، تتأمل إخلاصه المتأخر، وتضحك ساخرةً وهي تردد:

«الليل عليّا طال بين السهر والنوح
أسمع لوم العزال أضحك وانا المجروح».

يسألني بصوتٍ مرتعش خائف من الإجابة:

- أتتذكرني؟

ثم ينظر أرضًا ويُكمل:

- وماذا يمرُّ بقلبها حين تتذكرني؟ أهو كره أم حُب مُغلف بخذلان؟

تحشرج صوته وكأن الحروف تخنق روحه قائلًا:

- وربما لا أمرُّ ببالها ولو سهوًا.

خلع ثيابه غير مُبالٍ بشتاء يناير القارص، وبقسوة أمواجي، وتقدَّم مقتربًا مني، حتى احتويت جسده الدافئ بأكمله، ترك جسده أملًا أن أحمله بينها هو ينقِّب عن ملامحها يوم أتيا إلى هُنا سويًّا من قبل.. كأنه اتخذني شاهدًا على قصة حُب حزينة لم تكتمل، شاهدًا على فتاةٍ بريّةٍ حنانها بقدر قسوتها.. ضعفها بقدر قوتها.. فتاة غجرية الملامح والشعر والجسد.. تبدو وكأنها تُحفة «دوناتيلو» الفنية الجديدة تحمل من اسمها الكثير من الدقة والتناقض في الوقت ذاته.. أغمض عينيه وتركني أتغلغل لذاكرته، وكأنه يريد مشاركة أحدهم ذلك العبء القابع في روحه..

* * *

(٤)

ديسمبر ٢٠١٢

استديو دور أرضي مكون من غرفتين، مطبخ أمريكي، حمامٍ صغيرٍ، ومكتبةٍ ضخمة، وحديقة هي مكافأة؛ لكونك وافقت أنْ تسكن بدور أرضي، وحائط مليء ببعض لوحات فان جوخ المقلدة بالطبع.. بالطبع، ولكنها ليست رديئة أبدًا، وصوت أم كلثوم الذي لا يتوقف ما دامت هي بالبيت، وموسيقى «هاوزر» تحل محلها بمُجرد أن تختفي رائحتها.. إذ إنه لا يُحب أم كلثوم، ولكنه يُحبها هي، لدرجة أنه يحفظ جميع أغاني أم كلثوم عن ظهر قلب، ويغنيها لها من حين لآخر..

في ذلك الصباح استيقظ عاصي شاعرًا بالبرد.. نظر حوله، فلم يجدها إلى جواره، نهض نصف عارٍ يتحرك وهو يتتبع صوت أم كلثوم، كأنها بوصلته الأبدية لإيجادها، يتتبع الصوت حتى رآها جالسةٍ في الحديقة ملتحفة بوشاحها.. تحت المظلة محتمية من الشتاء الذي تُصدر نقاطه صوتًا يتّحد مع صوت الست، وتقرأ رواية وبجانبها كوب من الشاي الإنجليزي المفضل لديها، ثم تُغمض عينيها وتضع الرواية فوق صدرها، وتُرجع رأسها للخلف، وتقول في نبرةٍ هادئة تعبث بقلب عاصي:

- ستمرض هكذا. ارتدِ شيئًا.

ابتسم في تعجُّب فهو لم يُصدر أي صوت، وهي لم تره من الأساس لتدرك أنه لا يرتدي ثيابًا كافية تليق بهذا البرد.. تقول وكأنها داخل عقله وهي تنهض لتجلب وشاحًا وضعته بجانبها سابقًا، وتقترب منه، فتضعه حوله في حنانٍ بالغ وتلقائية أذابت قلبه:

- رائحتك تتحرش بحواسي بغيابك، فماذا تظنها فاعلةٍ بي في حضورك؟

قبَّل جبينها وسألها عما آلت إليه الأحداث في روايتها، فتبدأ تحكي بشغفٍ لذيذ عن التفاصيل والحبكة ودقة الأحداث، وتوقعاتها، تتجه للمطبخ وهو خلفها، ثم تُقاطع الأحداث وهي تتساءل إذا يريد أن يأكل أم يحتسي قهوته أولًا -هي التي تكره رائحة البن حتى، ولكنها أصبحت أفضل من يصنع له فنجانه بعد العديد من التجارب الفاشلة التي أُجبر أن يحتسيها بأكملها- فيخبرها أنه فقط يريد القهوة، لتضع له البسكويت بجانب فنجان القهوة، ثم تتجه للغرفة، وتحضر «قميصًا» تجبره على ارتدائه، تاركًا أول أزراره مفتوحًا، فيأخذ يدها، وتغني للست وتلفّ راقصة متجهة للشرفة.. يردُّ عليهما المطر، فيبدأ في الهروب من السماء.. وهنا يرقصان سويًّا تحت المطر ضاحكين.

***

ارتجف جسد عاصي داخلي وهو يحاول التقاط ما فاته، والتقاط أنفاسه داخل أمواجي. كتم أنفاسه في قاعي حتى صرت لا أعلم أهذه إحدى محاولات انتحاره الفاشلة، أم إنه يريد أن يشعر بأي شيء غير الندم. أردتُ أن أبقيه بداخلي لوقتٍ أطول، أريد معرفة

كُل ما حدث، ذلك الشعور القاتل بالفضول يجتاحني.. ماذا بعد رقصة المطر؟

أهو فضول أم إن مشاعري صارت كمشاعر البشر من معاشرتي لهم؟ أم إنني فقط أريد معرفة قصة ذلك الرجل الذي يأتي باستمرار إلى هُنا يرثي غياب نفس الفتاة طوال هذه السنوات؟

يبكي مجددًا، فتتّحد ملوحة دموعه مع ملوحتي، فأشعر بالشفقة عليه، كُل ما يريده هذا المسكين بعض من السكينة، ألا يصارع قلبه كُل صباح بمواجهة كُل ذلك الألم والاشتياق والندم.. في النهاية خرج من جوفي، وتمدد فوق الرمال من جديد، ولكنه كان يبدو كمن خرج من حربٍ للتو، أجزم أن صراع النفس أشد وطأةً من صراع كُل أهل الأرض دفعة واحدة، يبدو على ملامحه اليأس والخوف والوحدة مهما ادَّعى العكس.. تحسستُ الخوف في حركته رغم اندفاعته، هو ليس انتحاريًّا؛ هو فقط يُريد إيجاد ما يجعله يتشبث بالحياة، إيجاد سبب يستيقظ من أجله كُل صباح.. هو ليس انتحاريًّا، فقط ليس لديه حياة.

يقص عليّ مُجددًا قصتهم كطفل يُعيد الأبجدية مرارًا وتكرارًا حين يُخطئ؛ لأنه لا يستطيع اكتشاف الحرف الناقص.. يحاول اكتشاف ماذا حدث لحبٍّ كان يهرول إليه فضولًا واستسلامًا، حبًا انتشله من حُزنه الدائم، من وحدته.. ربتت بيدها على جروح الماضي وندوبه، حتى جعلت منه لوحة فنية يُمكن أن تقع في عشقها.

يتذكر حبيبته «ورد» ربما للمرة المليون.

يتذكر لقاءهما الأول التقليدي للغاية بالجامعة، ولكن كان له

وقع السحر على قلبه، كلية الفنون الجميلة.. كان جالسًا مع أصدقائه لتأتي «ورد» بشعرها الغجري وأشيائها المبعثرة للغاية، وثيابها التي فضَّلت لسببٍ لا يعلمه أن تكون ضعف حجمها، لتتعثر أمامهم، فيضحك ويذهب لها ليساعدها.. توقَّع أن تكون مُحرجة من تعثُّرها أمام مُعظم الدفعة.. لكنها لم تكن، ظلت تضحك من حماقتها، ولم يسعه سوى أن يضحك معها، شعر لحظتها أنه هو من تعثَّر لا هي.

سألها بخجلٍ لم يعهده من قبل:

- هل يُمكنُ أن أشتري لكِ أنتِ وأشيائك قهوة؟

لتقول له:

- فقط إن ضمنت أن أشيائي لن تحتسي قهوة معنا!

يضحك وهو يقول:

- لا بأس، سأقنعهم بينما نحتسي قهوتنا.

يذهبان، ويأتي النادل ليسلِّم عليه بحرارة.. يقول له عاصي:

- نريد فنجانًا من القهوة

ثم ينظر لها مليًا ويقول:

- دعيني أخمِّن.. قهوة فرنساوي.. صحيح؟

- كيف؟

يُكمل:

- وشاي من فضلك.

تنظر له في تعجب:

- شاي؟

- نعم، الشاي مشروب مُسالم للغاية.. بعض من الشاي والماء

وينتهي الأمر.. لا يحتاج جلَبة القهوة، جودة البن، وكيفية صنعها، والسبرتاية، والفنجان؛ ليكتمل الشكل الخارجي.. ستأتي قهوتك ساخنة للغاية، أما الشاي الخاص بي فسيكون قد برد قليلًا؛ لأن الشاي دائمًا ما ينتظر.. فإنه يمثلني.. دائمًا ما أنتظر، أما القهوة فهي سيدة القرار.. مثلها مثل بطلة الفيلم، بمُجرد ما أن تصل يبدأ التصوير، مثل ظهورك اليوم، بمُجرد ما ظهرتِ بدأ شيء ما، أما أنا كُنت كالشاي الذي ينتظر نضوجك، ولذلك خمَّنت إنكِ تحتسين القهوة.

كان يعلم أنه أثَّر بها، وكان ذلك يكفيه للغاية في لقائهما الأول.

* * *

تحدثا سويًّا وضحكا.. علم أنها ليست من مصر، وتجلس هُنا وحدها للدراسة، وتعود من حين لآخر لأهلها، تقطن في الزمالك؛ لتكون قريبة من الجامعة، أخبرته كم تُحب الكُتب والمشي في الزمالك فجرًا، وتأمل اللوحات الكلاسيكية والأنتيكات، تحدثت عن مكانها المُفضل والمزيكا التي تُحب الاستماع إليها.. أخبرته عن قصة حُبها غير المُكتملة مع البحر، وكسرة القلب الأولى حين اكتشفت أنه لن يُحبها وحدها حين كانت في الثامنة من عُمرها، فاتجهت لحُب القمر، بعدما اكتشفت أنه يتبعها أينما كانت، ولكنه يغيب كثيرًا، وسمعت إحدى صديقاتها تتحدث أن القمر يتبعها، فشعرت بالخيانة، فالأيام التي يغيب عنها بها يكون يتبع صديقتها، فعلمت أنه لا يُمكن الوثوق بالحُب كثيرًا، وإنه شعور مُهلك.. كان الكثير لتكتشفه فتاة في العاشرة من عُمرها، فمرَّ عقدها الثاني في سلامٍ من محاولات الحُب غير المُكتملة.

سألها:

- لماذا ينتهي الحُب في رأيك؟

تنظر له قليلًا وتُجيب:

- حين تنتهي اللهفة؛ فهي الشيء الوحيد الذي يزداد مع التعود والتأقلم على وجود الشخص، فالانبهار ينطفئ حين تكتشف كُل ما يُمكن اكتشافه، والحُب تغلفه المصاعب، ويتحول من نظراتٍ وحروفٍ لأفعالٍ، وتكاد تختفي المحبة الظاهرة، وتبقي الدفينة التي يلقِّبها البعض بـ«التعود»، ولكن ذلك التعود ينقذه من الملل اللهفة.. اللهفة التي تصيبك حين يختفي شخصك المُفضل لساعاتٍ، فتبحث عنه كالغريق الذي يبحث عن الهواء، اللهفة التي تقفز لقلبك فجأة لتقتل ما تظنه أصبح روتينًا.. اللهفة في الفراق، اللهفة في اللقاء.. اللهفة هي طغيان المسافة.

- ولكن من المُستحيل أن تتلهفي لأحدهم دومًا.. أليس كذلك؟

- لذلك أخبرتك حين تنتهي، حين تختفي تمامًا.. فاللحظات التي تشعر بها بارتباك في معدتك رغم مرور أعوام على وجود ذلك الشخص معك، حين تلمس قلبك ضحكته فتجد قلبك يضحك له دون أن تعي.. حين تتحمَّس لاحتساء القهوة معه زيادةً عن المُعتاد.. اللهفة تنتهي، ولذلك ينتهي الحُب؛ لأنه يصبح شخصًا اعتدت وجوده، وسيؤلمك فراقه لا لشيء سوى أنك اعتدته، ولذلك يجب دومًا إعادة تفعيل اللهفة.. الجنون هو الحل من وجهة نظري.

- غريبة وجهة نظرك في الحُب، وأجدها متناقضة.

- من منا ليس مُتناقضًا؟ بربك نحن نحمل صفات ملائكية

وشيطانية بداخل أرواحنا بالقدر ذاته.

- ومن نكون؟

- فقط بشر، مزيج من الاثنين.. ملائكة خطاؤون وشياطين بضمير.

يبتسم وهو يعلم أن عالمه انقلب رأسًا على عقب بتعثُّرها القدَري.

طلبت أن تتحرك؛ لأن لديها محاضرات، ويجب ألا تتأخر أكثر.. انتظرها ذلك اليوم وهو يحاول إيجاد مبرر مقنع يخبرها به.. إنه شعر بأنه مُكبل، ويجب أن يراها؛ رُبما هي اللهفة التي تحدثت عنها دون أن تظن أنه قاتل متسلسل.

ولكنها لم تظهر أو رُبما فقط لم يرَها، راوده شعور غريب.. شعور من النوع الذي يدغدغ الروح، ذلك الشعور الذي يجعلك تستيقظ مُبتسمًا، تحتسي قهوتك مبتهجًا، وتنظر للأغراب وتراهم ألطف من المُعتاد.. يجعلك ترى العالم مكان مُسالم.. راوده ذلك الشعور الذي يسبق الهاوية.

مرَّ أكثر من أسبوعٍ وهو يبحث عنها في الجامعة، يبحث عن شعرها الغجري وملامحها.. يتذكر أنهم قالوا عن الوقت إنه هو المداوي الوحيد.. لكن لم يذكر أحد أنه قاتل أيضًا.. تشرَّب حديثهما، أعاده في خياله آلاف المرات، وكُلما أعاده اكتشف جديدًا عنها.

لم يكن يعلم في أي دفعة هي وتنتمي لأي قسم.. ولكنه يُحب التخمين كثيرًا، وعادةً ما يكون تخمينه حقيقة.. فعلى مدار أعوام وجوده في تلك الجامعة يجد أن كُل قسم يطبع على طلابه،

تجدهم بطريقةٍ ما يشبهون بعضهم بعضًا، ولكن كان من الصعب حقًا تخمين لأي زمنٍ تنتمي، لأي حقبة زمنية.. تجد روحها من أربعينيات القرن الماضي، ملابسها مزيج من روحها وعصرنا، ملامحها لا تنتمي لبلدٍ، فلا تستطيع تخمين أصلها.. لكنتها البيضاء لا تُشير إلى رقعة، أفكارها لا تنتمي لمدرسة أدبية بعينها، فلا تستطيع تخمين كاتبها المُفضل، لا تستطع تحديد ديانتها من معتقداتها، فلم تذكر نبيًّا بعينه، ولكنها ذكرت الله كثيرًا، لم تذكر الصلاة، ولكنها ذكرت العبادة، لم تذكر الرهبنة، ولكنها ذكرت الترفُّع عن الخطيئة، لم تذكر الدعاء، بل ذكرت الذهاب إلى الله بروحٍ متصوِّفة زاهدة.

كان اليأس بدأ يتسلل إليه تدريجيًّا، سأله بعض من أصدقائه عما به؛ فلا يبدو بخير.. ضحك من سخرية السؤال، كان يودُّ لو يقول لهم عما ليس به أسهل وأسرع، ولكنها ظهرت حين كانوا يُحيطون به بأسئلة إجاباتها جميعها هي وحدها.. ليتحرك مُسرعًا تجاهها، فتنظر له في براءة، وكأنها لا تعلم ما جرى في قلب المسكين:

- مرحبا عاصي، كيف حالك؟

ينظر لها ويُريد أن يسألها أين كنتِ؟ لا تختفي مُجددًا.. نظر لأصدقائه يُريد أن يتأكد أنهم يرونها معه، وأنها حقيقة ملموسة كحقيقة اشتياقه غير المُبرر لها.. لم يكن عاصي يؤمن بالحُب كثيرًا، ولكنه يؤمن بذلك الاكتساح القدري الذي يقتحم قلبك ويعتصره لسببٍ مجهول من النظرة الأولى.. هو لا يؤمن بالحُب بعد المُعاشرة، فبالنسبة له لا يكون إلا إجبارًا للمشاعر، أما الحُب الذي يرتطم بقلبك على غفلةٍ منك، يأتيك بغتة، يجعلك تخطو بخطوات قدرية

للغاية يمهِّدها الله لتجعلك تسلك طريق اللامنطق بخطوات منطقية، وبشكل متناقض يجعلك تفقد عقلك؛ لتجد قلبك بدلًا منه.

يكسر صمته وشروده فيها ويقول:

- بخير الآن، وأنتِ؟

- بخير.. أعني لم أسقط اليوم، بعدُ.

- ألم أخبرك أنني سقطت في نفس يوم تعثُّرك؟

تضحك وتقول بنبرة طفولية:

- أتظن هذه الجامعة مبنية فوق مقابر جماعية لجنود الحرب؟

- ما رأيك أن نحتسي القهوة، ونبحث في هذا الموضوع؟

- ليس لديَّ وقت الآن، ولكن هذا رقمي.

ثم تُخرج من حقيبتها قلمًا وتكتب له على يده أرقام هاتف أرضي.. لتُكمل:

- ليس لديَّ رقم هاتف جوال، فأنا دائمة التنقل في البلاد.. أجد أنه من الظلم أن يقترن اسمي لشبكة اتصال دولةٍ بعينها، ولكن لم يُمانع صاحب المنزل أن يعلن انتماءه لبلدٍ بعينه، فأخذت رقم انتمائه.. هاتفني وقتما تشعر بالاغتراب.

- وما هو وطنك؟ لأي رقعة تنتمين؟

- جواز سفري فقط أنتمي له.. لا يوجد وطن كافٍ لهذا القدر من الجنون والتمرد الذي أحمله بداخلي، فقسمته بالعدل على دول المشرق والمغرب، فأشفق للحقِّ على وطنٍ مُجبر أن يحمل على أرضه كُل ذلك التمرد؛ فقط لأنه في ساعةٍ وتاريخٍ قد سقطتُ من أمي عليه.

- ألا تنتابك الرغبة في الاستقرار؟

- وحدهم الأموات لديهم رفاهية الاستقرار، أما نحن فنبقى هائمين من أرضٍ لسماء حتى تُنادي أرضنا على أجسادنا، فتحتضننا بداخلها، وتترك أرواحنا عاريةً بلا كساء للأبد.. فلديَّ أبدية من الاستقرار، لماذا أضيع سنيني بحثًا عما سأجده دون أدنى عناء؟

ثم ترحل وتترك بداخله تحدّيًا كبيرًا.. أن يكون هو وطنها، أن تكون ضلوعه هي الحدود التي ينتمي لها جسدها، أن تكون روحه هي سماءها، أن تكون نبرة صوته هي نشيدها الوطني، أن تكون رائحته هي غلافها الجوي، أن يكون هو الوقود الذي سيشعل روحها المتأججة دائمًا.. أن يكون انتماؤها الأبدي له وحده.

تركته أمام تحدٍّ جديدٍ مكون من سبعة أرقام هما بوابته لصوتها، ذهب لمنزله مُبكرًا يتأمل ساعة هاتفه والتراب المُحيط بها.. أتراها تُريد أن تنفرد بتلك السماعة التي تعلم عُذريتها بالتأكيد لرجلٍ يحمل هاتفه الجوال في يديه طوال الوقت، رجلًا لا يخشى عدم انتمائه لوطنٍ رغم وجود اسمه في إحدى شركات الاتصالات، لا يخشى أن يتنصل من جنسيته ومعتقداته وقضيته ويهيم معها عابرًا المُحيطات والدول والحدود، رجلًا لم يكُنْه من قبل، ولكن لا يُمانع إن كان هذا ما تُريده.

عند قرابة الساعة العاشرة ليلًا ظن أنه وقت مناسب؛ ليتحدث إلى امرأة لا تعترف بالوقت، تعيش دون روزنامة مواعيد.. عشوائية تنتظر أن يأتي القدر بالأشياء لها دون أن تسعى إليها.. ترمي بشباكها في البحر ولا تجمعها، تتركها فإن شبكت بها سحبتها معها، وإن لم تتذكر فقد قُدِّر لها النجاة.. لكنها نجاة مُزيفة، نجاة تجعلك تتمنى

لو أنك لم يُقدر لك الهروب من الموت.. فالموت بها نجاة والنجاة دونها هلاك.

يدقُّ أرقام هاتفها بحذرٍ، وكُلما اقترب من الرقم الأخير ازدادت دقات قلبه، فما وصل إلى الرنة الثالثة حتى وصله صوتها على مهلٍ، وكأن أوتارها تتراقص على أسلاك هاتفه لتقول:

- مرحبًا عاصي.

يبتسم ويقول:

- كيف؟

- لستُ جيدة مثلك بالتخمين، ولكنني علمتُ أنك ستحادثني اليوم، وربما الآن أيضًا.. حتى إنني وقفتُ بجانب الهاتف.

- لماذا؟

لم يطُلْ صمتها حتى قالت:

- لا أدري، يُمكن أن نعتبره تواصل الأرواح، وما إلى ذلك من علوم الطاقة اللانهائية.

- لكنني رغم موهبتي الكبيرة في التخمين لا أستطيع معرفة المزيد عنكِ.

- رُبما لأنه لا يجب أن تؤمن بأنك تستطيع اكتشاف كُل شيء من الوهلة الأولى، صدقني أنت نفسك ما زلتُ تكتشف ذاتك وخباياك مع مرور الأيام، فلا تكن بالسذاجة التي تُشعرك بأنك قادر على معرفة الشخص من برجه الفلكي وقهوته ومواعيد نومه.. فمتعة التروِّي لا تُضاهيها متعة.

قرر أنه سيتروَّى معها، سيجعلها تكشف له ذاتها رويدًا

رويدًا.. فهو رجل لا يعوِّل على النظريات كثيرًا، ولكنه لا يُمانع خوص التجارب؛ لإثبات أنه يجب ألا يعول على النظريات.. يتذكر أمه وهي تقول له يومًا: «ليس بالضرورة أن تكون نظرياتك كُلها صحيحة وإن كانت.. لا بأس أن تخسر نظرية لتربح شخصًا، لا بأس أن تُهزم كذبًا، وتنغلب لأحدهم؛ لتربحه هو ذاته».

قرر أنه سيخطو تجاهها لا تجاه نصره:

- أخبريني ماذا تفعلين؟

- أقرأ، أتريد أن أخبرك لمن أقرأ أم تستطيع التخمين؟

- لن أخمِّنك، سأتركك تُعلميني ما تُريدينني أن أعلم.

- الليالي البيضاء لـ«دوستويفسكي».

- عم تتحدَّث؟

- ما زلتُ أقرأها، ولكنها عن رجل خجول للغاية يقابل فتاة تُدعى «ناستينكا» يقع في حُبها، ولكنه لا يعترف لها؛ إذ إنها تكون واقعةً بالفعل في حُب رجلٍ آخر، وإنه كان قد أعطاها وعدًا في بداية صداقتهما ألا يُحبها.. قالت له: «أنا أحبك؛ لأنك لم تقع في حُبي».

ليقطع حديثها:

- أأنتِ واقعة في عشق رجل بالفعل؟

تتفاجأ من سؤاله وترتبك لثوانٍ ثم تقول:

- الحُب يظهر على ملامحنا، تكون قلوبنا في أعيننا.. فإن لم ترَه فلا.. لستُ واقعة في العشق.

- ماذا لو أنني فقط لم أكن بالفطنة الكافية لأراه؟

- صدِّقني، يستطيع الكفيف استشعار الحُب من نبرة

الصوت، الحُب مثل الحمل.. الحُب أن تحمل بقلبك شخصًا، أما الحمل فتحمل بحشاك طفلًا.. الاثنان لا يتخبى وجودهما كثيرًا يظهر على جسدك وقلبك وروحك.. فأنت لم تعد تملك نفسك حين تُحب، يشاركك أحدهم روحك وقلبك وجسدك، حتى يشاركك عقلك، ويسكن أفكارك، ويسرق وقتك.. إن استطعت أن تخفي طفلًا تسعة أشهر لن تستطيع أن تخفي حُبًّا تسع دقائق.. ستفضحك عيناك دومًا.

- ماذا لو أن أحدهم يُحسن الكذب؟

- هو إذًا ليس بعاشقٍ، العاشق يتحدث عن مُحبه ليلًا ونهارًا رغمًا عنه، يريد أن يخبر الجميع عن طباعه وعن مواقفهم سويًّا.. الحُب سرًّا ليس بحُب.. أتذكَّر أن جاءتني صديقة لي كانت دومًا تزعم أنها لن تقع في الحُب أبدًا، وأنه وهم المراهقات، حتى قابلَتْ ذلك الرجل فجمعَتنا جميعًا تصف لنا ملامحه، نبرة صوته، ووقْعها على قلبها، ملامحه، عمله وعقله.. ماذا يُحب وماذا يكره، ماذا أخبرها وماذا يعني.. رغم أنها صاحبة مقولة «داري على شمعتك»، ولكن صدِّقني ما اكتشفته إن أخفيت شمعة العشق أحرقتك؛ فهي كما الشمس إما أن تُضيء عالمك بأكمله، وإما أن تهلكه، وتتركك رمادًا في ظلام حالكٍ، لن ينقذك من ظلمته سوى من أريتهم شمعتك.

- يُسعدني أنني لن أكون في موضع بطل الرواية إذًا.

تضحك بارتباك، وتخبره بأنها يجب أن تنام، لم يحاول أحدهم استبقاء الآخر.. فقرر عاصي أن يجعلها تتحمَّل نتيجة رغباتها، فامرأة مثلها ليست من النوع الذي يُمكن ترويضه، ولكنها بالتأكيد

يُمكن مراوغة كبريائها.

مرَّ يومان على محادثتهما لم يستطع طردها من عقله، ولكنه استطاع التحكم في تصرفاته، فلم يظهر بحثه عنها، لم يظهر اشتياقه وتأمله شبه المستمر لملامح الخلق من حوله حتى تفاجأ بها تجلس بجواره وتهمس:

- أتنتظرني؟

يبتسم مرغمًا وهو يقول:

- تغريني جرأتك.. بالفعل، كُنت أتأمل وجوه المارين عساني أجدك بينهم.

تبتسم «ورد»، فتزرع بقلبه حدائق من ريحان في صحرائه الجرداء، كانت امرأة استثنائية حضورها طاغٍ، غيابها مُربك.. مؤثرة وقوية، ساحرة وعشوائية مزاجية الهوى.. تعثرت به أم تعثر بها لا يعلم، ولكنه لم يكن مُستعدًّا لتلك السقطة القدرية على كُل حال، ساقها القدر إليه في وقتٍ كان ما زال يكتشف نفسه والعالم من حوله.

* * *

تذكَّر يوم اعترف لها بحُبه، كانا في رحلة جامعية، وكانا قد قررا أن يسهرا لمُشاهدة الشروق؛ فهو شغفها الدائم.. فهو يجعلها تشعر بأنه سيكون كُل شيء بخير، ستنتصر الشمس مهما طال الليل، كان قلِقًا مُضطرِبًا.. ينتظر أن يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ليقرَّ لها عما فعلته بقلبه، أراد أن يلمس يديها ويودِّعها فوق قلبه ليجعلها تمسُّ صحراءه الخصبة، أن يضم رأسها إلى صدره

لتستنشق أريج ما زرعته بحروفها، بنظراتها، بغضبها الطفولي، وغيرتها التي تضمرها حتى عن نفسها أحيانًا.. يُريد أن يُريها ماذا فعلت به هي التي تركت عطرها في كُل رُكن من قلبه كعقابٍ جميلٍ له كُلما عاقبته، فاختفت تاركةً صمتًا ورنَّة هاتف تشبه البُكاء لا تجد من ينجدها على الطرف الآخر، فتُكمل نحيبها بصمتٍ متهالك، وحينها فقط اكتشف أن للصمت صخبًا.

- لو كنت أنا جنيًّا.. وأقول لكِ إن هُنالك أمنية ستتحقق، ماذا ستتمنين؟

- السَّكِينة.

- فقط؟

-أتمزح! تخيل أنك تستيقظ صباحًا بلا همٍّ، تغسل وجهك دون أن تفكر ماذا لو أن كُل حياتك مُجرد كابوس سخيف، وستستيقظ منه تجدك في الرابعة من عُمرك تبكي فتضمُّك أمك وتمشط بيدها شعرك، وتنفض عن روحك أحزانك الوهمية.. تخيل أنك تحتسي فنجان قهوتك دون أن تصارع نفسك لتذهب لعملك أو لملاقاة أصدقائك، دون أن تهلك أوردة قلبك المسكين وأنت تتساءل:

لماذا؟

وماذا لو؟

لو أنك تنام دون أن تبكي.. السكينة هي أن تُدرك أن كُل ما يحدث هو ما من المُفترض أن يحدث، وأن تتقبله.

السكينة هي أعظم درجات الإيمان بالله وبالقدر خيره وشره، ولا يضاهيها راحة.

وأنت ماذا كُنت لتتمنى لو أنني جني؟

- السكينة مثلك، ولكن الفارق إنكِ أنتِ سَكِينتي.. أنتِ من أستكين بها وإليها، لا بأس أن ينقلب العالم رأسًا على عقب؛ فوجودك معي يجعله على ما يُرام على أي وضعية.. يجعلني قادرًا على مواجهة كُل الصعاب، وحدك أنتِ أُدحَر أمامك.. لا أستطيع أن أتحداكِ ولو أن العالم بأجمعه معي.. سأتمنَّاكِ، أؤمن بأن الحُب يصلنا متأخرًا دومًا، ولكنكِ جئتِ في وقتك المثالي، فلو جئتِ مُبكرًا لأفسدتُ كُل شيء بهوجي، ولو تأخرتِ لما وجدتِ قلبًا، فقط كتلة من الثلج تدق دمًا مقرورًا لا حياة به.

تنظر له وعيناها دامعتين ليُكمل:

- ها هي تشرق الشمس مثلما أشرقتِ على عالمي.. فهلا تنصَّلتِ من المغيب؟ هل تتزوجينني فنشرق سويًّا وتغرب وحدها؟

سيكون البحر شاهدًا على وعدك وعلى إخلاصي.

أعلم أنني لستُ أفضل الرجال، ولكنني سأحاول أن أكون أفضل نسخة مني من أجلك.

- أعدك ألا أرصعك بغيابي شرط ألا تُشعرني بإنه خلاصي الوحيد.

كُلما تذكَّر تلك الجملة شعر وكأنها زارت المُستقبل خفيةً، أو كأنها تعلم أن سيارة الحُب الطائشة ستوصلها حتمًا إلى باب الخيبة، ولكنها لم تملك القدرة الكافية لتقفز من قصة حُب ستؤدي هلاكها، فحتى وإن كانت لديها القدرة فكأن سائقها ثمل يترنح من عنفوان الحُب لقسوة الغياب، فلا يُمكنها أن تتحمل إحداهما

فيكون هلاكها.

لم يكن يعلم أنه قد يُشعرها يومًا بأن رحيلها هو خلاصها منه، ومن داء حُبه الذي تجذر في روحها، حُبه المُسمَّم الذي يودي بكُل ما يمسه بداخلها.. كيف انتهى بهما الحال هكذا، كيف أهلكها إلى تلك الدرجة؟ ومتى استحوذ عليه كِبره الذي منعه حتى من البُكاء لها.. من استبقائها؟ هل تخطى توقه إليها؟ تخطى كُل شيء، ولكنه أبدًا لن يتخطى كيف أضاع ثقتها به، كيف أهلك سكينتها التي لم تتمنَّ سواها؟ حتى إنها لم تتمنَّه يومًا، ولكنه كان يُمكن أن يكون أداة لتحقيق السكينة التي كانت غايتها الوحيدة.. وجعلها وجودُه مُحالة التحقق.

* * *

(٥)

رغمًا عني ثارت أمواجي من تكرار الحكاية في صدر عاصي وهو أمامي جالس على الرمال.. كان كُل شيء تقليديًّا للغاية كعادة عاصي وندمه، وطيف «ورد»، وصوت أم كلثوم..

إلى أن اقتحم حفلتنا الصغيرة ضيفة شرف تتحرك في عشوائية ظهرت من اللا مكان.. ودون أي مقدمات جلست أرضًا بجانب عاصي، نظرت له وكأنها لا تلاحظه تمامًا، أو كأنه مُجرد طيف حتى طالت يداها علبة سجائره الممددة بجانب قدميه.. أخذت واحدةً دون أن تنطق بحرف واحد، دون أن تستأذنه حتى بملامحها.. أخذ قداحته وأشعلها وهو ينظر لها بانتظار أن تميل هي، وتبذل أي مجهود أو أن يحدث أي تلامس يثبت له أنها حقيقة وليست من وحي خياله المعذب.. نظر لي مُستنجدًا، ولكني لم أرغب حتى في أن أسعفه، كان بحاجةٍ في هذا التوقيت بالذات إلى فتاة بذلك الغموض.. عساها تحرك ما تحجَّر بداخله.. وبالفعل حرَّكت رأسها تجاه القداحة حتى أشعلت سيجارتها، ولمس شعرُها ساعِدَه، فتيقن من أنها هُنا حقًّا، وأنه لم يثمل لذلك الحد.

مرَّ الوقت معها سريعًا وبطيئًا في الآن نفسه، ما زالت تلك الغامضة مُمددة بجانبه صامتة يتأملها من حين لآخر بفستانها الأبيض القصير، عيناها السوداوان، أنفها المدبب وشعرها القصير المتمايل الذي يجد متعة خاصة في لمس عنقها، نهداها المتفرقان كطريقين متوازيين وشفتاها المتحدثتان رغم صمتها، يختلس النظر

لتلك التحفة الفنية، ومازال عاصي يحاول إيجاد الكلمات المُناسبة، فقد مرّت بعقله المئات من السيناريوهات التي يمكن أن تحدث، ولم يكن صمته من ضمنها، حتى نطقت ورحمته من ذاته وقالت:

- أنا لا أحب الشروق، إنه كاذب للغاية.. يوهمنا ببدايةٍ جديدة، ولكن ما هو إلا تكملة للواقع الرديء نفسه.

ردَّ مباشرة وكأنه يعرفها منذ الطفولة، وكأنها كانت معه منذ بداية السهرة:

- النهار يجعل كل شيء واضحًا للغاية، كذلك البحر القابع أمامك، يُريكِ تدرجات ألوانه، تستطيعين تأمل السماء والسُحب.. وحده الليل يكشف الحقيقة المؤلمة، فقط في الليل تستطيعين عدّ الجثث في قاعه، فقط في الليل تستطيعين رؤية ملامح روحك في السماء بذلك السواد الجذاب المليء بالأجسام المُضيئة.

تبتسم الضيفة الغريبة رغم تحجُّر ملامحها وتقترب منه.. دون تمهيد تقبِّل جبينه وجفنه في الوقت ذاته وتقول: الصمت معك كان مُريحًا أكثر من التحدث مع من أفنيتُ قلبي معهم.. أشكرك.

تستعير آخر سيجارة منه وتشعلها، وتهمُّ راحلة، ومازال عاصي لم يستوعب بعدُ ما حدث، ولكنه قام فزعًا يريد أي دليل حقيقي على وجودها، وأنه لم يفقد عقله من وحدته ليقول لها:

- ما اسمك أيتها الثائرة؟

تلتفت له وتقول وهي مازالت ترحل مبتعدة:

- إن التقينا مُجددًا سأخبرك.

نظر حوله وإذ بها رحلت وكأنها تبخرت، كأنها ملاكٌ هبط

ليشاركه يومه المُهم، ورحل بمُجرد أن انتهى الليل ليسمع نغمة موبايله تتعالى كطوال الليل، ولكنه قرر أن يجيب هذه المرة.. فلن يرغب أن يقضي يومه منتظرًا عودة تلك الغامضة.

وجد صوت «فرح» متهللةً وهي تمدح صورة اللاجئ التي بسببها ربح عاصي الجائزة، فيقول لها:

- كم من المُخزي أن تُباركي لي على مآسي الآخرين.. أنا لم أبغِ ربحًا ولا مالًا من زيارتي للمخيمات، فقط رغبت أن أكون سببًا لأوصل آلامهم للعالم.. أنا بكيتُ لأيامٍ بعد تلك الصورة التي لاحقتني حتى بأحلامي.. لا يمكنك أن تتخيلي كمّ العار الذي سأشعر به كلما رأيتُ تلك الجائزة.

تقول فرح وهي تحاول إقناعه بأن كلامه غير صحيح:

- إذًا لماذا لم ترفضها، ولم تصرح بمشاعرك هذه وتسلّمتها؟ يكفي عبثًا يا عاصي.. فلتشعر بالسعادة لانتصارك.

شعر بغضبٍ عارم وهو يجيبها بصوته الثمل:

- لأنني عاصي؛ لأنني أجلس الآن أبكي استلام جائزةٍ شعرت بفخرٍ لعين اجتاحني وأنا أتسلّمها.. لأنني بشر بداخلي سواد ونرجسية تجعلني أريد أن يردد العالم بأجمعه اسمي، ولكن هُنالك بداخلي ما يجعلني أكره أنهم سيرددونه فقط لعظمة المعاناة وليس الفن.. أنا ربحت الجائزة ولكن ليس لفني.. هل تعين أن المأساة هي من ربحت الجائزة وليس أنا؟ فلتتركيني فضلًا أعاني خسارة جائزة لم يربحها سواي.

تقول بصوتٍ حنونٍ:

- أنا بمنزلك، تعالَ لنحتفل بخسارتك سويًا.

أغمض عينيه، وهو يعلم أنه سيستسلم لها كما يفعل دائمًا، ليس لأنه يحبها، بل لأنها ملاذه، لأنها الذراعان الوحيدتان اللتان لم تُقفلا في وجهه أبدًا.

أغلق دون أن يجيب، ولكنها كانت تعلم أنه سيأتي، وهو يعلم أنها ستنتظر..

تأملني وكأنه يعتذر لي على وعده أن يقضي معي اليوم، وهو يأخذ خوذته التي تشاجر مع والدته المرتعبة أن يصيبه مكروه بسببها، لم تعلم المسكينة أن ابنها مثقوب الروح لم يشعره أنه على قيد الحياة سوى اللحظات التي ترتفع فيها نسبة الأدرينالين بسبب تلك الدراجة النارية.. تتباطأ حركته وهو يتأمل المكان من حوله ليبحث على أي دليل لوجود تلك الثائرة، ولكنه لم يجد، فقرر أن يذهب كعادته لفرح الموجودة دائمًا.. يركب دراجته النارية ويتحرك مسرعًا ليسبَّه أحد المارة، فيضحك ويقول:

- لن تموت قبل موعدك يا أحمق، لا تقلق، وإن كان موعدك الآن فيجب أن تشكرني فأنا أسدي لك معروفًا.

اعترف لي من قبل أنه يقود أحيانًا مُغمض العينين لثوانٍ معدودة.. كان ذلك يرفع الأدرينالين بجسده بطريقة غير اعتيادية.. يشعر وكأنه يقفز من الدور العشرين، ولا يخشى الموت على الإطلاق.. التحرر من الخوف هو أعظم ما قد يمر به الإنسان، أن يفقد تلك الغريزة التي تجعله يتقاعس عن كُل ما يمكنه أن يستمتع به من مخاطر فقط ليبقى على قيد الحياة.. لكنك لا تعلم

كيف تجعله يشعر بالحياة حقًا.

يصل ويجد منزله مُعبئًا برائحتها.. يبتسم من سذاجتها؛ إذ تظن أنها إن ملأت رئتيه وجسده ستملأ قلبه.. لم تستطع فتاة فِعل تلك المعادلة مستحيلة التحقق عداها..

يتذكرها، يتذكر وجودها وصوت غنائها، شَعرها الغجري وهو يغازل وجهه، رائحتها وهي تملأ رئتيه، صوتها الهامس الذي وقعه عليه كقوة الرعد.

ليغمض عينيه وإذ «فرح» تقول في دلالٍ:

«أحضرتُ لك فطار الهزيمة»

ليشعل سيجارته وهو يتأملها من أعلى رأسها لأسفل قدميها ليبتسم وينهض يقبِّل جبينها وهو يقول:

- ليس اليوم، أريد البقاء وحدي.

لتنظر له في غضبٍ تتأمل ملامحه المتحجرة لتقترب وتسأله:

-أرأيتها؟

يقول نافيًا:

- لو رأيتها أتظني أنني لأكون هُنا الآن؟

تجلس صامتة وكأنه قد صعقتها الحقيقة التي تعلمها جيدًا.. يجلس بجوارها، ويضع رأسه على كتفها؛ لتعتدل، فتكون في وضع يُريحه، وتحاول إيجاد مكان بروحها لطعنته القادمة.. تغني له أغنيته المُفضلة لديه وتكرر: «أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟».. يغفو على صوتها لتنهض بحذرٍ، وتضع رأسه على وسادةٍ ابتلَّت بدموعها الصامتة، وتغطيه بشالها عساه يستيقظ أقل قسوةٍ ثم ترحل.

يفتح عينيه بمُجرد أن يسمع صوت غلقها للباب، يتأمل السقف ويستمع إلى المزيكا في صمتٍ مُهلك.. يتأمل وحدته والفراغ المُحيط به حتى ينام وهو يتخيلها تحيطه بذراعيها كعادتها، حتى إن رئتيه امتلأتا برائحتها الغائبة، وفاح وهم عطرها الزائف القابع فقط بثنايا روحه.

* * *

(٦)

مرَّ اليوم وعادت لي تلك الثائرة في نفس الوقت.. جلست مكان جلستها هي وعاصي في اليوم الماضي، إن هذه البقعة غير معروفة، ولا يعرفها إلا محبو الوحدة والانعزال.. لا تدبُّ فيها قدم في الشتاء عدا عاصي الذي لا يتركني تقريبًا. تخففت تلك الثائرة من بعض ملابسها رغم الصقيع الشديد.. تقدَّمت لخوض معارك قاسية مع الطبيعة متحديةً الطقس.. لكن السماء رفضت ذلك التحدي، فهطلت أمطار غزيرة.. وقفت رافعةٍ رأسها لأعلى تصرخ وتضحك في الوقت ذاته، حتى اشتد غضب السماء، وزادت الأمطار غزارةً وقسوةً.. احتمت بي وغاصت في أعماقي.. كذلك فعلت أنا بها.. توغَّلت داخلها، رحت وجئت قدر ما استطعت.. عرفت اسمها وبعضًا من أحزانها، وقليلًا مما سمحت لي بمعرفته من حياتها الغامضة.. خفَّ المطر وقل هياجي، محاولًا الحفاظ عليها من بطشي قدر المستطاع.

بعد فترة بدأت في الخروج رويدًا رويدًا بينما تتساقط قطرات المياه الممزوجة بملوحة دموعها، حتى ارتمت على الرمال، وأخرجت من حقيبتها ملابسها، واختبأت داخلهم كطفل مُروَّع.. بقيت صامتة تتأملني، وكأنها تحاول معرفة ما إذا كُنت محل ثقة كافية لتحكي لي أم لا.. ترددتْ هي كثيرا، ثم قررت أن تحكي لمذكراتها.

أخرجتْ مُذكرةً سوداء اللون على غلافها جُملة «رُبما يومًا

ما».. راودني شعور الهياج والثورة لاتخاذها قرار إخفاء ما سوف تحكيه لمذكراتها عني.. شاركتني السماء الغضب وهطلت ثلوج، وكأنها قررت استغلال غضبي منها لتنتقم من تحدِّيها لها سابقًا.. لم تستطع بجسدها الهزيل هذا مجابهتنا، فأخذت ما بقي سليمًا من أشيائها، وركضت حافية القدمين ممسكةً بأشيائها التي تتبعثر منها على الرمال، تحاول جمعها لتستطيع فقط الوصول لسيارتها السوداء الفارهة التي تظهر من بعيد.. لم أستطع منع سخطي منها بأن أدفن مذكرتها التي سقطت منها في الرمال.. أعلم أنني لن أصل إليها حتى أغضب هكذا مجددًا، ولكن حين أصل سأبتلعها بداخلي، وأتجسس الألم بحبرها.. توقفتُ لثوانٍ أتأملها وهي تركض مبتعدةً.

****

مرّ الوقت طويلًا، وبقيت الأوضاع دون تغيير.

انتهى يناير، وانتهت معه نوبات هياجي المستمرة، وسهرات عاصي اليائسة بعد كُل انتصار له، وأعلنت الأرصاد عن رياح رملية على أنحاء البلاد.. رياح أمقتها، ولكن أنجو كُل عام بطريقة ما.. جاءني عاصي في أحد الأيام مُحملًا بثلاث علب سجائر أو أكثر، وبالطبع كاميرته الخاصة ومكبر الصوت ونظارة للغوص يرتديها عادةً، وذلك الوشاح الذي لا يفارقه كل موسم شتاء.. في الماضي كان يضمُّها إليه.. يجلسان سويًّا أمامي، لكنه الآن أصبح يجلس وحيدًا يضمُّ خيباته على ألحان أم كلثوم، وكأنه يستفزُّ روحها ربما تظهر له حتى لو كانت ستظهر لتلعنه وتمقته أو حتى لتنتقم منه.

ما لبثت السهرة أن تبدأ وإعصار صغير من الرمال يلتفُّ حول

عاصي الذي استعدَّ لمجابهته جيدًا، وبدأ في التحضير للتصوير.. بدأ في التقاط بعض الصور العشوائية لقياس الإضاءة وجودتها قبل أن تشتد الرياح، حتى وجد جملة «رُبما يومًا ما» في صورة التقطها، فنظر حوله بجنون رُبما كانت لها، هل ما زالت تأتي إلى هُنا؟

بقي يحفر بالرمال بيديه، واشتدَّت الرياح، ولكني أعلم أنه لن يتراجع حتى يجدها.. خلع نظارته ومعطفه ليسهل تحركه، وأكمل الحفر قدر استطاعته، حتى أشفقتُ عليه وقررتُ في تلك اللحظة مساعدته.. سكّنت الرمال من أجله قليلًا، وبعد فترة من البحث وجد ضالته.

وجد مُذكرةً سوداء تحمل فوقها تلك الجملة «رُبما يومًا ما».

لم يستطع كبح فضوله أكثر.. حاول فتحها، ولكنها كانت ما زالت مبللة ومليئة بالرمال.. خاف عاصي على أوراقها من التلف.. فهو لا يعلم إن كانت لها أم لغيرها، ولا يعلم محتواها.. تركها مقتولًا بالشكِّ والفضول، ووضعها في كيس بلاستيكي في حقيبته؛ ليجففها عند وصوله لمنزله.

حاول بعدها التقاط بعض الصور، ولكن عقله كان قد تمرَّد على مخططاته، وتهافت قلبه أملًا في أن تكون هذه المذكرة هي رسالة منها بعد أعوام من القطيعة، بعد أعوام من الغضب ومن الفراق.. بعد أعوام من آخر مرة ضمَّها لصدره وتأمل ملامحها، من آخر كوبي شاي وقهوة يحتسيانهما معًا، وآخر نظرة لها مملوءة بالدموع، وهي تقول له وهي بين ضلوعه تبكي خيبةً منه:

- أنا أكرهك

أغمض عينيه وكأنها لطمته بحروفها للمرة الأولى، وتمنى لو أن للهوى أمرًا عليها وفتَّت صخر روحها.. قطع الكيس

البلاستيكي، وأمسك المُذكرة، وحاول رفعها في اتجاه الرياح دون أن تفلت من يده.. قد يستغرق هذا منه وقتًا طويلًا كي تجف دون أن تتلف.

سقط الانتظار فوق قلبه، وكأنه فجأة قد ازداد شعوره بالوقت، وتغيرت معاييره، فأصبحت الثواني ساعات، وأصبحت الدقائق أعوامًا، وأصبحت الساعات قرونًا، الوقت وبضع الصفحات نجت من البلل، على الرغم من ضياع معالم الحبر الذي منعه من معرفة ما إذا كان هذا خط «ورد» أم لا.. لكنه قرر أنه سيقرأها على كُل حال لتزداد دقات قلبه قبل أن يبدأ.

بدأ عاصي في قراءة أول صفحة في المُذكرة؛ ليجد السؤال الذي سيؤرقه للأيام أو رُبما الأسابيع القادمة

* * *

(٧)

«هل يوجد حقًّا ما يُدعى سعادة أم إنه سراب اختلقناه حتى لا نفقد الأمل ونكمل ما تبقى من حياتنا هائمين بحثًا عنه؟».

لا أعلم كيف من المُفترض أن أكتب، أو ماذا يجب أن أقول، ولكن طبيبي النفسي قال إن الكتابة ستكون جزءًا من رحلة علاجي من الاكتئاب الحاد؛ إذ إنني لا أثق بأحدهم بالدرجة الكافية لأحكي له أحلك مخاوفي وأسراري.. إذًا فالكتابة والاعتراف هي الملاذ الوحيد.

ها أنا أجلس أمام البحر، يُغرق ورقي برذاذه المُحبب لقلبي ويملأ رئتيَّ برائحته، فيستمد قلمي من ملحه الحِبر الذي سيُقِرُّ به ويعترف عن نفسه؛ لأتنهد طويلًا، وأغمض عينيَّ، وكأنني ابتلعت العالم بحلقي، وأختنق بِه أحيانًا أشعر على الرغم من كِبر العالم، ولكنه رغم ذلك لا يسعني، رُبما المُشكلة الحقيقية ليست في صِغره، بل في كِبر ما بداخلي.

«ليل»

اسمي «ليل»..

أسماني أبي هكذا عندما ماتت أمي وهي تلدني، وكأنني الظلام الذي هجم على العائلة، اللعنة التي امتصَّت الحياة من أمي، وتركتها جثة هامدة.

كانت مريضة للغاية، وكأن القدر أخذها من أبي، وأعطاني له

في المقابل.. منذ دِقائقي الأولى في هذا العالم خسرتُ أعظم ما قد يُمنح للإنسان..

الأم..

لم أعهدها، لم أرها، لم أبكِ بين ضلوعها أبدًا.. بكيتُ ذكراها التي لم أعهدها قط.. خسرتُ كُل ما يُمكن أن يجعل الإنسان سعيدًا قبل أن أحصل عليه حتى..

لا أعلم كيف من المُفترض أن أبدأ.. هل أبدأ بطفولتي الناقصة، أم بعلاقتي السيئة بأبي الذي رُبما كان يُحمِّلني ذنب موت أمي في اللاوعي الخاص به؟ وجدَّتي التي تقمَّصت دور أمي وأبي.. لكنني في النهاية ورغم كل ذلك كُنت طفلة مُدللة، وكُل ما أطلبه مُجاب وكأنهم يعوِّضوني عن موت أمي، كُل ما أطلبه إلا شيء وحيد..

حُريتي..

كُنت كالعصفور الذي حبسوه في قفص من الذهب، وكُلما تقدمتُ في العمر علمتُ أن الحرية لا تُمنح.. فكانت أول عملية انتحار فاشلة لي في السابعة عشرة من عُمري؛ إذ إنني ظننتُ أن الموت هو طريقي الوحيد للحرية.. لكن جدَّتي استيقظت يومها لتجدني نائمةً في سريري تُقبِّل جبيني.. شعرتُ بها فلم أستطع منع نحيبي.. لتسمِّي الله وهي تتلو آيات من القرآن على حفيدتها التي استيقظت من نومها تبكي حسب ظنها.. وجدتْ معصمي مُمزقًا والدم متناثرًا حولي، لتصرخ وهي تنادي أبي.. لم أحاول منعها من إنقاذي، لكنني رغبت وقتها لو أنها فشلت حقًا؛ لأنني أعلم عاقبة ما فعلته إن تم إنقاذي.. لكن كالعادة لم يكن لديَّ القرار الأخير..

استيقظ أبي فزعًا في ذلك اليوم.. أتذكر نبرة صوته القلقة التي لم أسمعها بتلك الحدة من قبل، أكاد أجزم بأنه بكى بينما شعرتُ بالإعياء؛ جراء الدم الذي فقدتُه، ولكنني من حين لآخر أستطيع استجماع قوتي لأسمع ما يحدث حولي، ولا أعلم كم مرَّ من الوقت حتى سمعتُ صوت جدَّتي تقول:

«يا ليتها ماتت، ماذا سنقول للخلق؟ انتحرت بنتنا».

شعرتُ بأن الحزن يلتهم قلبي، يلتهمه كأسد جائع ينقضُّ على ضحيته، فينهش لحمها دون رحمة، متلذذًا بمذاق الدماء الدافئ في فمه، يلتهمه بكل تلك الوحشية والسادية دون ذرة رحمة، حاولت أن أبتلع خيبتي وأتخطاها.. أعلم أنني سأتخطاها، وسأكون بخير، ولكني فقط تمنيتُ لو أنني لم أكن مجبرة لخوض كل ذلك منذ البداية، كُنت أعلم أنه قد انكسر يومها شيء لن يعود أبدًا كما كان.. ورُبما أني فقدتها رغم أنني اعتدتُ الفقد، ولكني بعد كُل تلك الأعوام ما زال قلبي يئنُّ من حينٍ لآخر.

* * *

أغلق عاصي دفتر المذكرات وكأنه يغلق بوابة حُزنه، وقد اشتدَّت العاصفة أكثر أو رُبما هكذا هُيئ له جرَّاء ما شعر به.. روحه تنتفض من الصقيع، صقيع الحقيقة التي سكبتها تلك التي تسمى «ليل» بداخله.

كُل الحديث عن الخسارة والفقد، عن اللا انتماء.. رُبما لذلك خُلقت الأوطان؛ لا لشيء سوى لجعل الإنسان يشعر بالانتماء، وبأنه قد يضحي بروحه سبيل حفنة من التراب، أن يشعر بأنه

يمتلك شيئًا حكرًا له دونًا عن غيره من أهل الأرض، رُبما كان هذا هو الهدف الحقيقي من تقسيم العالم في المرتبة الأولى.. وتلك هي مأساة اليهود العظمى.. فحين أراد الله عقاب بني إسرائيل عاقبهم بالشتات ليوم الدين في بقاع الأرض.. وها قد مرت قرون وأعوام وما زالوا رغم كِبر كوكب الأرض وتطورهم بمساعدة العالم كله تقريبًا لكنهم لا يجدون لشعبهم أرضًا ملكًا لهم، بل يحاربون يوميًّا من أجل الحِفاظ على ما استولوا عليه، بينما شعب فلسطين الأبي الذي يحارب الاستعمار منذ سنوات لم يفقد الأمل أبدًا.

جلس عاصي مستعمرًا بالحُزن، ونبتت جذوره في روحه، وهو يتذكر علاقته بأبيه وأمه من إثر قراءته لكلام «ليل».. تذكَّر أنه خسر دومًا شيئًا يحبُّه قبل أن يربح ما يتمناه، وكأنه قُربان يجب أن يقدمه، ولا يُمكن أن تكون سعادته مُكتملة؛ أصبح يخشى كُلما اقترب من مكسب جديد، يصبح عندها قلقًا عما سيخسره في المقابل، حتى تأقلم مع الفقد.. بل إنه تأقلم حتى مع عدم الشعور بالسعادة، أصبح يحتفل بهزيمته كُلما انتصر، وكأنه ملعونٌ بالشتات والتعاسة.. يحتفل بانتصار زائف مثلما تستوطن أرضًا ليست أرضك.

مرّ وقت ليس بالطويل ليحلَّ الربيع، أصبح شاطئي منقسمًا بين زيارات الثائرة وعاصي.. وبضعة أشخاص آخرين لم تجذب حكاياتهم العادية فضولي.. حتى جاءت اللحظة التي انتظرتها طويلًا بعد ليالٍ من مشاركة عاصي قراءة مذكرات ليل التي لا يعلم أنها ذاتها هي الفتاة الثائرة التي التقاها منذ شهور، وجلسا سويًّا أمامي.

عاصي كعادته رقد مُمددًا على الرمال، وفوق صدره رقدت مذكرات ليل التي جاءت هي في فُستان أسود يُبرز بياض وجهها

الناصع ملتحفة على نقيض عاصي، فهي لا تتخفف من ثيابها إلا إذا كانت على شفا ثورة جديدة من الجنون.. رُبما هي مثل عاصي، والفارق أنه دائمًا خارج حدود المنطق والمعقول.. مُجرد أن رآها أخفى المُذكرات، وكأن جُزءًا بداخله كان يعلم أنها قد تكون منتميةً لها بشكل ما.. وكأنه لا يليق بغير تلك الثائرة سوى الحُرية.. يتذكر أنه قرأ أنها قررت الهروب حين كانت في الخامسة عشرة من المنزل، أخذت كمًّا لا بأس به من الأموال، وما استطاعت أخذه من الثياب في حقيبة ظهرها، وما منعها من الرحيل هو أن ضمَّها أبوها ذلك اليوم حين عاد.. فهدأت ثورة روحها ذلك اليوم.

أو أن عاصي ربما خاف أن تسأله عما لا يستطيع مجابهته، خاف أن يبرر لها ما حدث مع ورد، وأن تلك المذكرة هي أمله الخفي في مغفرة ورد له، ابتسم ونظر لها وهو يتخيلها كطفلة.. جلست بجواره تبتسم وهي تقول:

- ألا تتجمد خلاياك أبدًا، أم إنه يُعادل صقيعك الداخلي؟

تأملها وهو يحاول التأكد من أن ملاحها لم تتبدل، وأنها حقيقية وليست من وحي خياله كما اعتقد كثيرًا وهو يتذكر وجهها في الليالي العديدة السابقة، يتأملها وهو يحاول أن يحتفظ في ذاكرته بأدقِّ تفاصيل ملامحها.. حتى تلك الندبة في رأسها، والتي تعطيها كمالًا واقعيًّا.. وجد نفسه يقول:

- لا يتمكَّن منكِ الشيء إذا واجهتِه بنقيضه.

تغيرت ملامح وجهها، وتمددت على الرمال تتأمل السماء:

- غريبة فلسفتك، أعني أنني لطالما واجهتُ جدية العالم بالسخرية منه، لكن فقط لأنني لا أستطيع فعل شيء حيالها.. أما

البرد فأستطيع أن أغلبه دون مهاترات مُهلكة.

ثم صمتت.. تمدد عاصي بجانبها، وتأمل السماء بدوره؛ لتنهض هي بطفولة، وتستند على معصمها وهي تقول:

- رجل مثلك يأتي هُنا ليجلس وحده.. ظننتك تبحث عن سلامك النفسي لا الشجار.

- بالفعل أحاول الوصول للسلام النفسي، ولكن يسبق كُل سلام حرب.. لا يُمنح السلام، بل ينتزع مثله مثل الحُرية.. ألم تنتزعي حُرِّيتك؟

بدا عليها التيه للحظات، ثم ردَّت بشرود:

- انتُزِع قلبي بينما أحاول انتزاعها.

صمتنا سويًّا احتراما لحُرمة الذكريات التي فرضت وجودها عليها، حتى شعرتُ برائحة الماضي تختلط مع أمواجي.. عزفت لها ألحانًا صاخبةً حينًا وهادئةً حينًا آخر؛ لتقتل الصمت، حتى نهضت ليل واقتربت مني، فأسرع عاصي بإخفاء المذكرات بحقيبته، أستطيع سماع تنهيدة الحرية التي خرجت من روحه.

رأيته يقترب خطوات تجاهنا في حذر، وكأنه إن اقترب سريعًا قد يختفي طيفها لتقول له:

- ما هو عطرك؟ مهلًا لا تقُل سأحاول أن أخمِّن.

اقترب أكثر ليجدها مغمضة العينين تحاول تخمينه، وكأنها كرَّست كُل إشارات عقلها التي تذهب بالتساوي لحواسِّها أن تذهب فقط لأنفها، ثم تفتح عينيها، فتقترب منه تنظر لعينيه:

- مهلًا.. إنه ليس عطرًا.. إنها رائحتك أنت؟

أومأ برأسه لتغمض عينيها مجددًا، وتقول:

- لو كان للموسيقى رائحة لكانت رائحتك حتمًا.

وجد نفسه رغمًا عنه يتذكر ورد.. المرأة التي زرعت الصحراء الجرداء لحديقته فقط لتزهر بها وحدها دونًا عن جميع النساء مثلما كانت تهتمُّ بالزرع في حديقته.. حتى أزهر كُل ذلك الورد، ونبت شوكه، وأصبح بداخله حديقة من الشوك تؤلمه كُلما تحرك.. لكنه لم يجرؤ أبدًا على اقتلاعها، بل كان يرويها لتُكمل نموها، وكأنها عقابه الأبدي. يسألها وكأنه تحرر من صمته المُربك:

- أي بحر أحمق لفظكِ؟

- تظنني حورية؟

- ألستِ؟

- وددتُ أن أكون للغاية؛ إذ إنني لا أملك القدرة لأكون في هذا العالم، سأكون بخيالك.

- تظهرين من العدم وتختفين له كأنكِ ملاك أو حورية.. ما اسمُكِ؟

- حورية.. سأكون حورية وأنت؟

ليقول دون تردد:

- أنا بَحْرُكِ.

- ألن تلفظني؟

- لن ألفظك، ولن أجبرك على البقاء، سأكون هُنا كشاطئ ذلك البحر، لن أتحرك.. لا لإبقائك ولا لإجبارك على الرحيل.. سأكون هُنا فقط في هذا الوقت من الليل دائمًا.

- ماذا لو قررتَ أن تختفي؟

- لا يختفي البحر، يثور البحر أو يهيج.. لكن لن يكون من

الصعب أبدًا إيجاده.

ثم تحرَّك تجاه حقيبته، وأخرج ميدالية تحمل الكثير من مفاتيحه، وأخرج منها مُجسمًا للكُرة الأرضية وأعطاه لها:

- لن يختفي اللون الأزرق من على الخريطة إلا بنهاية العالم.

- المسطحات المائية تُشكل ٧١٪ من الكرة الأرضية.

- هنيئًا لكِ، أنا أحاوطك إذًا.

- ألا تُريد معرفة من أنا حقًّا؟

- بلى، يحرقني فضولي، ولكن أريد أن أتشرَّب تفاصيلك على مهْل أيتها الحُورية.

- أحببتُ هذا الاسم، أن حُذفت الواو أصبحت «حُرية».

- لا تليق بسواكِ أيتها الحورية الثائرة.

قالها وجزء بداخله يتمزق، الجزء الذي لم يتغزَّل بسواها من قبل. كان يعلم جيدًا كيف يجعل النساء يفهمْن غزله دون أن ينطق به فعليًّا، ولكن فقط مع تلك الثائرة يريدها أن تفهم كل حرف، مما يقوله أو يخفيه. لذلك لأول مرة يشعر أنه يخون ورد.

رغم علاقاته المُتعددة ولكن أمام تلك الثائرة، فهذه أول مرة يشعر بالخيانة، تلك الخيانة التي تجعله ينتظر ويشتاق ويتلهف ويحارب تلك الرغبة المُلحَّة.. ينظر حوله وكأنه يريد أن يجد ورد الآن أكثر من أي وقت سابق، أو أنه خائف لو أنها جاءت الآن لتغفر له فتجده بجانبها، ستكتشف كُل شيء بمُجرد أن تتطلع بعينيه.

سترى ما بداخله من عينيه كعادتها.. يشعر بالخوف، وكأنه كُلما خاف يركض لذكرى ورد.. وكأنها منزله وشارعه القديم.. يراها تتمدد بجانبه وتشعر بأمان يجعله يتعجب ويتساءل: هل هو

جدير بالثقة؟ أم إنها لا تخاف وحسب؟

لكنه في كل الأحوال لن يخذلها.. لا يعلم لماذا ولكنه يعلم أنه لن يخذلها أبدًا.. رُبما يحاول تصحيح خطاياه، ورُبما أصبح يعلم أنه سيُعاقَب مُجددًا، وشيء يجعله يشعر بأنه لن يتحمَّل فقدانها، لم يعد لديه الطاقة التي تجعله يتقبَّل خسارة ما يلمس قلبه.

***

مرَّ أسبوعٌ ولم تظهر الحورية، يأتي يوميًّا عساها تظهر، ولكن لا يوجد دليل مادي واحد على وجودها حقًّا، لا سقط شالها منها أو نسيته على شاطئ، لا رقم هاتف يستطيع الوصول إليها من خلاله، ولا حتى اسم يستطيع أن يطرق كُل باب؛ بحثًا عنه.

حاول قتل شوقه غير المبرر إليها بقراءة ما يظن أنه حروفها، لكن ماذا لو لم تكن؟ ماذا لو أنه وقع في عشق امرأتين في الوقت نفسه، حورية و «ليل» أو بالأحرى ثلاث.. فهو لن يتوقف عن حُب ورد أبدًا، يعلم أنه أيًّا كانت المرأة التي سيكون معها ستشارك قلبه مع ورد.. سيكون لها دائمًا شريكة خفية لا تستطيع كرهها حتى.

تجبره على التساؤل وعلى إجابة أسئلتها التي حاول غضَّ نظره عنها أعوامًا، ليجدها كالكرة التي ركلها بعيدًا فيتحقق قانون الفيزياء الأعظم وتعود له وترطمه بنفس القوة والسرعة التي ركلها بها..

من المؤكد أن امرأة تشعر بذلك الكم من التناقض ستفقد جزءًا من سلامتها العقلية والنفسية.. أو رُبما هي الوحيدة السليمة نفسيًّا وعقليًّا بما لديها من إنسانية ورقة قلب.. لكن هذا العالم كُلما رأى جمالًا لا يستطيع سوى أن يحوِّله لقُبح مشابه له ليستطيع

التأقلم.. رُبما هي ما تظنه صحيحًا والعالم يعاقبها على اكتشافها الحقيقة.. كالقاتل الذي يقتل كُل من يقترب من كشف جريمته.. رُبما المجاذيب هم العقلاء الوحيدون في العالم، جميعنا فقدنا عقولنا، ولذلك صامتون.. وحدهم يصرخون بالحقِّ في منتصف الطريق، يخلعون ثيابهم دون الحاجة إلى الاختباء مثلنا، لا يقدِّرون الشخص بنوع الساعة والحذاء الذي يرتديه، بل عندما يجلس بجانبهم أرضًا يسمعهم ويحادثهم دون أن يعاملهم على أنهم مجاذيب.. هُم العقلاء وجميعنا مُختلون يا ليل، أنتِ ربحتِ.



(٨)

يفتح عاصي صفحة عشوائية كما يفعل مع كُل شيء، فهو لا يتذكر أنه قرأ كتابًا أبدًا بالترتيب، يُحب أن يختار الصفحات بعشوائية ثم يخمِّن الحقيقة، القاتل، الخائن، النهاية. فهو لا يُحب أن يقرأ ما يرغب الكاتب أن يجعله يقرأ، لا يُحب أن يقرأ وجهة نظر الكاتب، بل يحب أن يتوقعها ويخلق وجهة نظر خاصة به.. نحن نمر بمواقف نظنُّها عشوائيةً، وإذ بها تقلب عالمنا رأسًا على عقب... نقابل غريبًا ليكون يومًا ما أقرب لنا من جسدنا.. نحنُ الذين لم نعِرْه الاهتمام الذي يستحقه في اللقاء الأول، نصاب بالصداع لنكتشف مؤخرًا إنه ما كان إلا عرضًا لمرض مُميت.. فليس دائمًا تؤدي المقدمات إلى نتائج.

يبدأ بالقراءة بصوت عال، وكأنه يحاول الهرب من صخب أفكاره:

٢٠ نيسان

أحب الشهور السريانية، أستطيع أن أجد حكمةً أو سُخريةً إن حق القول في كُل شهر، فأنا من مواليد شهر نيسان- أبريل، ولكنني لا أنسى شيئًا، لا بشر ولا تاريخ ولا مُناسبة.. أتذكر كُل شيء وكأن شهري أخذ كُل مخزون النسيان من عقلي له وحده.. لا أستطيع منع

نفسي من تخيُّل سهولة حياتي لو كُنت مثل تلك السمكة في فيلم الرسوم المتحركة «دوري» والتي شاهدتها مع «غيث» يومًا، فقال لي وهو يضحك:

- هذه السمكة حمقاء ولكنني أحبها.

ضحكت بشدة.. لا لأنه يلقِّبها بالحمقاء، ولا لأنه يضحك.. بل لأنه يحبها على الرغم من حماقتها.. كنت أشعر بالفخر به كُلما وجدته بفطرة شديدة يُعلِّمني ما كان يجب أن أتعلمه طوال أعوامي السابقة.. علمني أننا لا نُحب الشخص لشيء مميز.. بل نحبه على الرغم مما هو عليه، علَّمني التقبُّل.. فأنا لا أستطيع النوم لو أن هُنالك ضوءًا بالغرفة، وهو يخاف أن ينام بالظلام، وكان مريضًا في ليلة، فغفوتُ بجانبه لأجده يحاول تحريك رأسه الصغير من فوق قلبي لأنظر له بخوف وأسأل:

- أأنت بخير صغيري؟

ليرد بنبرة مريضة لا تقوى على النهوض:

- لقد نمتِ بجانبي، ستصابين بالصداع إن لم أغلق الضوء في الصباح.. لا أريدك مريضة.

كُنت بين صراع أن أتركه يغلق الضوء ليتعلم كيف يحاول إرضاء من حوله، وبين تعبه واحتياجه للنوم والراحة.. كان صغيري يعلم أنني أمرض إذا نمتُ بغير فراشي، ولذلك يحاول إراحتي قدر المستطاع.. نظرتُ له وكأنني أشاركه ظنوني:

- ولكن ألن تخاف؟

غاص بين ضلوعي:

- أنتِ هُنا، أنير الضوء ليلًا؛ كي لا أخاف، ولكن أنتِ ضوئي.

أتذكر أنني بكيتُ في الظلام ليلتها كثيرًا، ولم أستطع النوم، كأنني أنا الضوء فعلًا، ولو غفوتُ سينطفئ ويخاف.. مع حبيبي «غيث» تعلمتُ أنني كافية، فقط كوني هُنا بجانبه كان بالنسبة له أمرًا كافيًا للغاية.. وقد كان هذا مُعقدًا بقدر بساطته، منذ علمتُ بوجوده في رحمي وتحوَّلت حياتي معه من كوني محورها إلى كونه هو العالم والمحور والحياة.. وكأن المجموعة الشمسية بأكملها تحمل نقاطًا متفرقة حتى تكون اسمه.. كان هو «غيثي» الذي أنقذني من التصحر، كان نتيجة صلاة الاستسقاء التي صلَّيتها لأعوام وأعوام، وأنا أدعو الله أن ينقذني من نفسي، جاءني هو ليكون -نفسي- في جسد هزيل صغيرًا وقلبًا بحجم العوالم جميعها، جاء ليعلِّمني كيف نهب قلوبنا وأرواحنا وعقولنا لننال ابتسامة أو حُضنًا في صباح وفي الليل وأثناء اليوم.. جاء ليكون العالم الذي فقدتُه وفقدني.

والآن صرتّ أنا فقط.. بلا عالم، بلا حياة.. بلا غيث.

* * *

إلى هنا أغلق عاصي المذكرة، ووضعها بعيدًا كأنه خائف مما سيتم ذكره، لا يريد أن يتوقَّع متى مات غيثها وكيف، شعر لأول مرة أنه يتلصَّص على ذكرياتها المُحرَّمة.. شعر فقط أمام الموت بالرهبة والخوف الشديد فإن «ليل» ليست مُجرد ثائرة وامرأة جميلة للغاية، هي لا تثير فضوله وتستفز عقله وروحه فقط.. بل

هي أيضًا أم مكلومة، هذه المذكرات تحمل دموع أم مكلومة على ابنها، ليست مُشكلتها الحُب أو التيه أو غيره.. مُشكلتها هي سبب وجودها ذاته.

وجد هاتفه يرن ليجد اسم «فرح» يضيء شاشته، ابتسم.. كان يعلم أنها ستحادثه حتمًا.. ردَّ عليها:

- فرح؟

- أين أنت؟

- سأكون بالبيت في غضون دقائق.. وأنتِ؟

جاءه صوت تنهيدها:

- في حديقتك.

- سأصل فورًا.

أغلق الهاتف وهو لا يعلم لماذا يكون معها بتلك الأنانية المُهلكة.. برر ذلك لنفسه أنه لو ابتعد عنها ستموت، هي تريد أن تكون معه أيًا كان المُسمى، رغم علمه بأنها لن تموت من دونه، لو كان لأحد أن يموت بالعالم دون حبيبه لمات هو بعد ورد.

وصل المنزل ليجدها قد جهَّزت له عشاءه المُفضل، وهي تنظر له بابتسامة وأمل لم يستطع إحباطها.. ارتمت بين ضلوعه تشمُّ رائحته دون أن تتحدَّث، لم يقاطعها، فقط همس لها:

- هل ذهبت لحظات غضبك المجنون؟

- بل فاق اشتياقي لك غضبي منك، فأتيت لأغضب معك.

ضمَّها وهو يتنهَّد طويلًا.

كانت هذه من المرات القليلة التي ضمَّها بكلتا يديه.. فهو لطالما لا يتمسك بالشيء بالقدر الذي يجعله يحتفظ بيه بين ذراعيه، يضمُّه بعمق حتى يشعر به في قفصه الصدري.. فقط واحد كان كافيًا للغاية، ولم يحتج الأمر الكثير من الذكاء ليتم اكتشاف الحقيقة الحزينة وراءه ولكن في الغالب لم تكن فرح غبية.. ظنها تُفضل تجاهل الحقيقة. تخدع نفسها وكأنها تحاول إيجاد ولو سبب واحد كافٍ للبقاء.

بكت لأول مرة أمامه، لطالما بكت وهو بين ذراعيها نائم أو غير مكترث، ولكن تلك هي المرة الأولى التي تبكي، وهو يدرك ذلك من ارتعاش جسدها الهزيل بين ذراعيه اللذين هما كُل عالمها، حيزه الضيق الذي أصبح بطريقة ما كُل ما تحتاجه من وِسع.. همس لها معتذرًا لأول مرة:

- آسف.

رغمًا عنه تذكَّر «ورد» وهي تصرخ به يومًا:

- هل يقتلك أن تعترف بخطاك؟ كفاك نرجسية!

- أنا لست نرجسيًّا.. أنا فقط لا أرى أنني فعلت ما يستحق الاعتذار.

- هذا تحديدًا ما قد يقوله شخص نرجسي.

- لن أعتذر.

- وأنا لن أقبل كُل حيلك التي تقوم بها فقط كي لا تعتذر، ستعتذر يا عاصي.

- ...

- سيجعلك كبرياؤك المريض تموت وحدك.

ثم رحلت يومها، وارتطم الباب خلفها بحدة، حتى إنه سمع صوت الباب مُجددًا..

فزع من ذكرياته، وابتعد قليلًا وهو ينظر لفرح بأنفها الأحمر ووجهها المُبلل بدموعها.. مبلل بألمها منه.. أخذ بيدها وجعلها تجلس برقّة وجلس أمامها على ركبته.. دفن رأسه بين ذراعيها وهو يقول:

- أنا لستُ بذلك السوء، ولذلك لن أكون بتلك الأنانية معكِ.. سأطلق سراحك.. سأحررك من أنانيتي المُهلكة، لن تبكي بسببي مُجددًا، اسمعيني جيدًا يا فرح، أرجوك اسمعيني بصدق هذه المرة ودون عناد.. أنتِ أطهر من خطاياي، أطهر من عُهري، كُل ما تفعلينه بدافع الحُب وكُل ما أفعله انتقامًا منه.. ولكني اكتشفتُ أنكِ من تتأذي بينما أنا غارق في نوبات انتقامي العشوائية.

شعر بصوتها يحاول منعه مما هو على وشك القيام به فهمس:

- أنتِ حُرة مني، للأبد.. انجي بما تبقّى من قلبك.. أنتِ تستحقين الأفضل تستحقين الحُب والأمان، لن أكون لعنتك.

بكت بحرقة:

- لا بأس، أنا لا أمانع.

نهض صارخًا:

- أنا أمانع، أنا لا أريدك هُنا.. أنا أتمزق بوجودك يا فرح.

ثم اقترب أكثر وضمَّ رأسها لصدره وهو يقول:

- ليتني قابلتك في زمان آخر، في وقت أكثر ملاءمة.. لكن هذا لم يحدث، ولذلك عليكِ الرحيل، هذا ليس فراقًا.. لكنه وداع حتى نلتقي مجددًا في زمن آخر، وأستطيع يومها أن أمنحك ما تستحقين.

لتقول وهي تضحك باكية:

- ورد؟ أليس كذلك. متى ستفهم أنك لا تُحب ورد يا عاصي، أنت يقتلك شعورك بالذنب لا أكثر.. تتذكر تلك الليلة دائمًا، لست أنت لعنتي، بل هي لعنتك يا عاصي.

ردَّ وهو يحاول التمسك بأعصابه وهي تنبش في جروحه بقسوة:

- حتى وإن تخطيتُ ورد، لن تكوني أنتِ من سأستيقظ بجانبها بعد أعوام من الآن، ليس في هذا العالم.. ارحلي الآن يا فرح، تلك نهايتنا.

* * *

في ليلة ملعونة مع ورد.. قالت له بغضب:

- عاصي أنا أحببتك حد الموت، كُنت على استعداد أن أضحي لك بعُمري فقط إن طلبت.. لماذا يا عاصي؟

- أنا أسف، حقًّا أنا أعتذر.

- الآن تعلمتَ كيف تعتذر، ليتك لم تكن مُجبرًا أن تؤلمني لذلك الحد لتعتذر.

ليقترب ويضمَّها، فتبكي بحدة هي تصرخ:

- ابتعد عني، أنا أكرهك يا عاصي.. أكرهك.. ارحل.. تلك نهايتنا.

ليشعر بقبضتها على صدره تحاول إبعاده عنها مُجددًا، وكأنه يعيش ذلك اليوم منذ سنوات، ولم تختفِ علامات قبضتها من على صدره بعدُ، ما زال يحتفظ بذلك القميص الوحيد الذي يحمل ما تبقّى من رائحتها في كيس بلاستيكي.. يخاف أن يفتحه؛ حتى لا تهرب رائحتها مثلما هربت هي.. رُبما هذا فقط يُعزيه أنه إذا امتلك الشجاعة الكافية يومًا ما ليفضَّ الكيس، ولا يُمانع أن تكون تلك المرة الأخيرة التي قد تتيح له الفرصة باستنشاق رائحتها.. لم يعلم متى سيستطيع مواجهة النهاية.. لكنه يعلم أنه لن يستطيع مجابهتها، ليس الآن، لم يستطع لسنوات ورُبما لن يستطيع لسنوات أخرى.. ليس بعد ما فعله لها حتى يرغمها على سماعه.



(٩)

رحلت فرح وهي تترجّاه بكُل ما استطاعت من حُب أن يبقيها.. لكنه على الأقل اكتسب عادةً من ورد غير حُبها غير المُنتهى لأغاني أم كلثوم والقهوة.. أخذ جملة: ارحل، هذه نهايتنا. كنهاية حتمية لا جدال بها، فهذه آخر حروف سمعها منها، هي التي كانت لا تتوقف عن الكلام أبدًا عن إخباره بكل تفاصيل يومها، بدايةً من أن النادل وضع لها سُكرًا بالشاي بدلًا من العسل، وبمشاكلها مع رفيقتها المقربة وأمها، وكيف تُعاني من اضطرابات هرموناتها. أحيانًا كان يشعر بالضجر من كثرة التفاصيل المُهلكة التي تخبره بها.. لكنه يُعاني الآن افتقاده لتلك التفاصيل حتى إنه أحيانًا كان يسمع «مقاطع الصوت» الخاصة بها وهي تخبره عن الرواية وما حدث بالبطل؛ لأنها متحمسة للغاية، ولا تستطيع أن تنتظر حتى يستيقظ.. سمعها مرارًا حتى أصاب بنوبة جنونية، ومسح محادثتهما، ومسح أي دليل على وجودهما وبكت روحه ندمًا على ذلك.

يتذكر يومًا تشاجر معها؛ لأنه كان مشغولًا للغاية برغبته في ربح إحدى الجوائز العالمية، وكانت تقصُّ له ماذا فعلتْ مع كلبتها؛ كي تعاقبها على أنها تبولت فوق الفراش.. قال لها:

- حبيبتي، أعلم أن تبوُّل الكلبة على الفراش حدث جلل، ولكن هل يُمكنك تخطي الأمر؟

لتقول له بنبرة ضاحكة تجعله يضحك رغمًا عنه:

- حسنًا لن أحكي لك عن تبول كلبتي مُجددًا، ولكن أعدك لن يكفيك عض أصابعك العشر، ستعض على قلبك ندمًا.

يتذكر تلك الليلة، وكم كانت جملتها سببًا لضحكه لأيام وهو يسخر منها، لم يكن يعلم أنها ستعاقبه بالصمت المملّ، أنها ستسمع منه فقط دون أن تتحدث، وكُلما تحرش برغبتها الملحة في الحكي يبدأ بـ:

- كيف كان يومك؟

- إممم لطيف، حدثت الكثير من الأشياء التقليدية.. لا شيء مميز.

انهار بعد سبعة أيام، كانت تصنع له قهوته، وتستمع إلى الست وهي تقول: «أنا غيري في عذابي في حُبك، أنت غيرك إيه».

لتغني معها بصوت أشبه بالصراخ ليدخل المطبخ ويأخذ يديها يقبِّلها وهو يقول:

- أرجوكِ، شاركيني تفاصيلك التافهة مجددًا، وسأحترمها.. هل أخبرتك أنني اخترعت عقابًا للكلبة حتى لا تتبول مجددًا على الفراش.. سأشتري لنا حتى فراشًا جديدًا. كفاكِ عنادًا أرجوكِ.

يتذكر ضحكها العالي وهي تتجاهله، وتغني كما لو أنه لم يتحدث، ليحملها وهي تصرخ:

- ستفور القهوة، وسأرغمك على التنظيف.

- لن أتركك قبل أن تحكي لي مجددًا، عديني.

- لن تملَّ مجددًا؟

- أبدًا أبدًا، أعدك حتى سأضرب ذلك النادل الذي يضع لكِ سكرًا بدلًا من العسل بالشاي.

- حسنًا غفرت لك، ولكن فارت القهوة فستنظف حتى أعدَّ لك واحدة أخرى.

يتذكر عاصي، ويتفتَّت قلبه، كم يشتاق لقهوتها، لصوتها، لسخافتها وتلقائيتها، لعنادها.. ولكن كم طال عنادها تلك المرة.. طال إلى الأبد!

حاول الهرب من صندوق الذكريات الذي فتحته فرح ليأتي إليَّ وإلى أمواجي من جديد.

جلس عاصي أمامي ليقصَّ لي كُل ما حدث مرات ومرات.. وكأنه يحاول أن يريني كم هو بائس وحياته فوضوية لعلني أخبره بتفاصيل جديدة عن تلك الثائرة التي بات متأكدًا أنها «ليل» صاحبة المذكرات.. لكنني لم أشكَّ بذكائه، سيخترع حيلة مؤكدًا، ولكنني لا أشك بذكائها أيضًا.. لن يتأكد من ذلك إلا حينما تريد هي.

* * *

(١٠)

مذكرات ليل

السابع من أيلول

الليلة أعلم أن زوجي «شريف» بين ذراعي امرأة أخرى.. وأنا التي ذكَّرته بالموعد، لا أستطيع أن أبالي أقل، ولكن أي شيء لإبقائه بعيدًا عني.. المرأة تعتبر النقيض مني، شقراء طويلة بجسد ممتلئ وضحكة خليعة سمعتها يومًا وأنا بجانبه، وهو يقود السيارة بي، وبـ«غيث» للبيت من دهب، لكنني تجاهلتها، وضحكت في أعماقي حين رأيت ارتباكه من احتمالية أنني سمعتها.. اصطنعت اللعب مع غيث، وبقينا صامتين حتى وصلنا للمنزل، أخبرني ليلتها بأن لديه اجتماعًا عاجلًا، فنظرتُ له في تفهُّم وأنا أحتقره في أعماقي.. لكنني حقًّا لا أبالي، فلا أنا أغار، ولا أريده من الأساس.

وضعت غيث في غرفته تلك الليلة.. أخذت أتذكر بداية معرفتي به..

منذ خمس سنوات كُنت أظن «شريف» هو الحصن الذي سأهرب إليه من أهل أعلنوا تبرُّؤهم مني.. اكتشفوا أنني يجب أن أتزوج لأُستَر، كان رجلًا شجاعًا.. تصدَّى لهم جميعًا، ووقف أمامهم من أجلي، وأخذني من بين أنيابهم في أسبوع واحد.. لم أكن أعلم وقتها أنه السجن الذي سأؤسر فيه بإرادتي الحُرة.. كُنت

أعلم أنه ليس الرجل الذي سأهرم بجانبه، ولكنه كان خيارًا مؤقتًا مناسبًا في وقتها، كُنت لا أمانع فكرة الطلاق، وكُنت أعلم أنه لن يمانع كذلك.

بالطبع لم أتناقش معه بفكرة الطلاق قبل الزواج حتى.. لكنه كان مُطلقًا ولديه بنتان، فمن يكسر حاجز الفعل للمرة الأولى لا يُمانع خوضه للمرة الثانية أو الألف.

لم أنكر أنه كان تلك الشخصية التي تجبرك على الانبهار به، لن تكون الحياة معه مُملة، بالطبع لم أكن لأقبل أن أتزوج برجل إلا وبداخلي نبتة إعجاب به، حتى لو كُنت أخفيها عن قلبي.. وكان يُمكنه أن يسقيها لتنمو.. لكنه هشَّمها بكُل ما ملك من قوة، هشم كبريائي للدرجة التي جعلتني أتبلَّد.. لم أبالِ بعدد النساء اللاتي غفا بين أذرعهن ونحن سويًّا.. باحثًا عن الحُب الذي لم يجده بين ذراعي، بقيتُ أتأمل ملامحهن، وأحاول معرفة هل يشبهْنني أنا أم طليقته.. أم يختلفن عن كلينا.. كُنت أشعر بالغضب الشديد فقط أن وجدته يخونني مع امرأة لا تليق به أو أقل مني جمالًا.. كُنت أشعر بالغصة إذا علم أحدهن خياناته، وبدأت مهاترات على شاكلة «كيف يخونها؟ ومع تلك؟».. كُنت أتقبل خياناته، ولكن لا أتقبل أن يخونني بشكل يحطُّ من كبريائي.. بطريقة ما كُنت أشعر بأن هذه الإهانة الوحيدة التي يُمكن أن تؤلم كبريائي، فأسخر من نفسي ومن حقيقة أنني لا أبالي إلا بما سيقول الخلق.. أنا التي لم أهتم في حياتي برأي الآخرين.. أي علاقة تلك التي لدينا يا شريف؟

لم تخذلني في الحقيقة، فلا أستطيع لومك أو التألم، لم تخذلني

فأنا لم أتوقع منك أي شيء؛ لم أتوقع شيئًا من الماضي، لم أتوقع غيث حين علمتُ بحملي.. كُنت أفكر بإجهاضه، ولكن حين سمعت صوت دقات قلبه.. لعنتك ولعنت ميثاقك ولعنت العالم.. ذلك الصوت جعلني أشعر بأنني سأضحي بروحي وجسدي لينمو، أن أعطيه عقلي ليفكر به، أعطيه قلبي ليعيش به.. لن أجرؤ على أن أمسَّه بسوء.. أخبرتك بحملي وأنا في الشهر السادس، أتذكَّر دهشتك وقتها.. كُنت عائدًا من دُبي بعد سفر دام شهرًا كاملًا، دخلت لتقبِّل جبيني، ورائحتك تبوح بتبغك المُفضل.. كُنت قد أخبرتهم أن يعدوا لك عشاءك المُفضل.. كُنت أريد كُل شيء أن يكون مثاليًّا.

نهضتُ وأنت تتناول عشاءك لأقف أمامك وأسألك:

- هل سمنتُ؟

تقول لي دون أن تنظر:

- أنتِ رائعة كيفما كُنتِ.

لطالما هربتَ من الإجابات، هربتَ من المواجهة، ولكن ليس هذه المرة.

اقتربتُ منك، ورفعتُ رأسك عن الطبق، أتذكر أنه لمعت عيناك لحظتها.. كُنت أعلم على الرغم من سوئك إلا أنه دقَّ قلبك لي.. دقَّ حتى خارت قواك، ولكنك وجدت آخر بقلبي فلم تستطع تحمُّل تلك الهزيمة، وجدتني أبتعد بروحي وجسدي عنك، فأبقيتني على الرغم من ذلك.. لا لشيء سوى ألا تعلن هزيمتك لذكرى رجل لم تستطع حجب طيفه.. لكنني شعرت بدقات قلبك

من عينيك لأقول:
- تأمَّلني قليلًا.

لتترك طعامك وتنهض لتلفَّ ذراعيك حول جسدي؛ ظنًّا أنني أريدك.

أبتعد عنك وأنا أصرخ:
- أحمق.. ألا تلاحظ حقًّا؟!

تنظر لي في عدم استيعاب.. لأرفع سترتي وأنا أقول لك:
- يوجد طفل هُنا، يستوطن رحمي.. ألم تلاحظ أي شيء؟

لتصيح مندهشًا:
- كيف ومتى؟

أنظر لك دون أن أنطق.. جلست مكانك على الطاولة.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أتقمَّص قسوتك، أصبحت أنا أنت.

بالطبع لم تلاحظ أيَّ تغير بي.. لم تلاحظ إرهاقي وتعبي؛ لأنك كُنت مشغولًا للغاية بنزواتك.. لكنني لم أجد صعوبة في مواجهة هرمونات الحمل، وبكائي لليالٍ؛ لأنني أريد أمي التي لم ألقَها من قبل.

لو تعلم كم من المؤلم أن تفتقد ما لم تحصل عليه أبدًا.. لم أجد صعوبة في الكذب على كُلِ من حولي بإخبارهم كم كنا مثاليين، لم أجد صعوبة ولا حتى في الكذب عليك حين ظننت أننا كُنا سويًا حين كُنت ثملًا، لم أشعر بأي صعوبة وأنا أفقد صراحتي وصدقي؛ لأنه أنا لستُ وحدي، أنا لديَّ طفلًا يجب أن أحميه، لم أجد صعوبة في أي شيء، وهُنا كانت تكمن الصعوبة بذاتها. تأقلمت مع ذلك الزيف حتى أصبح أنا.. لم يكن صعبًا أبدًا التعايش مع علاقتنا

الفاشلة وتجاوزها، كان المُستحيل هو تجاوز خسارتي لنفسي.. كان أصعب ما أجبرت أن أتأقلم معه هو خسارتي لصراحتي ولامُبالاتي.

كان من الصعب التأقلم مع تهديداتك لي المُستمرة بأنك ستأخذ مني «غيث». إن فكرت بالطلاق والانفصال؛ لأني كُنت أعاني من الاكتئاب، ولديَّ سابقة انتحار.. بالطبع لم تفوت مثل هذه الثغرة لتهددني بها.. لكن ما لم تعلمه أن لديَّ أيضًا ثغرة تجعلني أحتفظ به للأبد.. لكن قد أعرِّضه لخطر عظيم. كُنت صغيرة للحد الذي يجعل قلبي ينتفض كُلما تذكرت تلك المُحادثة:

- شريف، أرغب بالتحدث معك.

نظر لي دون أن يتفوه بحرف.

- أريد أن ننفصل.

وكانت تلك بداية اللعنة، الجملة التي رغبت التفوه بها بشدة بعد زواجنا بشهر واحد، ثم كتمتها طويلًا.. وحين نطقتها قضيتُ سنوات أندم على تفوُّهي بها.

***

يغلق عاصي المذكرة، هذه المُذكرة ليست مُجرد يوميات، إنها برهان.. لا يعلم على ماذا، ولكنه سيكتشف.. لكن ليس اليوم.. فهو مُرهق ووحيد للغاية، لم تظهر الحورية إلى الآن.. وقد فارق فرح للأبد.

كان هاتفه يرنُّ لمرات فلم يرد.. ثم قرر أن يرى المتصل.. فكان بمثابة رسالة استغاثة.. وجد اسمًا كان بمثابة بعض النور له، قرر أن يُهاتفها.. يعلم أنه في غضون دقائق سيجدها أمامه، يتذكر

آخر شجار بينهما كان بسبب فرح.. كانت تراه أنانيًّا وطفلًا مدللًا، هي التي كانت معه على مدار سنوات.. من قبل أن يتعرف على ورد حتى.. تعلم كُل حياته وسقطاته، كانت معه في أيامه الكالحة والعظيمة.. كانت هُنا دائمًا.

بعد رنات متعددة من الجرس يقول:

- نورا؟

تصمت قليلًا ثم تقول:

- ماتت ريتا!

ثم تبدأ بالنحيب.. يحاول أن يجمع قصدها، ثم يتذكر ريتا كلبتها، أنقذاها سويًّا منذ خمس أعوام.. كانت تبعث له صورها من حين لآخر؛ لأنها كانت ترى أنه يعتبر أباها الروحي.. سألها مباشرة:

- أين أنتِ؟

- لماذا لا تردُّ.. أنا أمام منزلك.

ليتحرك غير مُصدِّق، لطالما شعرت به.. على مدار أعوام صداقتها.. ولكن تلك المرة كانت مُبالغًا فيها من وجهة نظره، يترك هاتفه ويركض تجاه الباب ليفتح، فيجدها تحمل جروًا صغيرًا تقول له:

- هذا الصغير هو ما استطعت الاحتفاظ به، ماتت بعدما ولدته.. هل تُريد أن تكون أبًا مجددًا؟

حمله عنها وقبَّله وهو يقول:

- دائمًا.

تحركت تجاه المطبخ:

- فرح ليست هُنا؟

- كلا، لن تكون هُنا مجددًا.. قررتُ أن أعتنق مبادئك، لعلني أكون جديرًا بالجنة مثلك.

وضعت قهوته أمامه:

- لا أحد جدير بالجنة، إنها رحمة الله لا عدله.

- نورا، أنتِ نوري الذي أسترشد به في طريقي المظلم، بربك لا تختفي هكذا مُجددًا!

- أنا لم أتركك قط يا أحمق، كيف هو النور دون الظلام؟ إذا كُنت أنا نورك فأنت ظلامي، ولو تدري كم يحتاج الشخص للظلام ليدفن فيه مخاوفه وأسراره وحقيقته، لو تعلم لتحايلت عليَّ بخبثك لأترجاك ألا تتركني أنت.

يصمت وهو يتأملها، امرأة في أواخر عقدها الثاني ذات روح عتيقة، وكأنها في التسعينات، رُبما من الخبرة، وفي الوقت ذاته طفلة عنيدة بشعرها القصير وبشرتها الخمرية.. في عينيها تحدٍّ لا يُمكن تجاهله، وكأنها تنظر للعالم وتقول له بما لديها من قوة: «أرني ما لديك».

قابلها في أول جريدة عمل بها، كانت صحفية تحت التدريب، وكان يشرب الشاي كعادته حتى ذهبت له وقالت:

- لم أرَ رجلًا مُملًا مثلك في حياتي!

نظر لها وهو يحاول استيعاب لماذا تلك الطفلة تلقِّبه بالمُمل.. وماذا تنتظره أن يفعل.. هل يركض خلفها أم يلعب معها؟ ردَّ في ثبات:

- لم أرَ طفلة قليلة الذوق مثلك في حياتي!

- طفلة؟!

همَّ بالرحيل وعلى محياه شبح ابتسامة انتصار، كان يعلم أن تلك الكلمة ستثير جنونها.. ومن يومها تُثير جنونه، وكأنها تنتقم منه.

تذكر يوم مات والدها، ذهب لها ليجدها ساكنة لا تبكي ولا تصرخ.. لا شيء.. فقط تتأمل العدم وهي تقول:

- كيف ستؤوي الأرض جموحه وقوته وعِناده؟ أتظن سيجرؤ الدود على مسِّ جسده أم سيهابه ويرتعب؟ هل سيتحلل جسده ويندمج مع الأرض أم إنها لن تستطيع تقبله كما لم تعطِه ما يستحقه فوقها؟

نظر لها في حُزن:

-ابكي، لا بأس.

تنهض وتنظر له وهي تقول في جبروت:

- أنا ابنة مُلاكم، أنا لا أبكي.. أنا أصارع الحياة وأقاوم.. أُهزَم حينًا وأنتصر في كثير من الأحيان.. لكنني ليست لديَّ رفاهية البُكاء، ليس لديَّ رفاهية الوقت، فأنا أركض من كُرة الجحيم التي تلاحقني، كُرة الذكريات التي إن لحقت بي ستكون تلك الضربة القاضية.. سآخذ واجب العزاء وأسافر.. لديَّ عمل وحياة.. أبي لو رآني أستسلم ستكون تلك أعظم هزائمه.. ولن أكون أنا هزيمته الأعظم يا عاصي.

يفيق عاصي من شروده عن نورا فيها.. يأخذان الجرو ويصنعان له بيتًا من بقايا حطب المدفأة، ووسادة لينام عليها، ويضعان له بعض الطعام.. ثم ذهب عاصي للمطبخ ليعدَّ لهما العشاء.. يجدها تقول:

- هل جُننت من الوحدة وبدأت في كتابة مذكراتك يا هذا؟،

لقد تركتك فقط لشهرين.

فزع وذهب لها وطلب منها أن تعطيه مذكرات ليل.. لكنها كعادتها لم تستجب، فتحتها بعشوائية لتقرأ بنبرة طفولية لتستفزه:

«كُنت لا أمانع غضبه مني، ولا أنه يراني خيبة أمله العظيمة، لم أمانع كُل ذلك؛ فقد تأقلمتُ عليه منذ طفولتي، لدرجة أنني أذكر أنني دعوت الله أن يموت؛ لأنني لا أحبه، ولكن الآن وقد استجاب الله لدعائي ها أنا أبكي وأصرخ، وأنا أدعو الله أن يردَّه لي، ولكن بلا جدوى»

ثم صمتت نورا للحظات، نظرت لعاصي وسألته:

- لمن تنتمي تلك المذكرات؟

- لا أعلم، لقد وجدتُها.

اقتربت منه:

- أعتذر، لم يكن الأمر مُضحكًا.. حقًّا هي ليست لك؟

لم يردَّ، وساد الصمت لبعض الوقت، فسألته: لمن تلك المذكرة؟ ليقول ما بخاطره:

- لا أعلم حقًّا لمن هي، رُبما تكون للثائرة، ورُبما تكون امرأة أخرى، ولكن هُنالك شيء مُخيف في تلك المذكرة.. لا أعلم هل أصدِّقها؟؟ أم ما تؤول إليه الأحداث؟

نظرت له وهي تقول:

- من الثائرة؟ وأي امرأة أخرى؟

- الثائرة هي طوق النجاة الذي رماه البحر لي وأنا أستسلم للغرق، أستطيع التنفس وهي هُنا.. أشعر أنني أستطيع أن أحدِّثها

عن جمال السماء، وعن سوء العالم في نفس اللحظة.. عن ظلم الحياة وعن عدل الله، عن هلهلة روحي لتصنع منه فستانًا أسود ترتديه ليلًا ونحن نتحدث عما بعد الموت، وكأنها تنعينا مُقدمًا، أستطيع أن أبكي بين ذراعيها؛ لأن الندبة التي في رأسي منذ كُنت طفلًا تؤلمني.. رغم أنني لا أعلم عنها أي شيء، لا أعلم اسمها ولا عُمرها.. لا شيء على الإطلاق.. لكني أشعر وكأن وجودها هو كُل ما أحتاجه.. وإن كانت هي صاحبة تلك المُذكرة فلا أعلم كيف قد يكون مصيرها أو مصيرنا.. لا أعلم ما قد يحدث في الصفحات القادمة.. لكن قلبي ينخلع من القلق، وكأن تلك الأحداث لم تنتهِ، بل ما زالت تحدث الآن وأحاول منعها.

قالت:

- أعلم تلك النظرة يا عاصي، هل وقعتَ في عشق الحروف أم المرأة؟ أم حقيقة أنه رُبما يكون الاثنان هما المرأة ذاتها؟

- وقعتُ في عشق الطمأنينة التي يخلقها حضورها.

تبتسم نورا وتقول:

- هل تعلم.. لقد اشتقتُ لرؤية ذلك الشغف الذي يملؤك.

تنظر له ويشعر بسؤال يثير فضولها.. يُجيب قبل حتى أن تسأله:

-لا، لم أتواصل مع ورد.. ولا أعلم عنها أي شيء.. حتى في فترات غيابك لم أنهَر.. صدقيني.

- كيف استطعتَ مقاومة الحنين؟

- لم أقاومه... واجهتُ حقيقة أنها أفضل حالًا بدوني، لم أقاومه تركته يستنزفني، يقتلني.. تركته يفعل ما يُريد بروحي

عساها تغفر لي يومًا لأقول لها: قد نلتُ عقابي.. قد صنعت عقابًا لنفسي ولم أحاول الفرار منه، ولكن تلك الثائرة دخلت لسجني فجأة، جلست بجانبي من العدم.. تشاركنا الهواء وتلويثه.. تشاركنا الهموم صمتًا كأنها تعاقب نفسها أيضًا على ما لم تستطع تخطِّيه.. أنا لم أحاول أن أنجو من عقابي، بل حاول عقابي النجاة مني فبعثها لي.. لا أعلم لكن أمرًا جللًا على وشك الحدوث.. وها أنا ذا مترقبه.



(١١)

كُلما مرَّ الوقت ولم يعلم عاصي وجهته لجأ لي وكأنني قِبلته، وجدته يجلس أمامي بصوت أم كلثوم الذي يتحد مع ارتطام أمواجي الغاضبة، أظنني اشتقت لحماقته، وكم رغبتُ أن أريه الحياة من منظوري، من القاع وليس السطح، من الغرق لا النجاة، من منظور القدر لا البشر..

لا يحدث شيء عبثًا في هذا العالم.. حتى تلك الهزة الأرضية الضعيفة في الصين يُمكنها أن تسبب تسونامي في اليابان.

أنظر له مُترقبًا كعادته في الفترة الأخيرة، لطالما لم يكن له همٌّ بالعالم ولا رغبة.. لكن الآن وبعينيه ذلك الترقب والانتظار لا أستطيع أن أمنع نفسي من الانتظار معه. هل تطورت مشاعري أم إنها لحظة استثنائية ستمر ولا تعني شيئًا على الإطلاق؟ لم أصل لإجابة ولكنني أعلم أنني سأكتشف حتمًا.

قطع ترقبنا ظهور شبح امرأة من على بُعد، إنها الحورية أخيرًا.

تقترب لينتفض عاصي من مكانه، ويهم باتجاهها لتُشير له أن يتوقف.. يتحجَّر مكانه وكأنه أمر يجب أن يُنفذ.

تقول له من على مسافة آمنة:

- لا تأخذ خطوةً تجاهي، كُل من حاول الاقتراب تلاشى في

المسافة قبل أن يصل.

ينظر لها وهو يقترب متجاهلًا ما قالته للتوِّ:

- لا يختفي سوى من كان يعبأ بالوصول.

يشير إليها ألا تقترب وتقف.. يُكمل في الاقتراب، وهو يقول بصوت عال لتستطيع سماعه:

- أنا سأعبر المُحيطات والعوالم والصِّعاب والمعيقات جميعها لأجلس معكِ ليلًا نتأمل النجوم.

تقترب له أكثر وهي تقول:

- رُبما لم يكن أبي مُخطئًا تمامًا وهو يلقبني «ليل» إذًا.

وقف مكانه متفاجئًا من الحقيقة التي يعلمها بالفعل.. إنها هي «ليل» إذًا صاحبة المذكرات.. ردد خلفها وكأنه يريد التأكد مما سمعه:

- اسمك ليل؟

- وآه لو أخبرتك المزيد عن حياتي وعن خساراتي الفادحة، لضحكنا حتى بكينا.

يُكمل وهو يعلم أين يضع قدميه للمرة الأولى منذ فترة طويلة:

- لا بأس، عند تراكم الغيوم يهطل الغيث.

يصل لها، ويتأمل ملامحها وكأنه يراها للمرة الأولى، يراها وهي زوجة وأم.. يرى ندوبها الخفية التي تُجيد إخفاءها.. يُريد أن يضمَّها ويعتذر لها عن كُل ما لم يُحِط به علمًا بعدُ، يُريد أن يعتذر عن أنه لم يأخذ مذكراتها على محمل الجد، ولم يقرأها بالترتيب.. يُريد

أن يعتذر لها أنه لن يخبرها عن مذكراتها وحقيقة أنه وجدها.. لن يخبرها كم تمنى في البدلية أن تكون المذكرات لورد.. ولن يخبرها كيف خذلها، لن يخبرها عن فرح وعن أنانيته معها.. سيخبرها فقط عن نورا.. الجزء المُنير من حياته، الفتاة التي يفتخر بكُل ما فعله لها، وكُل ما فعلته له.

جلسا معًا وهي تحمل بقلبها سرَّها الأعظم.. ويحمل هو ذنبه العظيم.. لكن للحظات خرجا من ماضيهما ومن العالم بأسره.. جلسا أرضًا كعادتهما يتأملانني تارةً ويتأملان النجوم تارةً لتقول له:

– يوم رأيتك كان بعد فوزك بجائزة عالمية، هل وصلت لمصر وجئت لهُنا؟ أليس لديك من تحتفل معه؟

– البحر، إنه هُنا دائمًا.. لم يتركني يومًا، ولم يملَّ من تكرار ما أقوله.. من غيره أحق بأن يشاركني ذلك النجاح؟ ولكن كيف علمتِ مَن أنا؟

– الوصول إلى أخبارك لم يكن صعبًا أبدًا، أظن الأصعب هو رؤيتك مهزومًا يوم انتصارك.. ما الذي لم تستطع تخطي خسارته ويجعل كُل انتصاراتك مجموعةً من الهزائم؟

يعدل جلسته وينظر تجاهها وهو يقول:

– لقد هزمني انتصاري ذاته.

تنظر له في اهتمام لم تستطع إخفاءه.. بينما يتابع:

– هزمتني الحروب والموت، هزمني أنني مُجرد عدسة تلتقط الحدث، ولا تستطيع تغييره.. التقطت موته، لقطة تاريخية تظهر

قُبح الحروب، ولكن في الحقيقة هي لا تُظهر سوى قُبحي أنا.. أنا الذي تركت جثة طفل مُرتعب لألتقط صورة أربح بها جائزة صنعتها الدول التي تسببت بموته.. ألا ترين سُخرية كُل ما حدث، أنا ساهمت أيضًا بموته، وإن لم أحمل سلاحًا.. أنا أيضًا لستُ بريئًا.

- بل أنت انتزعت انتصارك من بين ظُلم الهزيمة، فهو لم يكن أمامك يحتضر وتركته للموت.. كان قد مات بالفعل، رحمه الله من ظلم العالم وقهره الذي لم يكن لينتهي، وقد نلت أنت كذلك تعويضك عما فقدته سابقًا، وهُنا تطبق مقولة «مصائب قوم عند قوم فوائد»، حتى وإن كانت تمزقهم.. استمتع بانتصارك الحزين يا عزيزي.. فليست كُل الانتصارات مُفرحة، ولا كُل الهزائم حزينة.

يقول وأكاد أسمع دقات قلبه المتلاحقة خائفًا من الإجابة:

- ما هو انتصارك الحزين يا حوريتي؟

تنظر له في عينيه وكأنها تحاول أن تجد أكثر الإجابات الكاذبة صدقًا:

- الحُرية.. كان يجب أن أخرج من البحر لأتحرر، لعنني القدر ومنعني من ذيلي مقابل تمردي، ومن يومها وأنا آتي له لعله يغفر لي ويُعيد لي ذيلي عسانِي أتنفس مرة أخرى.. لكن وكأني بفقدان ذيلي فقدتُ كُل طرق التواصل معه، وكأنه أضحى لا يفهمني ولا أفهمه.

- أتشعرين بالندم؟

- لن أندم أبدًا على حُريتي، ولكنني سأندم دهرًا على ما فقدته كي أنال حُريتي، اكتشفت أنه لتحصل على رغبة مُلحة ستفقد

أمامها شيئًا بذات الأهمية أو رُبما أكثر، نحنُ لا ننال شيئًا حقًّا دون أن ندفع مقابله، ولذلك أخبرتك أن تسعد بانتصارك الحزين.. فبمقدار عظمته يكون ألمك.

- هل يستحق العوض تلك الخسارة الفادحة؟

- نحنُ لا نتقبل الهزيمة، سنقول «لا» دائمًا حتى وإن كانت تستحق؛ لأننا قد حصلنا بالفعل على ما سعينا له.. ففقد استحالته ورغبتنا في التضحية بكُل شيء للحصول عليه.. النفس البشرية بذلك التناقض والعبثية التي تجعلك لا تُمانع أن تفقد حياتك مُقابل شيء، وحين تحصل عليه تزهده.

يقول وكأنه يُريدها أن تفجِّر ذلك البركان الكامن بعينيها:

- من تفتقدين؟

تصمت قليلًا ثم تقول:

- آه يا عاصي آه، لا تنبش بجرح مثل الجمر لا تكفي محيطات الكوكب لتخمده ولو قليلًا، لا تعبث بالماضي.

ثم ساد الصمت لفترة تبدو لعاصي طويلة، ولكنها مرَّت عليها كثوان؛ إذ إنها كانت في خيالها معه، كان بين ذراعيها.. كم تمر اللحظات الخفيفة على الروح بخفة.

قال عاصي محاولًا قطع الصمت:

- متى سأراكِ مُجددًا؟

تهز كتفيها وهي تنظر للعدم:

- لا تثق بالمواعيد، ولا بالقدَر.. فيُمكن أن نحدد موعدًا،

ويفعل كُل ما باستطاعته ليعيقه، فلنجعله سرًّا حتى عنَّا.. لنجعله يُصدِّق أن كُل ما يحدث هو مصادفة ليشعر بأنه صاحب الكلمة الأخيرة.. لنتقابل هُنا دومًا، ولكن متى لا أعلم.

- رقم هاتف؟

- مُجرد أن تملك رقم هاتفي ستكفَّ عن الترقب والانتظار.. ستشعر بأنك تستطيع أن تصل لي وقتما تشاء، وللحق أريد أن أرى تلك الدهشة بعينيك كُلما ظهرتُ أمامك من العدم.

- من أخبرك أنني سأنتظرك هُنا دائمًا، ألا تراودك الشكوك أنني سأختفي؟

- إن لم تأتِ من أجلي ستأتي من أجل البحر.. لن يختفي البحر أبدًا.

كُنت أعلم في تلك اللحظة أنها أيقظت رغبة عاصي في كسر توقعاتها، ورد كانت تقول له دائمًا:

- كُفَّ عن تلك الرغبة الغريبة في كسر كُل ما يتوقعه الخلق عنك، كُن عند حسن ظنهم.

قال لها يومًا:

- من الغباء أن ننتظر من الآخرين أن يكونوا عند حسن ظنك، أنت نفسك لست عند حسن ظنك.

لتتنهد وتضع يدها على وجهها لتقول بنبرة فاقدة للأمل:

- سيقتلك كِبرك، ستموت وحيدًا.

يقترب منها حتى تكون رأسها أمام عينيه، يستنشق رحيق

شعرها بأنفه وكأنه حديقة عباد الشمس، ويقول بنبرة يعلم أنها تؤثر بها:

- سيقتلك عشقك، لن تتركيني.

لكن ها هي قد تركته، ولم يقتلها عشقها، ولم تقتله وحدته.. كم أن البشر سُذَّج حين يقعون في العشق يظنون أن الحياة ستتوقف، وأن الكرة الأرضية ستأخذ هدنة لحزنهم الساذج المؤقت، وسيتوقف العالم عن الحركة؛ لأن مفهوم العالم بالنسبة إليهم غاب.. لماذا لا أغرقهم وأرحمهم من خطاياهم ومن غبائهم؟!

(١٢)

مرَّت الليلة، ورجع عاصي ليُكمل قصة تلك الحورية بترتيب يُمكن من خلاله فهم ما حدث حقًّا دون تكهنات خاصةً بعدما تأكد أن المذكرات لها.

«لا أعلم أتلك المذكرات هي مُجرد حجَّة لأجد من أحكي له عنك، أظنك ندبة قلبي التي لا تشفى.. الندبة التي كانت سببًا أن أعلن تمردي الفعلي، الندبة التي هي السبب بوجود شريف من الأساس.. كُلما نظرت لغيث، وتذكرت أباك وهو يقول عنك: أسميته ليث؛ ليكون في شراسة وقوة الأسد، أسميتُ ابني غيث ليكون في لين وطهارة وكُل ما يلمسه.

التقيتُ بِك يا «ليث» مصادفةً في عيد ميلاد إحدى صديقاتنا.. نظرتُ لك لتلتقي نظراتنا؛ عينان زرقاوان كالبحر، وكُنت أنا كالغريق الذي لا يُريد حتى إيجاد قشة.

اقتربت وأنت تقول بلكنتك البدوية التي أذابت قلبي كفُتات الملح في مُحيط عينيك:

- اسم الله ما ترقصين خشي ولا ما تحبينها؟

- اسم الله هذه حشرة ولا اهتمام؟

لتضحك ويهتز قلبي كما اهتز عالمي منذ تلك الليلة، كان دخولك لحياتي طائشًا هائجًا كأمواج ديسمبر.. وكُنت كالغيث

أزيد من ثورانك ومن منسوب تمرُّدك.. كُنا كالنار والبنزين، كُنا دائمًا في حالة اشتعال لا يطفئها حتى الهجر.. كأننا حقل ألغام كُلما تقدمنا تفجر شيء بيننا ليس بالضرورة سيئ ولكنه جيد للدرجة المُدمرة من منطق «الشيء إن زاد عن حدِّه ينقلب لضده».

قالت لي تلك الفتاة بعدما انتهى عيد الميلاد بيومين رُبما:

- رموشك وقعت حفيد آل ابن رشد، اسم الله بدِّي بركاتك.

ضحكت وأنا أسألها: من منهم؟ لتقول:

- ليث، سأل عنك القريب والغريب.. في بحر هادئ لا يذهب له الكثير، ومؤكدًا ليس الإخوة الأعداء، أستطيع أن أحضره، وكأنها مُصادفة، وسأترك الباقي لذكائه.

كانت تقصد العداوة التي بين عائلتي وعائلتك ولم أعترض.. لكنني أيضًا لم أوافق، ولكنها كانت تعلم أنني سأتمنَّع رغم رغبتي، فلم تنتظر ردًا مني من الأساس.. هاتفتُك ونحن جالستان سويًّا.

- أخوي، تعالَ على الخليج.. هتتشكرني.

ثم تحركنا بعد ساعة من مكالمتها لك على حد قولها: «البركة في طولة الروح»، لتُكمل: «ليث مثل اسمه صياد مُحترف، فلا تكوني فريسة سهلة».

ذهبنا لنجدك مع فتاة تشربان القهوة، نظرتُ لها، وحاولت كتم غضبي، لنجلس وتتحدث الفتاة بالإنجليزية.. لم تكن عربية لأتحدث معها بطلاقة.. نظرت لي يومها بانبهار خفي، وكأنك تتوقع أن همي هو إيقاع رجل من آل رُشد، لو أثرت فضولك ولو قليلًا لقالوا لك من أي عائلة أنا.

تجاهلناك.. حتى الفتاة اندمجت معي لدرجة أنها أخذت رقمي؛ كي تحادثني حين تُريد التسوق.. تفوهت بأرقام هاتفي، وأنا أعلم أنك تحفرها بعقلك بينما تمثل الهدوء، وأنت تحتسي قهوتك.. تظنني فريستك القادمة، ولكن لم تكن تعلم أن أبي علّمني الصيد منذ نعومة أظافري، ما أحمقني ظننتُ أننا نتنافس فقط أنا وأنت، نسيتُ القدر الذي يتصيدنا نحنُ الاثنين.

كانت محمية «أبو جالوم» هي مُلتقانا.. كُنت تعلم خبايا سيناء باحترافية صياد متمرس، تعلم أين يجب أن تكون ومتى، لم يكتشف أهلنا علاقتنا لمدة طويلة.. لكن وصلنا للحُب بالدرجة الكافية التي تجعلنا نقف أمام الكره والعداوة.. ولم أخف، كان يجب أن ينتصر الخير كما يحدث في رواياتي التي أدمنها.

بالفعل أخبرت جدتي بعلاقتي بِك، جلست صامتة وهي تقول:

- أتعطشتِ لرائحة الدم؟

- أحبه ياممّا.

لم أعلم كيف وجدتُ الشجاعة الكافية التي تجعلني أعترف لها بكُل ما خجلت من الاعتراف به حتى في خيالي، لترد بلكنتها البدوية:

- فيش مشكلة صغيرتي، حبتيه وحصل يمكن الولد زين بس أهله بياكلوا كفن الميت، وصلنا لمُعاهدة سلام معهم بعد أعوام وأعوام من الدم.. تنازل أبوكِ لهم حين وُلدتِ؛ لأنه أراد أن تكوني سالمة من شرِّهم، سيموت بحسرته إن علم أنك تبغين ترمين بحالك في شوكهم.

- الجمل لو شاف عوجة رقبته ما هدر، نحن اللي قتلنا أبوهم ياما، يعني لو حد يمنع الزيجة هما مش نحن.

- وجدّك ما صحى قتله من الملل، الرجل كان مصيبة على الراس.. هُما يمنعوا للحقد أنا بمنعك للحُب يا بنيتي، ربيتك ومن وأنتِ لحمة حمرا مش عشان أبعثك على موتك بيدي وأزفك بفستانك ترجعي لي في كفن.. أبوكِ بيقتلك بيده ويدفنك ولا يسلم لحمه لابنهم.

ذهبتُ لك يومها يا ليث أبكي بانهيار من سقطت أحلامه فوقه، كانت جدتي آخر أمل لي.

أشعلت سيجارتك لأنظر لك في عدم استيعاب، أتذكر يومها أخبرتك أنك تلعب بسلامة عقلي.. لأسمع صدى ضحكتك المُحببة لروحي، وأنت تقترب مني:

- أنا أقامر بعُمري حتى أكون معكِ الآن، أليس من العدل أن أعبث بكِ قليلًا؟

أنظر لك وأنا أعلم أنني لا أمانع إطلاقًا، فمعي رجل وقف أمام قبيلته ليحتضنني ليلًا، رجل وقف أمام عادات وتقاليد.. ولكن لم نعلم أننا ما لن نستطيع مجابهته أبدًا هو الدم الذي تطاردنا رائحته، الرغبة في الانتقام والثأر.

أتذكر يومًا وأنا ذاهبة إلى السوق وجدتُ عربة سوداء مثل الأفلام.. يأخذني بداخلها رجلان ضخمان، ولكن ما استغربته أنني لم أقاوم.. رُبما لأنني لطالما مقتُّ بكاء البطلة في الأفلام وكأنها بحاجة لمن يحميها.. أتذكر حين كُنت صغيرة يوم موت صدام، كان

يتحرك في ثبات وكبرياء كأنه لم يكن يخطو لموته المُحقق بعد ثوانٍ.. كُنت أخطط دائمًا إن تم خطفي أو حتى تهديدي بالقتل لن أبكي، لن أصرخ وأستنجد.. كان الموقف جللًا شعرت بجسدي بأكمله ينتفض، كم كان الوضع أسهل بخيالي، ولكنني تذكرت أن خوفي هو انتصاره، هو ما يبتغيه.. جلستُ بالسيارة في هدوء، وكأنها سيارة أجرة طلبتها حتى وصلت إلى جراج..

بقيت أتأمل مداخله ومخارجه، وأحاول تخمين موقعه، ولكن كم من الصعب حقًّا معرفة كُل خبايا سيناء، دخلتُ لأجد ممرًا طويلًا مُظلمًا للحق.. بدأت الرغبة الملحة في البكاء والركض تسيطر عليَّ ولكنني قاومتها.. لن يُكتب لي سوء إلا إذا قدَّره الله لي، لا بأس. حاولت تنظيم أنفاسي؛ إذ إنني أختنق في الأماكن الضيقة المُغلقة.. شعر رجل ممن كانوا يصحبونني بالشفقة تجاه امرأة لم تقاومه حتى ليقترب ويقول بصوت هامس:

- لن يؤذيكِ أحدهم، يرغب فقط «المعلم» في الحديث معك.

رددتُ عليه في عقلي دون أن أتحدث:

- يا رجل إذا أراد الحديث فقط لصنعتُ له كوبًا من القهوة، وجلسنا نتحدث، ولكنه يفعل كُل ذلك ليتحدث فقط إذًا ماذا لو أراد القتل؟!

كان أبي ذا شأن عظيم في سيناء، وكُلما زاد شأنك زاد أعداؤك تلك معادلة طردية مؤذية للغاية.

وصلتُ لمكان واسع أظنه مكانًا لتعذيب المدينين أو الخونة، ولكنه بالتأكيد ليس مكانًا للحديث فقط..

وصلتُ لأجد مكتبًا عليه رجل كبير ما يكون إلا والدك يا ليث، أخذت زرقة عينيك منه حتمًا، ولكن بحره مُميت، أنت بحرك متمرد ولكن آمن.. أتذكر ملامحه أريتني إياها عندما كُنت تعرفني على أهلك، وتحكي لي عنهم..

كانت صورة عائلية ضخمة أخبرتني يومها:

- أبي: عمود الخيمة، رجل أعمال ظاهريًا وتاجر سلاح من الباطن.

لم أتعجب يومها؛ فسيناء مثل صحرائها الخلابة كل ما بها غير اعتيادي.. كُل ما بها مُحال، كُنت أفكر كثيرًا ماذا لو اكتشفت أن أبي مثلي الأعلى رغم قسوته تاجر مخدرات مثلًا؟ فكرت كمراهقة أن أشرب المخدرات وأنتقم منه، ولكنني اكتشفت أنني سأكون أنتقم من نفسي، والحال إذ إنه ليس تاجر مخدرات من الأساس فلا داعي للدراما.

- أمي: عمود قلبي.

لو تعلم يا ليث كم أحببت حُبك لأمك، وكم مقتُّه أحيانًا. كُنت أظن أن حياتنا كانت أسهل لو أنك لم تُحبها بذلك القدر، أو رُبما أشعر بالغيرة؛ لأنه لم تتح لي الفُرصة أن أحب أحدهم، وأن يحبني ذلك الحُب غير المشروط.. لم أكن بحظك ولم أمانع وحاولت أن أجعلها تُحبني، ولكنني بالنسبة إليها كُنت من أرض الأعداء.. كُنت الفتاة التي ستقلب تلك العائلة رأسًا على عقب.

عرفتني على إخوتك، لم أحبَّ منهم للحق غير عثمان.. حتى حين قابلته كان الوحيد الذي بارك علاقتنا.. كان يدافع عني دائمًا حتى عرفتُ منك مصادفة أنه أحب فتاة جزائرية كثيرًا، أحبها حد

الموت، ولكن أمك رفضت أن يتزوج فتاة أجنبية عنكم، لذلك كان يدافع عنا.. لم يكن يدافع عنا حقًّا كان يدافع عن علاقته بتلك الجزائرية، كان ندمًا لا مُساندة.. كان يرغب أن يقف في صفه أحدًا مثلما وقف بصفي أو رُبما ينتقم من أمه بي، لم تسمحي بزواجي من أجنبية.. حسنًا.. سأساعد أخي في دخول حفيدة الرجل الذي قتل أباكِ، وسأمزج دمك بدمها.. رُبما حتى عثمان كان ينتقم بي، كُنت كالقنبلة الموقوتة يا ليث.. جميعهم يتوقعون أن أنفجر بهم لأن «العرق دساس».

صوت أبيك وأنا جالسة أمامه أيقظني من تساؤلاتي، جلست أمامه لأقول له:

- لم أعلم أن لديك تلك الرغبة المُلحَّة في التعرُّف عليَّ.

ضحك بنبرة غضب هزَّت شغاف قلبي، ولكنني ادَّعيتُ الثبات:

- لديكِ ثبات جدِّك وسخرية أبيكِ.

- لديَّ قدرتهم على تحقيق ما يريدونه أيضًا.

نظر لي وضرب مكتبه بيده:

- أتتحدينني!!

- بل أنت الذي تتحدانا، حسنًا جدِّي قتل عمَّك.. ما ذنبي! لم أكن قد وُلِدت حتى، كان أبي طفلًا.. كيف تحاسبوننا على دم ليس له أثر على يدينا، ولم تلتصق بنا رائحته.. تحلَّ ببعض العدل!

نهض وهو يُخرج مسدسه من جنبه، واقترب مني، ووضعه عند رأسي، لم أتحرك.. أتذكر صدَّام.. أتذكر ثباته.. أغمضت عينيَّ

وأنا أفكر بأمي وبِك.

قال أبوك:

- ما يبدأ بالدم، لا ينتهي بسواه.

* * *

قطع اندماج عاصي رنة هاتفه المتكررة التي لا تتوقف مهما حاول تجاهلها.. نهض ووصل إليه ليجد نورا وقد اتصلت به كثيرًا.. أعاد الاتصال بها ليقول:

- يا ألطف مزعجة بحياتي، مَن أغضبك؟

سمع صوت رجلًا غريبًا يقول:

- أتعرف صاحبة ذلك الهاتف.

ردَّ بقلق:

- نعم، نعم.. من أنت؟

- تلك الفتاة في طريقها للمستشفى الآن، تعرضت لحادث مُميت.

سقط قلبه في قدميه:

- أين، إلى أين تأخذونها؟

ركض وهو يستمع لاسم المستشفى.. أخذ خوذته وقاد لأول مرة دون تهور.. رُبما لم يكن تهوره إلا لشعوره بأنه لن يحزن لموته أحد.. أو رُبما لأنه هو ما كان ليحزن على فراق أحدهم.. لكنه يجب أن يحافظ على سلامته ليكون بجانبها.. وصل إلى المستشفى يسأل عن الحالة التي تعرضت لحادث، بينما يبحث موظف الاستقبال يخبره وكأنه يسأله عما يريد تناوله على العشاء أن الحالة توفيت.

رجع خطوات للخلف قبل أن يهجم على موظف الاستقبال، أمسك يديه، ووضعهما فوق لوحة المفاتيح:

- اكتب أسمها، أنا لم أخبرك باسمها حتى!

ليقول له مُرتعبًا:

- أنا لم أستقبل سوى حادثة واحدة وقد ماتت.

أمسك رأسه بغضب العالم، وراح يخبطه في لوحة المفاتيح، حتى جاء رجال الأمن وهو يصرخ بهم.. من يقترب سيقتله.. كانوا يعلمون أنه ليس في حالة طبيعية، وقد يفعلها حقًّا حتى ظهرت الطبيبة الليلية، لمست كتفه من الخلف؛ ليدفعها بعيدًا بعنف، ليفيق، وهو يقترب، ويحاول أن يساعدها على النهوض؛ لتقول له وهي تنهض وحدها:

- أأنت زوج الحالة؟

- لا.

- والدها، أخوها.. حبيبها؟

- هل سيفرق؟ هل ستجعلينها بخير إن كُنت؟ لو ستفرق سأكونهم جميعًا.

نظرت له وقالت: تعالَ معي لتراها، وتتأكد إن كانت هي أم لا، ما زالت بغرفتها.

ضحك وهو يسمع تلك الجملة.. فهذه ليست غُرفتها، وأين من المفترض أن تكون لو ليست بغرفة تلك المستشفى على كُل حال هي ليست تلك النائمة بالغرفة.

يتذكر كُل تلك المرات التي حاولت أن تقنعه بأن يعتنق القهوة

بدلًا من الشاي؛ لأنه على حدِّ قولها:

- دماغك خفيفة.

ليقول لها:

- الشاي مزاج، ولكن القهوة كيف، والكيف يذل ومعاذ الله أن يذلني شيء.

لتضحك وهي تقول:

- والله عمقك يناسب القهوة يا رجل.

كُلما دخلت مطبخه، وطلب منها شايًا صنعت له قهوة، وتردد:

- أنا لا أخون القهوة، لا أصنع سواها.. تغضب مني، ويضيع وشها لا سمح الله.

* * *

يتذكر كُلما تجمعت هي وورد وهو بمكان، وطلبا قهوة، ويطلب هو الشاي، ينظر له النادل، وكأن عدم طلبه للقهوة مع امرأتين يقلل من رجولته.. يتذكر أن نادلًا مرة ردد مجددًا: اثنان قهوة وشاي؟ أم ثلاث قهوة؟ وكأنه يحاول أن يرجعه عن موقفه ليردد:

- أنت تعلم القهوة مُضرة للجنين!

ليضحك النادل وهو يقول:

- عفوًا لم أقصد ذلك.

يتذكر نورا وهي تخبر ورد عن علاقته السيئة مع القهوة لذكرياتها السيئة معه، تكمل وتقول لها:

- إذا انفصلتما سيلاحق عاصي شبح البحر، وسيكرهه للأبد.

تحاول ورد مع عاصي لمعرفة سبب كرهه للقهوة.. لكنها لا

تعلم لتلك اللحظة.. فقط نورا كانت تعلم.

يدخل ليجد جسدًا مُمددًا بقلة حيلة وعجز مُقهر.. يقترب أكثر برهبة لم يستطع إخفاءها لتقول الطبيبة:

- ملامحها من الصعب التعرف عليها.. كانت الحادثة قوية.

يتجاهلها ويقترب.. يرفع الملاءة من على وجهها.. لا يستطيع التعرف عليها حقًا، لكن نورا كان بيديها شامة سوداء اللون.. يمسك يديها، ولكن لا توجد شامات.. يبكي وكأنه استجمع كُل ما لديه من قوة فقط ليتأكد أن رفيقة خيباته وانتصاراته الزائفة لم تتركه.

تقول له الطبيبة، وكأنها تذكَّرت للتو:

- كنا سنستقبل حالة فتاة في العشرين من عُمرها أظن.. لكن حين جاءت تلك الفتاة أخذت آخر ما لدينا من غُرف عناية مُركزة فذهبت لمستشفى أخرى، رُبما هي تلك الفتاة.. انتظر سأتصل بهم لأتأكد.

تختفي لدقائق مرَّت عليه، وكأنها أعوام، لتأتي وهي تخبره بحرارة:

- حبيبتك بخير.. إنها بمستشفى ليست بعيدة عن هُنا، ولكنها لست قريبة جدًّا أيضًا..

يسأل عن اسمها بينما يحمل خوذته ويركض، ليفتح هاتفه، ويُدخل اسم المستشفى ليحدد موقعها، ثم يركض وكأنه يسابق القدر.

وصل إلى المستشفى، وبمجرد قوله لاسمها وجد الكثير ممن يشيرون له للعناية المركزة، ورقم الغرفة.. ركض وهو يتذكر ركضهما على رمال البحر الثقيلة.. ركضهما ليلحقا بالقطار؛ لأنهما متأخران كعادتهما، ركضهما ليحددا من منهما سيخسر وسينظف المنزل بعد أي احتفال.

كان يغلبها حينًا ويُغلب لها كثيرًا.. وصل إلى الغرفة.. بينهما فاصل زجاجي، وطبيب بجانبه يحاول معرفة قرابته بها.. هل يقول له إنه «أخوها» أم «صديقها» أم «أبوها»؟

هل يقول إنه أمها التي ستصاب بنوبة قلبية لو علمت أنه أصاب طفلتها مكروه؟ أم أبوها الذي أجبر على تركها؟ يلتفت إليه الطبيب وهو يقول:

- هي بغيبوبة لا نستطيع معرفة أي شيء الآن، ولكن مبدئيًّا هُناك كسر بالجمجمة ونزيف بالمخ، كسر بالضلوع وبالحوض وعظام الوجه.

ينظر له ولها، وهو يقول في عدم استيعاب:

- نورا؟

يقول الطبيب وهو ينظر إلى ورق بيده:

- يجب أن تفيق أولًا، وتستجيب؛ لنحدد ما سنفعله، الوضع ليس سهلًا.. والحالة ليست مُستقرة فلا تأمل كثيرًا.. استعدَّ لكُل شيء.

يرحل الطبيب وهو يسأل الممرض عن حال المريض في غُرفة ٦٠، وكأنه آلة، ليقول له الممرض:

- أصيب بالشلل كما قلت يا دكتور.

يبتهج وجه الطبيب، ويقول وصوته يختفي بعيدًا:

- بلغ دكتور إبراهيم أنني قد ربحت الرهان!

يقف عاصي وهو غير مُصدّق.. هل ابتهج وجهه فعلًا؛ لأن مريضًا قد أصيب بالشلل فقط؛ لأن تشخيصه لم يكن خاطئًا.. ثم تذكّر أنه لا يختلف عنه كثيرًا، فنظر لنورا وهو يقول:

- أعلم أنكِ تستطيعين سماعي، لذلك أقسم لكِ إن لم تفيقي من تلك الغيبوبة اللعينة لن أتحرك من هُنا، ونحن قد رُزِقنا بكلب جديد سيموت من الجوع، وزرعك الذي حافظتُ عليه رغم غيابك أنتِ وورد سأتركه ينال مصيره مثلما تركتماني.

وكانت تلك المرة الأولى التي لا تردُّ بها نورا، لم تجادل ولم تتمرد.. كانت صامتةً مستكينة.. همس لها:

- حسنًا، ارتاحي الآن.. أنا هُنا أنتظرك.

جلس وبينه وبينها جدار من زجاج، حاجز كالذي يفصل بين الأحياء والأموات.. كان يُريد أن يسأل الطبيب عن توقعاته، ولكنه رآه للتوِّ يربح رهانًا سيئًا للغاية.. خاف أن يربح الطبيب رهانه ويخسر هو نورا.

تأمل جسدها والأجهزة المُحيطة بها وأغراضها التي سلَّمها له الممرض، وثيابها الممزقة الملطخة بدمها.

شعر وكأن روحه مُكبلة بحدود قدراته، بحدود بشريته التي لا تستطيع التدخل بمعجزة كونية تجعلها تحرر جسدها من كل تلك الأسلاك التي لطالما كرهت كُل ما يمسها؛ حتى إنها كانت تكره الأحضان؛ لأنه على حد قولها:

«كيف يُمكن أن تهرب من أحد تمكَّن من جسدك، هل ستتركه له حين يخذلك؟ هل ستعطيه جلدك لحظة الفراق مثلما ستعطيه هداياه، هل ستعطيه بقايا فُتات قلبك أم رئتك المليئة برائحته.. قرأت أن أجسادنا تتجدد باستمرار عن طريق التخلص من الخلايا الميتة، وتوليد أخرى جديدة كُل سبع سنوات، أعني سأعاني لمدة

سبع سنوات مع جلد أصبح ينتمي لغيري حتى يموت وينمو آخر ولاؤه فقط لي. فقط بعد سبع سنوات إذا وقعتُ في هاوية الحُب من جديد سأنظر له وأقول لم يلمس جلدي سواك.. ولكن ماذا عن القلب؟ القلب الذي يشبه امرأة مُغتصبة على جسدها آثار التعذيب والقهر، من يُعيد عُذريته يا عاصي! على الأقل يُمكنني حماية أحدهم من غياب البشر».

نظر لجسدها وهو يهمس: كم لمس جلدك اليوم يا صغيرتي؟ هل ستكفي سبع سنوات أم سيتكلف الأمر عُمرك؟

* * *

(١٣)

مرَّ وقت لم يبالي بالدرجة التي تكفي ليحسبه لانغراقه في ذكرياته.. وصلت أم نورا.. لطالما كانت امرأة مبهجة تستطيع أن تحوِّل الحرب إلى سلام برنّة ضحكتها فقط.. لكن اليوم قد أعلن العالم حربه عليها.. نظرت لعاصي ونظر لها وكأنه يعتذر عن سوء العالم، وقف ليحتضن قلبها المكلوم وهي تبكي وتسأله: ماذا حدث؟ ليقول لها بنبرة مكتومة: حادث.

تنظر حولها تبحث عن نفسها وكأن روحها فارقتها لثوانٍ.. تنظر في تيه وكأن المشاعر قد ضربتها من كُل صوب، فما عادت تعلم بماذا تشعر حتى فقدت وعيها.. كان عاصي يعلم أن قلبها لم يكن ليتحمل رؤية صغيرتها تحارب للنجاة.. صرخ عاصي طالبًا المساعدة حتى جاء أحد الأطباء والممرضين، وفعلوا ما يلزم لإسعافها.

بقي عاصي بجانبها، فحين فتحت عينيها بدأت في النحيب، وكأنها استوعبت للتو ماذا حدث وهي تصرخ: لماذا لم تأخذ عمري يا الله وتعطيه لها؟ وكأنها حاولت عقد اتفاق معه قبل أن تفقد الوعي.

اقترب لها وقبَّل يديها وهو يقول:

- أيليق بكِ الاستسلام؟ تماسكِي أرجوك لتأخذك فتاتك قدوة كما فعلت دائمًا.

- طالما كُنت قوية بها ولأجلها.

- هذه المرة أيضًا، مشاكِستنا الصغيرة تختبرنا بقسوة هذه المرة.
-لا تتركني.
- أقسم بربي وربك لن أترككما إلا إذا أمر الله باسترداد أمانته.
- يا بُني لا تؤلم قلبي أكثر، أقسم إنك مثلها في قلبي.. ثم تصمت قليلًا: للحق أقل قليلًا، ولكنني أحبك كثيرًا.

يضحك عاصي، فيرى شبح ابتسامة على وجهها.

أقنعها أن تعود للمنزل إذ إنه لا يُمكنهم البقاء.. ولا فائدة من بقاءهم في المستشفى.. رضخت بعد مُعاناه.

مرّ أسبوع ولم تفِق نورا.. كانت حياة عاصي تتمحور حول المستشفى والمنزل.. كان يُريد أن يكون أول من تراه نورا حين تفتح عينيها حتى يعاقبها بيده على ما جعلته يمر به.. ولكن لا فائدة.. كانت تبدو كالملاك على الرغمَ من الكسور والخيوط المُحيطة بها من كُل صوب، لم يكن يبدو على وجهها أنها تتألم.. كانت تبدو وكأنها فقط نائمة، وكان ذلك مُرضيًا لعقولهم السطحية، متجاهلين ما يحدث بداخل تلك المسكينة.

ذهب عاصي للمنزل ليلًا؛ ليجد ليل في حديقة منزله.. نظر للباب، وكأنه يتأكد أنه بداخل البيت الصحيح، وأنها ببيته.

سألها بنبرة مُتعبة ومصدومة في الوقت ذاته:

- أأنتِ هُنا حقًّا؟

تضحك وتقول:

- يا الله، ما الذي يجعلني أبدو كشبح في نظرك؟

لمست يديه وقربتها لفمها، لتتحدث بهمس، فداعبت أنفاسها

يديه لتقول:

- لا أعلم، ولكنني أظن أن الشبح لا يستطيع استفزاز حاسة اللمس، على الأقل في الأفلام.

ابتسم وينظر لها مليًّا.

- لا بشر ولا شبح يستطيع استفزاز حاسة اللمس خاصتي عداها.

- من هي؟

أغمض عينيه وكأنه كان مُغيبًا للحظات ويقول:

- كيف وصلتِ للمنزل؟

- ليس من الصعب التوصل لشيء يخصُّك.

- لا تمزحي، لا يوجد موقع عليه عنوان منزلي.

- لن أقول ما هي مصادري.. لا تحاول عبثًا.

ابتسم فقالت له:

- أعتذر لما حل بصديقتك.

- لا تعتذري، العالم بتلك العبثية.. يؤذي الطيبين، ويُسعد الأشرار، أهوِّن على نفسي، وأقول: لأن متاع الدُنيا مؤقتة، وأنها مُجرد حيلة ليكون عقابهم مُضاعفًا، ويُريد أن يغفر للطيبين، ويكفِّر ذنوبهم فيبتليهم.. ولكنني سأنهار حقًا لو اكتشفت أن ما أقوله مُجرد وهم.

- ستكون بخير، أعدك.

تجحظ عيناه وهو يقول بحزم:

- لا تعدي بما ليس بيدك، لا تعدي أحدًا بقلبك أو بما يتعلق بالموت والحياة.. فقلبك يُقلَّب بين ليلة وضُحاها.. نتوهَّم.. قلوبنا

ليست ملكنا حقًّا، فمن تظني أن لا حياة دونه تكتشفي أن الموت بوجوده.. والموت والحياة بأمر الله وحده لا يعلم أحد منا متى تناديه أرضه. أعلم أنكِ تحاولين أن تهوني عليَّ، ولكن لا تُريحيني بكذبة لأرتطم بالواقع لحظة وقوع الحقيقة فوق قلبي لأقف مذهولًا بين أحلامي الوردية والعالم السوداوي.

يدخل للمنزل، ويتركها تحاول استيعاب ما قد لفظه للتو، وتسمعه من بعيد يسألها:

- قهوة أم شاي؟

يفزع حين يجد مذكراتها على الطاولة.. نسِي أمرها تمامًا حين رآها.. أخذها وأخفاها في ثيابه.. لا يعلم مكانًا أكثر أمنًا من ذلك في وجودها بجواره.

لم يجد ردًّا من ليل.. خرج ليجدها جالسة بجانب الجرو الصغير تلاعبه.. تسأل عنه فيقول:

- إنه ابني الثاني.

تنظر له وتسأل:

- ألديك ابن؟

يقول:

- نعم، وأنتِ؟

- ولو.. فليس كلبًا مؤكدًا!

لم يحاول دفعها للاعتراف أكثر، لا يستطيع مجابهة نبش ندوبها.. ليس اليوم، ليس الآن.

دعاها للدخول وهو يتأكد أن مذكراتها مازالت بملابسه..

تحرك تجاه المطبخ، وهو يعلم أن امرأة مثلها ستشرب حتمًا قهوة، فالشاي لا يتطلب ذلك التعقيد ولا الأسرار.. لكن تكمن في القهوة وذراتها ما يسبب غيابه العبث بعقلك.

دخل ليجدها أخذت الجرو وقد سمّته «ليلي» ليجلس بجانبها، وهو يداعب فرو جروه يقول:

- صنعتُ لكِ قهوة.

تنظر في تعجُّب:

- علمتك رجلًا يميل للشاي، لماذا تحتفظ بالقهوة في منزلك، هل تواعدها سرًّا؟

- أواعد ذِكراها.

تنظر له باستفهام، وهي تحاول اكتشاف الحقيقة من عينيه، ولكنها تخشى معرفتها قدر رغبتها.

تبدأ في احتسائها لتقول بنبرة مراوغة:

- قهوتك نسائية للغاية.

يبتسم:

- لو لم أكن مُناصرًا لحقوق المرأة وبفطرتي الذكورية لشعرتُ بالإهانة، ولكنني حقًا سعيد؛ لأنها أعجبتكِ.

- أيوجد من يساعدك بالمنزل؟

- لا.. فقط أنا.

- كيف صنعتَها إذًا!

- مهارة مُكتسبة.

تصمت لأنها علمت لو كان يُريد أن يقول شيئًا لقاله بالفعل.

- لم تظهرْ منذ فترة، والتقط لك أحد المُتطفلين بعض الصور في المستشفى، فاستخدمتُ مصادري لمعرفة ما حدث.. أرجو ألا يكون ضايقك تطفُّلي ومجيئي إلى هُنا دون موعد سابق، ولكني ما وددتُ أن تمرَّ بذلك وحدك.

- على العكس تمامًا، أنا سعيد أنني استطعت إثارة قلقك.

تنظر له في توجُّس، وقبل أن تحاول ردَّه خائبًا ضرب ضربته غير المدروسة لتُصيبه:

- من خذلكِ وتركَكِ حتى إنكِ أصبحتِ تخشين الغياب؟

تركت قهوتها في توتر، وهي تحاول إخفاء الغضب:

- كم أنك مسكين، لا تستطيع تخيُّل أن يهتم أحدهم لأمرك دون أن يكون لديه أي نية أخرى.

صمت تمامًا، وتركت هي قهوتها ونهضت قائلة:

- أشكرك على القهوة.

أمسك بذراعيها بقوة آلمتها، وهي تهمُّ بالرحيل:

- اعذري توجسي، أنا رجل تُرك وتَرك كثيرًا، تسرَّب من مقلتي ما كُنت أخفيه بين جفوني. اعذري تحجُّرها، فلا يوجد بعيني ماء يساعد على رؤية الأشياء إلا من زاوية واحدة.. زاوية الخذلان فقط.

سحبت ذراعها من يده، وهي تقول:

- لا يبقى شيء بالقوة، إما أن يبقى من تلقاء نفسه، وإما أن يرحل رغم تشبُّثك به.. لا أحد يمتلك القوة الكافية لإبقاء الآخرين.

يتساءل بنبرة قلقة:

- سأراكِ مجددًا، أليس كذلك؟

- رُبما.

ثم رحلت وتتركه في ندمه، تتركه وهو يتأمل خطوات قدميها على الأرض، بينما يحاول جمع ذرات رائحتها المتبقية في الهواء في ذاكرته، ويضع مذكراتها أمامه؛ لأنه يعلم أن غيابها سيطول تلك المرة.

تلك المرأة التي لا يعلم عنها سوى اسمها وبعض أحداث حياتها العشوائية التي لا تدل على مسكن ولا رقم هاتف ولا موقع تواصل اجتماعي يُمَكِّنه من معرفة أي تفاصيل عن حياتها أو آرائها ورُبما حتى سنّها.. لا تستطيع تحديد عُمرها فكُل مرة يلتقيان تبدو بعُمر مُختلف رُبما تكون امرأة عشرينية، ولكن مع كل تلك الأحداث أغلب الظن أنها تعيش أواخر ثلاثينيتها برشاقة.

* * *

تجاهل الأصوات التي تدور بعقله وكأنها ألحان أغانٍ مُختلفة تداخلت فخلقت ضوضاء لا يُمكن تحملها ولا معرفة بدايتها للقضاء عليها، فلم يكن بيديه سوى أن يخضع لها بل ويتحداها فيُزيد من آلامه.

تذكَّر أنه كان سيتم قتلها قبل أن يتخلى عن مذكراتها يوم حادثة نورا.. تنهَّد وهو يقترب من المُذكرة، وكأنه لا يعلم إن كانت ستنجو ليل أم لا، رغم يقينه بأنها حية تُرزق، ولكنه يعلم أن ليس كُل موت فراق للجسد، كم من الأموات ما زالوا بيننا أحياء ظاهريًا. ثم عاد للمذكرات.

* * *

لأسمع صوتك تصرخ من الخلف وتركض.. مشهد سينمائي يليق بالعبث الذي يحدث منذ بداية اليوم.

يقف أبوك لا يتحرك له رمش، يقرِّب السلاح من رأسي أكثر، تقف أمامه فيصبح سلاحه عند قلبك، وتقول:

- ألا ترى أن سلاحك الذي عند رأسها الآن عند قلبي، ألا ترى غير حقدك وغضبك.. إنها فتاة، أين نخوتك يا أبي؟ هل ستقتل فتاة؟

ينظر لك دون أن ينزل سلاحه.. أقف خلفك مرتعبة.. رأسي عند ظهرك أستنشق رائحتك وحرارة جسدك، وكأنني أحتمي بهما من صقيع والدك.

تتحرك للخلف، وتضمُّني بين ذراعيك وتقول له بصوتٍ عالٍ يسمعه جميع الرجال:

- تلك الفتاة، حامل بحفيدك.. هل ستقتلها؟!

أقف بعدم استيعاب لتمسك ذراعي بقوة، وأنظر لك بتعجُّب لتُعيد ما كررته:

- ولي عهدك الذي طلبته هُنا الآن وإن لم آتِ اقتلتَه.

يبتعد وهو يفكر لبرهة، ثم يردُّ ضاحكًا ويقول:

- لا بأس، لن يكون أنا من يقتلها.. لن يأخذ الأمر أكثر من أن يعرف أبوها.

يومها أخذتني بسرعة وكأنك تهرب من الموت، ولكنك يا ليث لتُنقذني أهلكتَ أبي وقبيلتي، وكأنك طوفان دمَّر كُل ما عدانا.. لم أشعر بشيء سوى الخوف.. الآن مصيري فقط في يد تصديق قبيلتي

وثقتهم بي.. وصدِّقني هذا ليس بشيء يُعتمد عليه كثيرًا.

كانت هُنالك في قبيلة فتاة جميلة للغاية وبنت عائلة، وحدث ووقعت في عشق جندي غريب وقت تأديته للخدمة.. رآها أحدهم وهي بين ذراعيه وقت الغروب.. انتشر الخبر، وزاد مروِّجه أنه كان يتحسس جسدها، لم يكن الأمر حقيقيًّا أعلم ذلك وعلمه الجميع.. لكن لم يمُرَّ يومان حتى ذهب الجميع إلى عزائها.. كان أبوها يعلم أنها بريئة، ولكن كان سيكلفه تصديقه لها انحناء رأسه أمام الجميع.

قابلت زوجة عمها بعد أسبوع أتذكر وعاتبتني أنني لم أذهب إلى عزائها، فأخبرتها:

- لن أشارك في تلك الجريمة ولا حتى بالبُكاء.. جميعنا نعلم أنها كانت عذراء، ولكنه خاف من انحناء رأسه أمام القبائل، ولكن ماذا عن انحناء كاهله من الذنب؟ ماذا عن انحناء رأسه يوم العرض أمام سائر الخلق لقتل نفس دون وجه حق.. ستُحاسبون جميعكم، ولن أكون شريكة في ذلك الجُرم.

رحلت المرأة بغضب وقتها، ونُشرت شائعات أنني ماجنة مثلها.. الآن أخاف من مصيري، لذلك اعترضتُ ما فعلناه.

هكذا هو وطني؛ من اعترض للحق رموه بالباطل، ومن قال باطلهم حق صار بطلهم.

لطالما كُنت منبوذةً من الجميع؛ لأنني لم أنسق وراء تلك العادات التي وضعوها، وللحق وجدتُ صعوبة للغاية في النجاة في ذلك المكان الذي هو مفهومي للوطن.. لكنني لطالما شعرتُ بأنني لم أنتمِ لهؤلاء الخلق، ولا لمعتقداتهم، وبما أنهم استوطنوا تلك الأرض،

فلا أنتمي لها بالتبعية فقط، ولولا ليث لتحجَّجتُ بالكثير للرحيل.

مرَّ الوقت، وانتشرت شائعة حملي من ليث.. ولذلك ستتَّحد القبيلتان اضطرارًا.. للحق شعرت بأنني كرهتُ ليث في تلك الفترة.. كرهت أنه لينقذني من شر أبيه رمى بي في شر البلدة بأكملها، ولكنني كُنت صغيرة وعاشقة للدرجة التي تجعلني أغفر له كُل شيء؛ فقط ليبقى معي. لم أصرخ وأنا أخبرهم ببراءتي، لم أجعلهم يكتشفون عُذريتي، أستفز الجميع قدرتي على التعايش مع وصمة العار وسلبية عائلتي التي لم تقتلني، ولم تعلن حظر تجوُّلي حتى الزواج أو -ستْري- بمعنى أصح.

عندما عَلَمت جدتي أُصِيبت بأزمة قلبية.. شعرتُ بقلبي يُعتصر حين رأيتها بين كُل تلك الأسلاك هزيلة بوجهٍ شاحب، تذكرتُ يوم حاولت الانتحار حين كُنت في السابعة عشرة، وتمنيتُ لو أنني مُتُّ يومها كما تمنَّت هي.. للوهلة الأولى رغبتُ في إظهار طهري وبراءتي عساها تفيق كأن لم يصِبْها شيء.. بقيتُ لأيامٍ أترقب لسِماع نبرة صوتها الغاضبة الحاقدة ونظرة عينيها التي كانت لتحرقني من على بُعد على تخييبي لظنها، حتى تحسَّنت واستطعتُ أن أراها.

وجدتني أبكي بحُرقة وأنا للحق لم أظن أنني أحبها لتلك الدرجة.. لكنها كانت مفهومي الوحيد للأم.. أمسكت ما يُمكن لمسه من يدها دون أن أقترب من الأنابيب الموصلة بها.. فتحتْ عينيها لحظتها لتدمع عيناها بهزال، وهي تقول:

- يا ليتني متُّ.

همست:

- ديجافو.

وأنا أمنع شبح ابتسامة ارتسمت على محياي رغمًا عني لا أعلم ألسخرية القدر أم لأنها بخير. ولكنني قُلت لها بمنتهى الثبات:

- ستكونين متّ عبثًا ياما، ليث فقط فض بكارة قلبي.. لن أنكر حُبه، أما جسدي فأقسم لكِ أنه لا.

نظرت لي وتقول لي كعادتها:

- أقسِمي بربك.

تعلم أنني أبدًا لا أقول اسم الله في كذبتي كانت كبيرة أم صغيرة.

أمسكتُ يديها وأنا أقول:

- واللي خلقني وخلقك ياما ما حصل.

ولأول مرة تقف جدتي لأبي في صفّي.. عندما ذهبنا للمنزل، وخرجت من المستشفى وجدته لا يتفوّه بشيء.. قالت له في قوتها المُعتادة:

- وش بك ارفع راسك، جنّيت تصدقهم وتكذب تربيتك وبنت دمك!

نظر لها في عدم استيعاب.. أظنه كان يصدّقني، ولكن همّه لم يكن الناس، همُّه كان هي.. كانت تلك الكلمات كافية للغاية ليشعر أبي بالدم يتدفق لوجهه، كُنت أغضب أحيانًا من انسياقه لرأيها الذي ليس بالضرورة صحيحًا، ولكنني لأول مرة شعرتُ بالامتنان لذلك.

عرفت أنه الوقت المثالي للقيام بالمسرحية الأخيرة للنجاة، لأختفي من أمامهم لدقائق، ثم أعود حاملةً سلاح جدِّي الذي هو سبب كُل شيء؛ لأضعه في يد أبي، وأنظر له بحزم وأقول:

- طخني يا تطلع معي للخلق تتباهى بشرفك، واللي يكلمك تحُط طلقة بنص راسه.

وأخذت بيده لأجعل المسدس صوب قلبي، وأنا أقترب أكثر وأقول:

- لو ما صدقتني بتكون قتلتني.. فهذي بتكون موتة رحمة يابا متبخلش عليّ بيها.

رأيتُ دموع جدتي للمرة الأولى في حياتي، قد ظننتُ أنه بعد موت جدي جفت دموعها عليه.

رماه أرضًا واقترب مني ليمسك رأسي وهو يقول:

- ولو حصل بحق ما بقدر ألمس شعرة مِنك، أنتِ أمانة أمك.

بكينا ثلاثتنا وللمرة الأولى أشعر أنني لستُ وحدي، كرهي لليث قلَّ في تلك اللحظة.. صوَّر لي عقلي أنه رُبما يعلم أنه لن يمسني ضرر، وإن لم يكن يعلم فقد قرَّبت فعلته الأميال التي كانت بيني وبينهم. قال أبي:

- خبِّري الرجَّال ييجي هو وأهله إذ جدّ رايدك.

تنفستُ الصعداء لأول مرة منذ أيام، نمتُ يومها كالقتيلة.. استطعتُ الوصول لليث بالصباح أخبرته، فذهب لأبيه يقول له:

- راحيين نطلب البنت بعد العشا يابا.. أبوها وافق.

قال أبوه في سخرية:

- وش تركته حل للرجل؟ لو بنتي كان اليوم أربعينها.

ابتسم ليث:

- لحسن حظها الرجل يعرف ما هي الأبوة، قم بدورك لمرة، وعاملني كابنٍ لك لا غنيمة، وما تصغَّرني أكثر.

ثم تركه بين رصاص أحرفه، وذهب يستعد وهو يقامر حظه، إما أن تصيب حروفه أباه في أبوَّته أو عِناده.

حلَّ المساء، وقامت جدَّتي بإجراءات طلب البنت العادية التي يقوم بها كل بيت، لم تعاملني على أنني موصومة.. اهتمَّت بكُل التفاصيل من نظافة المنزل والأقداح التي ستوضع بها القهوة، بينما كُنت أطير من السعادة حتى سمعتُ طرقات على الباب.. ذهبت أم عائشة -المرأة التي ساعدت جدتي في تربيتي وفي المنزل- لترحب بالزوار، وبعد فترةٍ ليست طويلة نادتني جدتي لأعطيهم القهوة، شعرتُ وكأنني دُمية يتأملها الجميع، تتأملني أمه وهي تحاول تخمين عدد شهور حملي، أو ما هي أطرف طريقة لقتلي! لا أستطيع التأكد، ويتأملني أبوه وكأنني شوكة في ظهره.. أما إخوته لم يكونوا بذلك السوء.. نظرت لليث.. أخذ قهوته من يدي وهو يمسك يديَّ، وكدت أشعر بجسدي يحترق خجلًا وهو يهمس: ما أجملك!

كان الوضع في البداية مُريبًا للغاية.. حتى إنني شعرت بأن هُنالك سفينة فضاء فوق البيت؛ لأنها استشعرت حرارة زائدة عن المناطق الأخرى، ليقول أبو ليث:

- جئنا في أمر خير، أظن أنه يجب وضع جميع خلافاتنا على جنب ليس لشيء سوى أننا مُجبرون.

ردَّت جدتي:

- ليس لأنكم مُجبرون يا سيد، بل لأنكم رايدين.. أنتم هُنا في بيت سالم الجبل لتأخذوا حفيدته.. الفتاة التي وقع ابنك في عشقها وتحدَّى كرهكم لنا.. نحن لا نكنُّ لكم كرهًا، وإلا ما كنتم هُنا الآن.. ما حدث كان بين سالم ورشد لا علاقة لنا نحن به.

وهنا صرخت أُمك:

- لا تتفوهي باسم أبي حتى.. سيظل دمه لعنة تطارد نسْلك، وها نحنُ ملعونون بمزج دمائنا الآن.

أمسكت يد جدتي، فصمتت للمرة الأولى طوعًا.

لتقول أنت أخيرًا:

- أما، ليل بنت أصول.. أنا ما لمستها، إذ راح تتم الزيجة فتتم على حق؛ لأن ما بُنِي على باطل فهو باطل، نحن هنا لأني بحبها مش لأجل أي سبب آخر.. وأنا هتزوجها سواء وافقتي أو لا.. إذا حابين تباركوا فرحتي خليكم إذ هتجرَّحوا فيها وفي أهلها ارحلوا.. الهدف اللي كنت رايده صار، وأهل المنطقة كلهم شافوكم جايين طالبينها.

تصمت أمك مذهولة، وتجلس مشدوهة، لتكمل أنت:

- عمي، أنا رايد بنتك.. بحبها وبعتذر لك على كل اللي صار، بوعدك بصلح كل شيء.

- اللي رايده ربنا بيكون.

نظر لك أبي يومها لا أعلم أبغضب أم بإعجاب، ولكن بالتأكيد أن نظرته كَنَّت لك الكثير، ولكن لم أستطع تحديد أي نوع

من المشاعر.

مرَّ اليوم وتم إعلان خِطبتنا.. باركت العائلتان الخطبة ظاهريًا فقط، ولكنك أعلنت أنك لا تُريد خطبة بل عقد قران.. لم نتناقش سويًا في ذلك، وأغضبني كثيرًا أنك اتخذت قرارك وحدك، ولكن أي شيء لأكون معك سأركض له قبلك.

وافق والدي، ولم تمانع جدَّتي.. أما أهلك فقد علموا أنهم هُنا فقط ليكتمل الشكل الخارجي، وأنك لن تأخذ رأيهم في أي تفصيلة، وبالفعل تم الاتفاق على يوم عقد القران.

لم يفاجئني سوى خنوع أهلك وصمتهم.

أتذكر أنني استيقظت وجدتُ دبلتك بيدي، هاتفتُك وأنا أصرخ، فزعت وأنت تقول:

- ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟

لأقول لك:

- لقد تمت خِطبتنا يا رجل!

تضحك وأنت تقول: «مجنونة» بصوتٍ ناعس جعل كُل ما عداك جنونًا.. كيف لي ألا أجنَّ، وها نحنُ سويًّا بعد أعوام، كُنت في منزلي البارحة وضعتَ يدك بيد والدي.. لم يتحرَّش الماضي بنا، لم نشمَّ رائحة الدم الذي سيطاردنا كما قالت أمك.. أعلم لعنة الدم، ولكني لا أبالي.. لم أسمع صوت طلقات الرصاص، ولم يحاول أحد الطرفين قتل الآخر، ولم يتم تهديدي.. خنعت أمك لحُبنا ولو مؤقتًا.. كيف لي ألا أجنَّ يا رجل؟ كان هذا المُستحيل بذاته.. أتذكر يومًا رأينا عرافًا، فركضتُ له وأنت خلفي تصرخ:

- لا تؤمني بالخرافات، حرام هذا كُفر يا بنت.

لأنظر لك وأهمس:

- لن نصدقه.. سنأخذ البشارة فقط.

لترد:

- وما أدراكِ أنها بشارة لا نذير شؤم؟

لأمسك ذراعك وأنا أذوب في عينيك:

- بربك مَن سَيَرى عاشقين مثلنا، ويستطيع توقُّع سوء لهم.. هذا بالإضافة إلى أن البشارة تجعلهم يربحون أموالًا أكثر.. هيا.

نظر لي الرجل وهو يتحسس كفّي ليغمض عينيه وتتأفف أنت ليقول:

- لعنة الدم.

أجده أثار انتباهك؛ ليُكمل وهو مُغمض العينين، وعلى وجهه علامات حزن وامتعاض واشمئزاز إن حق القول:

- سيجمعكما الدم، وسيفرقكما الدم يا بُنيتي.

لأحمل يدك بيدي المرتجفة من توقعاته التي كم وددتُ لو أنني صدَّقتها.

فتح عينيه فجأة وهو يقول:

- ارحلا الآن.

فتسأله أنت:

- ماذا حدث؟

- ارحل لا أريد منكما مالًا حتى، فقط ارحلا.

تغضب وتسأله بنبرة تهديد:

- إن لم تخبرني أقسم لن يكون لك رزق بسيناء بأكملها.

- أرى خرابًا ودمًا ودمارًا.. سيُنبت الزرع من الدم لا الماء، يكفي هذا، هيا ارحل، الله يطهِّر طريقك.

لم ننم ذلك اليوم، وإن ادَّعينا أنه مُجرد دجال، ولكن ذكره للدم لم يكن بالعشوائية التي تجعلنا نصدِّق أنه مجرد دجال يسعى للمال.. خاصة أنه لم يأخذ منَّا أي مال.. كُل ما طلبه منا فقط الرحيل، ولا أدري حقًّا مدى السوء الذي رآه لتتحول ملامحه وكأنه استطعم الدم في فمه.

* * *

كيف لي ألا أجنَّ بعد الليلة بربك؟!

للحق كان كُل شيء مثاليًا.. لم أكن أقرب لأهلي من تلك الفترة، شعرتُ بالسعادة كُلما اقتربنا من عقد قراننا يوم ١٢-١٢؛ لأنه اليوم الذي تقابلنا فيه للمرة الأولى.. كُلما قابلت صديقتي تخبرني «اشكريني»؛ لأنه كان عيد مولدها.. لدرجة أنني غيَّرت اسمها على هاتفي حتى أقول لها: «مرحبًا أشكرك» مُباشرة؛ حتى لا أنسى.

كانت حياتي بوجودك رغم جحيمها جنة.. كُنت أنت كظل شجرة في الصحراء في إحدى نوبات جنون الشمس أنقذتني من أن أصيب بضربة حُزن لا منتهية.

مرّت الأيام وكانت أحوال البلد ليست في أفضل حال.. وجدنا دبابات الجيش والعربات المصفحة تملأ الشوارع والحدود لم ندرِ لماذا، ولكننا لم نُبالِ للدرجة؛ فرُبما هو أحد الأنفاق مُجددًا.

جاء يوم عقد القران، ومع سوء أحوال البلد عقدنا القران، وتزوجنا أيضًا، فلم تكن الأوضاع تسمح لزفاف كما خططنا، وارتعبنا أن يحدث ما يعرقل الزيجة، فلم أهتم حقًّا بالفستان الأبيض وكل تلك الأشياء؛ كان همي هو أن نكون سويًّا وبالفعل تزوجنا.

لا أريد تذكُّر تلك الأيام السعيدة بالتفصيل، لا أستطيع أن أكتب عنها كمجرد ذكرى جيدة؛ فقد تسرّب من عُمري الكثير من الشهور والأعوام حتى استطعتُ تقبُّل فكرة أنها أصبحت فقط «ذكرى».. لا أريد تذكُّر شعور الاستيقاظ بجانبه، ولا نبرة صوته الناعسة وهو يحكي لي حكاية ما قبل النوم؛ لأنني وجدتُ صعوبة في النوم خارج فراشي، لا أريد تذكُّر قُبلة الصباح وفنجان القهوة الذي سهر ليلةً كاملةً فقط ليُحسن صُنعه.. حقًّا آخر ما أريده هو تذكُّر كم كانت الحياة معه مثاليةً مُقارنةً بكُل ما أمرُّ به الآن.

وما هي إلا أسابيع قليلة من السعادة، والعديد من زيارات والده الطويلة، وجلسات العائلة حتى تبدَّل ليث.. كنتُ أسمع عن ذلك كثيرًا، لكني لم أتخيل أن التغيير يمكن أن يصيب شخصًا مثل ليث.. وبهذه السرعة.. انتصرت دماء عائلته التي تجري في عروقه من البداية.. ولا أعلم هل ألوم نفسي؛ لأنني لم أتحرك حين استشعرتُ تغيُّره في البداية.. أم ألومه هو لتنازله عن نفسه واستسلامه لمطامع أبيه وعائلته وأنشطتهم بعد أن كان بعيدًا كل البعد عنها.

صار حديثه عن العمل ومخازن السلاح مع والده لا ينقطع.. يتحدث طوال الوقت في أمور لم أتخيل أنها موجودة من الأساس..

وبعد فترة بدأت مطاردات من الأمن لعائلته.

في البداية قبضوا على اثنين من أبناء عمومته.. ثم أخ له.. وبعد فترة بات من الواضح أنه صار بينه وبين الحكومة ثأر.

صارت أحلامي كوابيس بين ليلةٍ وضحاها.. راح ليثي وحلَّ محله ذئب مفترس يخشى الجميعُ شراسته دون هيبة.. وفي ليلة سمعنا عن ظهور قتلى في رجال الأمن.. ولم يحتج الأمر تفكيرًا طويلًا لكي أعلم أن له يدًا في ذلك..

ورغم ذلك تفاجأ والده من الخبر.. لم يتخيل أن يصل جموحه ورغبته في الانتقام لتلك الدرجة.. وما هي دقائق حتى وجدنا أحدهم يهاتف والده، ويخبره بأن مخزن سلاح بالأكمل قد سُرِق، ومن سرقه ما كان إلا ليث.

لم نستوعب كُل ما حدث، حتى جاءنا خبر أنه تم قتل رجلي أمن آخرين في اليوم التالي قبل الفجر.. لا أريد حتى تذكُّر كُل تلك التفاصيل التي تمزق قلبي، بينما أحاول إيجاد الكلمات المُناسبة لوصف الوحش الذي أصبحه ليثي..

كُل ما يجب ذكره أن تلك لم تكن آخر جريمة يرتكبها.. قتل ليث العديد، وتحوَّل إلى كائن بلا قلب.. كائن مُتحجِّر يتغذى على أرواح البشر.. لكن ذات ليلة، وأثناء إحدى المطاردات مع الأمن قُتِل «سلام» بالخطأ.. كان «سلام» صديق ليث منذ الطفولة.. قتله ليث بينما كان يؤدي خدمته العسكرية دون قصد. فكانت القشة التي قصمت ظهره.

علم ليث اليوم التالي بالطبع.. لم أستطع التأكد من ذلك سوى

عندما فاجأني بقدومه.. فهو لم يعد يظهر؛ إذ إنه مطلوب حيًّا أو ميتًا من القبائل ومن الأمن.

ذهب إلى عزاء صديقه.. بكى وصرخ أمام القبائل جميعًا أنه هو من قتله، تجمَّع حوله أهل «سلام».. علم والد ليث بما سيفعله ابنه، فجمع ما عنده من رجال ومن سلاح وذهبوا إلى العزاء.. ما إن اقترب أبو «سلام» وهو يقول له: أنت يا ليث تقتله؟!، كنتما أخوين!

ما إن وضع يده على سلاحه حتى انتشر رجال قبيلة ليث بأجمعها بأسلحتهم، وهددوهم أن يقتلوا كُل من بالعزاء إذا لم يخرجوا بليث.. لم يجعلهم يخنعون إلا معرفتهم بقوة قبيلة ليث وسُمْعتها.. لذلك تركوهم يرحلون وقتها.. فقد اكتفوا من الموت.

جاءني ليث إلى المنزل وجسده هزيل وملامحه شاحبة.. رأيت للمرة الأولى أنه يشبه أباه، ليس فقط في الملامح، بل أيضًا في الطِّباع.

حين رأيته بكيتُ.. ارتعبتُ من كوني قد فقدتُه للأبد.. لكني حين تأملته وجدتُ رجلًا باردًا لا روح به ولا حياة. عيناه منطفئتان لا رحمة فيها ولا حتى شر.. صار حجرًا يتحرك.. أدركت حينها أنني فقدتُ الرجل الذي أحببته، فقدتُ قلبه ولينه ورقته. ولم أعلم أيجب أن أركض منه أم إليه.. حين رآني ارتمى بين ذراعي.. ضممته مضطرة، واستنشقت لأول مرة رائحة الدم.. لا رائحته التي لم أكن أمانع أن أركض لأميال فقط لأرتمي بين ضلوعه من أجلها، ضممته لصدري، وأغمضتُ عيني من الأسى لا العشق.. قال لي بنبرةٍ أهلكها الذنب:

- أنا من قتلتُ «سلام».

- أعلم.

مسحتُ على شعره، ليبكي ويقول:

- أنا من قتلتُ الآخرين.

- أعلم.

- ليل، أنا لن أستطيع أن أعيش مع ذلك الذنب.. ظننتُ أنني قد أستطيع.. كنت واهمًا.

- أعلم.. أعلم.

وكنت أبكي بحرقة.. سألني:

- ماذا تظُنينني سأفعل إذًا؟

ضممته أكثر وأنا أهمس بين دموعي:

- لا أعلم يا ليث.. لا أعلم.. مُرتعبة من تخمين ما يُمكن أن تفعله حتى.

ابتعد وجلس على ركبتيه أمامي:

- أنا لستُ أنا، ولن أستطيع أن أعود أنا مرة أخرى.. فات الوقت وضاعت فرصتي.

ثم وقف ونظر إليَّ.. قبَّلني بحزن شديد وهو يبكي ثم همس:

- أنتِ طالق.

تحجَّرت مكاني، لم أعلم ماذا يجب أن أفعل، هل أصرخ به أن يفيق، أم ألكمه في قلبه مثلما فعل في قلبي.. أم أفرح لأنه يحرِّرني من جحيمه.. من الذنب ولعنة الدم والأرواح التي ستطارده للأبد.. تذكرتُ العراف لحظتها.

«سيجمعكما الدم.. وسيفرقكما الدم»..

تركني ورحل، لا أريد أن أتذكَّر كيف مرَّت تلك الليلة..
لكنني أعلم جيدًا كيف بدأ اليوم الجديد بخبر في جميع الجرائد:
القبض على «ليث بن رشد» الإرهابي المطلوب في سيناء
في لقاء حصري لإحدى الفضائيات كان ليث مُكبل الذراعين، وعلى وجهه آثار الضرب وهو يقول:
- أنا لم يتم القبض عليَّ، أنا سلمتُ حالي.. قتلوا أصدقائي، وظننتُ أنني أردُّ القتل.. لكن وجدتُ أنني فقط قتلتُ من تبقَّى من أصدقائي.. لم أمسَّهم بسوءٍ، بل جعلتهم يبدون كضحايا أيضًا.. لكني لا أستطع أن أكون هذا الرجل، لا أستطيع أن أقتل المزيد.. لا أعلم مَن منا على حق، ولكنني أعلم إن من على يديه دمٍ فهو قاتل.. ولا قاتِلَ على حق.
وكُنت أظن أن تلك نهايتي أنا وليث، ولكن الدم كما جمعنا وفرقنا.. رُبما سيجمعنا مُجددًا.

***

ترك عاصي مذكرات ليل، وهو يحاول تخيُّل ما قد مرَّت به، يلعن حماقته حين قال قوله الأخير الذي أغضبها، قد نبش بجرحٍ أعمق مما ظن.

(١٤)

مرَّ أسبوع لم ينم فيه جيدًا.. لم يستطع إخراج حادثة نورا من عقله، وجد هاتفه يرنُّ باسم ناريمان أم نورا.. تنهَّد مرتعبًا مما قد يُقال، أغمض عينيه وهو يقول: ألو ليسمع نورا تقول له:

- أين أنت يا أحمق؟

صرخ فرحًا: سأقتلك، أنا سأقتلك.

فتضحك ويضحك بهيستريا بين دموعه وهو يردد بلا توقُّف:

- سأقتلك أقسم لكِ.

أغلق وهو يركض إلى المستشفى.. لم يعلم أنه قد يُحب أحدهم لتلك الدرجة أبدًا، دون أن يريد منه أي شيء، فقط يريده بخير.. حتى «ورد» كان يُريد حُبها وقلبها.. أما نورا فقط يريدها بخير وكفى.

وصل ليجدها جالسة.. لم تبدُ بخير كما تمنى، لكنها كانت حية تتنفس، وهذا كُل ما يُهم في تلك اللحظة، أي شيء ما عدا ذلك يُمكن حله مع الوقت.. ركض باتجاهها وهي تقول:

- لا تلمسني.

ليقول:

- فقط سأحتضنك.

تقول له بنبرتها الساخرة:

- هل ستتعاقب بدلًا مني في جهنم؟
يقول ضاحكًا:
- نعم قولي احتضنني رغمًا عني.. ستطول إقامتي هُناك على كُل حال.
تصرخ وهو يقترب منها، فيضحك، وتضحك أمها، ليمسك يديها يقبِّلها وهو يقول:
- اشتقت لكِ.
كانت تلك من اللحظات القليلة التي شعر بها أنه يستطيع التنفس بحُرية، دون تراكُم الماضي فوق قلبه.
في نهاية اليوم تركها فرحًا، ثم لجأ إليَّ وإلى موجي مُجددًا.. إنه يلجأ لي كُلما اختفت ليل، ولكن ماذا إن لم تختفِ مجددًا، هل سيبدِّلني بها؟
جلس عاصي يلاحقه صوت أم كلثوم في الخلفية، معه مذكرة ليل وكأنه يستفز حضورها.. كُلما وُجدت المُذكرة ظهرت هي بطريقة أو بأخرى.. تأملني وأنا أداعب الشاطئ، كان قد حلَّ الربيع وهدأ بطشي، مرَّ أسبوعان منذ لقائه الأخير مع ليل.. طال غيابها، فاختلَّ توازنه، ولجأ لي مُجددًا.. أحمق لم يعلم بعدُ أنه مُجرد أن يصل لمرحلة معينة لن ينسى، بل سيتذكر بالتفصيل كُل ما ودَّ لو ينساه، سيتذكر ورد ونورا وليل وفرح، سيتذكر أباه الذي كان يُحب القهوة كثيرًا.. سيتذكر يوم أجبره أن يحتسيها، وحين قال له إنها مُرَّة سخر منه وقال له:

- ماذا ستفعل مع مرارة الزمن إن لم تتحمل مرارة القهوة؟ اشرب.

وحين رفض عاصي أن يشرب سكبها ساخنةً فوق رأسه، وجلس يُكمل قهوته وكأن شيئًا لم يحدث.

لم يبكِ يومها من الألم الجسدي، لم يؤلمه جسده بقدر ما آلمته روحه.. وألم الروح لا يُمكن الشفاء منه أبدًا، لم يتخطَّ تلك اللحظة، ولم يتخطَّ كُرهه لأبيه الذي وصل لأقصاه، وبالتبعية كُرهه للقهوة.. كُلما تحرَّشت به رائحة القهوة تذكر أنه لم يحظَ بطفولة عادية.

تذكر والده وكم كان يُسيء معاملة أمه، تذكر خياناته المُتكررة لها، وكم طلبت الطلاق منه، ولكنه هددها بأنها إن أقدمت على فعل أي شيء متهور فسيأخذ عاصي منها.. وبالفعل لينفذ تهديده حين علم أنها أخبرت أحد إخوتها بإنه يُسيء مُعاملتها.. أخذ عاصي واختفى لثلاثة أيام.. أخبرني عاصي ذات سهرة له معي أنها كانت أسوأ ليالٍ بحياته.. لم يُخبرني تفاصيل، ولم أحاول نبش جروحه أكثر، ولكن حين عاد قررت أمه أنها لن تُعيد فعلتها، وستتحمل أي شيء ليبقى طفلها معها..

دخلت أمه ليلتها تربت على شعره، فاستيقظ فزِعًا.. ضمَّته وبكيا سويًّا، قال لها:

- أعلم أن أبي رجل سيئ، ولكن أرجوكِ لا تتركيه، لا تتركيني.

ثم تذكَّر قول نورا له قبل أن تتركه:

- أنت أفنيتَ عُمرك في كُره والدك، لا أعلم كيف ستكمل ما تبقى منه مع حقيقة أنك أصبحت رجلًا يشبهه.

تذكر صوت ورد في ذلك اليوم المشؤوم وهي تقول: «أحضرت لك الشاي يا مُزعج»، لتدخل وتجده بين ذراعي امرأة أخرى.

يتذكَّر وجهها الذي يبدو كإسفنجة حمراء تمتصُّ دموعها وتتأمله في ثبات، بينما ركضت المرأة تلملم أشياءها المبعثرة، ويقف هو أمامها مُغطى بالذنب والخطيئة، وعلى وجهها نظرات التيه وعدم الاستيعاب، كانت تبدو كمن يحاول أن يستيقظ من كابوس لم يكن سوى الحقيقة.. هرع إليها ينادي اسمها ويكرره لا تعلم لأنه يحاول أن يؤثر عليها بنطق حروفها الثلاث كما لم ينطقها بشر من قبله، أم لأنه لا يعلم ماذا يجب أن يقول لامرأة لم ترغب سوى أنْ يُنادي اسمها بنفس الشغف حين يكونان في السبعين من عُمرهما.

وقفت أمامه كالمحمومة، يتعرَّق جسدها وينتفض، اقترب لها وهو يبكي، ولا يقول سوى اسمها، لتصرخ:

- ابتعد، أنا أكرهك يا عاصي.. أكرهك.

لم يبتعد، لم يتوقف عن البُكاء.. فقط ازدادت وخزات قلبه كُلما تذكَّر أنه سأل ورد يومًا:

- ماذا إن حدث ووجدتِني بين ذراعي امرأة أخرى؟

لتنظر له بغضب تحاول إخفاءه:

- في اللحظة التي ستجد فيها القدرة على ضمِّ امرأة أخرى لصدرك سأكون قد رحلتُ عنه منذ وقتٍ طويل، فأنت لا تستطيع

أن تجمع بيني وبين أخرى.. لا يكفي قلبك، سينفجر.

- ليس قلبي، بل جسدي.

- الجسد هو عباءة الروح، ما لا يلمس روحك لا يتقبله جسدك، ولذلك الخيانة عندي غير مغفورة.

كيف يُخبرها أن تلك المرأة لم تلمس روحه؟ كيف يُقنعها أن تلك المرارة التي في قلبها كالصديد يُصب في مجراه.. لن تسامحه إن أخبرها أنها نزوة عابرة، ولن تغفر له، بل سيزيد قُبحه في عينيها، لم يجد نفسه سوى أنه يردد اسمها؛ لأنها أطهر ما يُمكن أن يقوله.

كم ودَّ إخبارها بأنه ليس سيئًا، إن لم تمس جسده الحقيقي امرأة غيرها، ولكن الرجل يتبع شهواته وفطرته التي تجعله في كثير من الأحيان أنانيًا.

حتى قالت:

- ارحل تلك نهايتنا.

في تلك اللحظة خرج هو من بيته، مسكنه الفعلي والروحي.. خرج من بيته كآدم حين طُرد من الجنة، الفارق أنها كانت حواءه، أما الآن فعليه أن يقضي أبديته منفيًا منبوذًا من الجنة؛ لخطيئته ووحيدًا أيضًا.. وكان يعلم الله كم هي صعبة الوحدة، فخلق لآدم أنيسًا، أما عقاب عاصي من اسمه كإبليس، عاصي أبى واستكبر أن يعتذر حتى؛ ليس لشيء سوى أنه يعلم كما لن يعود إبليس ملاكًا لن يعود هو لجنَّة ورد.. فقد رمته من حدائقها لأشواكها.

حين عاد وجد المنزل خاليًا من القهوة، من فناجينها المُفضلة،

من شالها، من روايتها التي أرَّقته ليالي باكيةً تقصُّ له ما حدث مع البطل والبطلة.. تجعله يعِدَها بعد كُل رواية ألا يخذلها. فيضحك من قلبه على سذاجتها البريئة التي تجعلها تصدِّقه وتطمئنُّ وتنام لمُجرد أن يقول لها «أعدك»، ولكن في كثير من الأحيان كبَّله ذلك الوعد عن ارتكاب الفظائع فقط حتى لا يخذلها.. وجد منزله خاليًا من ثيابها فقط بقي عطرها يستهزئ به ويتحرش به؛ انتقامًا لها، ودبلة تلمع فوق المنضدة تسخر منه.

بعد ما حدث تلك الليلة تبخرت، وكأنها لن تكن.

لم يتحدث معها.. لم يبرر.. لم تصرخ، ولم تبكِ، ولم تظهر.

ولكن ليته رحل حقًّا دون أن يحاول استبقاءها، لرُبما كان كُل شيء مُختلفًا الآن.

لم ينجده من جلْد نفسه سوى قدوم «ليل»، جلست كطوق النجاة الذي أنقذه من الغرق على الشاطئ، أنقذه من الغرق في عُمق الذاكرة، ومن أن يبتلعه قِرش الذكريات.. جلست، فطغت على الماضي، طغت رائحتها على رائحة الحطب المُحترق.. طغت حتى على ذكرى ورد..

عهدته شاردًا مُشردًا، ولكن اليوم كان به شيء مُختلف، ظنَّت أنه غير واعٍ لقدومها حتى قال وهو يتنهد:

- طال غيابك.

لتقول له:

- من خذلك وتركك حتى إنك أصبحت تخشى الغياب؟

يبتسم وينظر لها ليجدها مرتدية اللون الأبيض كأول لقاء لهما، تضع شالًا أسود حول رقبتها كلقائهما الثاني..

اقترب وحلَّه عن عنقها وهو يقول:

- لكُل شيء بدايته ونهايته، هلاكنا يكمن فيما بينهما.. وما يجعلنا نخشى الغياب هو ما نعانيه فيما بعد النهاية.

- هل ستنتهي المُعاناة؟

- لا تنتهي المُعاناة إلا لتبدأ مُعاناة أخرى تضاعفها في الألم.

تصمت قليلًا ثم تغمض عينيها وتسأله:

- ومتى ستغلب السعادة المُعاناة؟

- لا يوجد سعادة كافية لتغلب المُعاناة، السعادة مثل المُخدر مفعولها قوي ومؤقت تجعلك كالمريض المبتورة قدماه.. يظن أنه استردَّ حياته الطبيعية في اللحظات الأولى، ولا يشعر بأي تغيير، وما يلبث أن يتحرك أو إن قلَّ تأثير المُخدر حتى تلطمه الحقيقة، ويجد أن جزءًا منه لن يعود أبدًا.

صمتا قليلًا حتى سألته:

- كيف رفيقتك؟

- بخير، تتنفس.. هذا كافٍ للغاية.

- هل ستتخطى وعكتها الصحية؟

- صدِّقيني ما أشد وطأةً هو تخطِّي وعكتها النفسية، لا أحد يعود من حربه كما كان، هُنالك دائمًا خسائر وإن كانت غير مرئية.

- ماذا عن حربك؟ ماذا فقدت فيها؟

- هل يفقد الإنسان نفسه حين يفقد أحدهم، أم إنه تعبير بلاغي عن الخسارة فقط؟

- لا يفقد الإنسان نفسه بالمعنى الحرفي، بل يفقد سعادته، يفقد قدرته على الضحك أو البُكاء، يفقد السكينة والأنس ولو أحيط بأهل الأرض جميعهم، فلا شيء يُمكن أن يعوضه عمن فقده فيُهيئ له أنه فقد نفسه.. في حين أنه فقد من كان يجعله يشعر أنه يستطيع أن يكون نفسه دون أي مشقة.

يقول وهو ينظر لها وكأنه يحوطها كيلا تهرب:

- وكيف نتخطى تلك الحالة من اللا انتماء واللاوجود؟

- يظنُّ الإنسان أن وطنهم هو البلد التي خُلقوا بها وترعرعوا على أرضها، ولكني أظن أن الوطن هو كُل أرض شعر بها الإنسان أنه حُر، هي الأرض التي يركض لها ولمن عليها سواء كانت مسقط رأسه أو مسقط قلبه.. الوطن هو ما بداخل الإنسان، فيُمكن أن يكون الإنسان لاجئًا في وطنه، شريدًا بين عائلته، وحيدًا في أحضان رفاقه.

تضحك فينتبه لها عاصي أكثر، ويبتسم لها لتُكمل:

- أخذني أحدهم يومًا إلى وطنه حين أخبرته أن الحياة ليست عادلة، أراني النساء والرجال من حولنا.. كانت تبدو ملامحهم مُتقاربة للغاية رغم اختلاف أعمارهم وبشرتهم وثقافتهم.. همس لي يومها:

«الحياة عادلة في ظُلمها، فتركت بصمة على قلوب وتجاعيد الجميع مهما اختلفت أو تقاربت القصص، لا يوجد نُجاة على هذه الأرض».

ضحكت حتى بكت، وقالت له:

- لماذا يرحل الجميع؟

- لتصِلِي لوجهتك الصحيحة، حين نضلُّ الطريق ونُسيئ فهم العلامات يُضعنا الله مُجددًا على الطريق المعني، لنُكمل ما سنختاره بإرادتنا التي شكَّلها هو.. وفي تغيير هذا المسار إما أن نرحل نحن أو هُم.. لكن في كُل الأحوال هُم كانوا مُجرد إزاغة مؤقتة عن الجادَّة.. وقد يحدث ما لا تُحمد عقباه إن استمرت أكثر.. ولذلك يجب أخذ الفراق على أنه تحدٍّ، لا يجب أن تنظر للخلف.. يجب أن ترحل بتلك الطعنة التي تنزف روحك، وكأنها ثمن إزاغتك عن الطريق، عن غبائك في عدم فهم العلامات..

صمت عاصي قليلًا، وشعر بها بجواره أكثر.. أمسك يديها وقال وهو يميل برأسه تجاهها:

- على كُل حال أنا مُمتن لغيابهم جميعهم.. فلهذا أنتِ هُنا الآن.

- ألا تخشى أن تكون مُجرد إزاغة أخرى عن الجادَّة؟

- لا أمانع.. يُمكن أن يكون فراقهم مؤلمًا، ولكن عدم لقائك أنتِ أصعب.

تصمت قليلًا وهي تتأمله ثم تسأل:

- مَن تلك التي جعلتك تشرب أنهارًا لتنسى اسمها؟

- من الذي جعل الأرض ضيقةً على روحك، فلجأتِ لقلب البحر؟

نظرا لبعضهما وابتسما.. تأملا النجوم كما يفعلان دائمًا، كانا

يعلمان أن الصمت أحيانًا يكون أبلغ من كُل ما يُمكن أن يُقال.. الصمت هو لغة الألم، لغة من لا تساع الأبجدية وصف ندوبهم.

شعرت أمواجي وقتها بالسكينة.. لدرجة أنني توقفت عن ضرب الشاطئ تحت أقدامهما، تأملت النجوم معهما وأنا أتمنى ألا يرحلا.. تعلقت بهذين البشريين أكثر من اللازم، للمرة الأولى توقف صوت أم كلثوم عن دور البطولة، توقف عن أخذ دور الموسيقى الخلفية.. واكتفى عاصي بموسيقى صمتها.

* * *

(١٥)

أصبحت حياة عاصي تتمحور حول «نورا» و«ليل» ومذكراتها التي لا يعلم متى يجب أن يعترف لها بأنه وجدها، وهل ستغفر له تطفُّله أم لا.. امرأتان إحداهما تُعتبر نهاره والأخرى تُمثل ليله، إحداهما هي ضميره الطاهر الذي لم يمسسه سوء من العالم، والأخرى هي كُل ما ظن أنه لن يستوعبه بشر.

امرأة يستطيع أن يُعرِّي روحه أمامها، أن يُريها قبح ماضيه، يُريها ندوب روحه وجسده التي سببها له والده، يُريها خنوع أمه، يُطلعها على تهديد والده لأمه.. وحدها هي ستضمُّه بحنوِّ الأم التي تعلم ما الذي يعني فقدان الطفل لأمه والعكس.

ستجد فيه «غيث» وسيجد فيها أمه.. يُريها كم هو مرتعب أن يكون مثله.. وكم يخشى أن يصير أبًا لأحدهم.. ليس لشيء سوى أنه لن يتحمل أن يُجازف بأن يكون أبًا سيئًا.. فقط لو باستطاعته أن يقول لها إنه يعلم كُل شيء، ويُمكنها أن تبكي وتصرخ، يُمكنها أن تكون هي دون أن تخبئ حقيقتها التي تظن أن في الجهل جمالًا يفوق المعرفة، فضول وشغف تغلبه الدراية، امرأة تجابه القدر.

تتركه يظن أنه يتحكم في زمام الأمور، تترك له حُرية التحكم في جدولها اليومي؛ لا لشيء سوى أنها لا تطمح في عِناده.. فمنذُ

أصبحت أمًّا أصبحت أكثر تمرسًا في كيفية ترك سلطة الإدارة الزائفة.. تُهيئ كُل شيء بينما تترك طفلها العنيد يظن أنه هو من يختار مواعيد نومه، الطعام الذي سيتم طهيه اليوم.. فتضع له وجبةً تعلم أنه لن يستطيع رفضها ضمن ثلاثة اختيارات يمقت منهم اثنتين.. فيظنُّ أن هذا هو أفضل اختيار. بل ويحاول إقناعها به، وحين يفعل فينال نشوة النصر.. بينما هذا اختيارها الأول لليوم.

أصبحت تعلم كيف تعبث بالعقول والقلوب حين يظنون أنها هي من يتم العبث بها.

بدأ وضع نورا الصحي في الاستقرار، بدأت في العودة لهيئتها القديمة، تخلصت من الجبائر الصلبة التي أحاطت بجسدها.. تخلصت من بعض الأجهزة، واستطاعت أن تتنفس، ستخضع للكثير من العمليات.. لكن جميع من حولها يخبرونها بمعجزة أنها حية تُرزق.. فعدد العمليات يبدو كعاقبة لنجاتها.. أو ثمن كان يجب أن تدفعه لتنال فرصة حياة جديدة.. لكنها لم ترغب بتلك الفرصة، لم تسْعَ لها، فلماذا تُجبَر أن تدفع مُقابلها.. ولماذا فقدت فُرصتها الأولى من الأساس!

***

الكثير من الأسئلة عانت منها، فبدا لهم تحسُّنها الجسدي ظاهرًا.. لكن كُلما تحسن جسدها تدهورت نفسيتها.. فقدت بريقها وابتسامتها مع الأيام، أصبحت تشعر بأن العالم عاقبها على ما لم تفعله.. كأنها ماتت بالفعل ليلة الحادث. لكن بطريقة ما

تشبَّث جسدها بالعالم، فنجى فُتات من روحها.. تجد سعادة كُل من حولها باستعادتها لصحتها، ولكن كُل ما تفكر به هو لماذا فقدتها من الأساس.. فهي لطالما كانت فتاة جيدة، خدمت بالكنيسة، حفظت الصلوات، وذهبت لسرِّ الاعتراف باستمرار.. تُحب الله، وتخلص لدينها، لم تعصِه، ولم ترتكب أي خطيئة لا يُمكن أن تُغتفر.. لكنها ذهبت مرّةً لسرِّ الاعتراف. جلست أمام الكاهن الذي بدأ بالصلاة لاستحضار الروح القُدس، ثم أشار لها بالتحدُّث..

بدأت تقصُّ عليه تفاصيل يومها، منذ لحظة استيقاظها للحظة ارتكاب خطيئة القتل.. أخبرته كيف دهست تلك القطة منذ يومين، ولم تستطع النوم ولا الأكل ولا الشرب.. اغتصب روحها تأنيب الضمير، بدأت في البُكاء، وظهر شبح ابتسامة حانية على وجه الكاهن، وهو يخبرها بأنه قتل على غير عمد، وأن الرب يرى القلوب والنوايا قبل الأفعال.. خرجت من سر الاعتراف وهي تقرر أن تنقذ كُل حيوان يحتاج للمساعدة، كتعويض عن روح تلك القطة سيئة الحظ.. بالفعل بدأت بكلبتها هي وعاصي الذي ساعدها لتخطي تلك الأزمة التي كانت تبدو له ليست مُعضلة.

يتذكر أنها يومًا تحدثت عن إحداهن، وبقيت لأيام تزعم أنها ارتكبت خطيئة حتى اعترفت له أنها خطيئة الإدانة.. لم يكن يعلم أنها خطيئة، كان يعلم أنها غير مُستحسنة، ولكن ليست لدرجة الخطيئة.. لكنها بقيت تشرح له كيف أن الإدانة هي أسوأ ما يُمكن أن يرتكبه إنسان في حق أخيه..

يتذكر يومًا أنها أغمضت عينيه لساعة كاملة تحاول إقناعه أن العين هي سبب الخطايا، عندما أخبرها مستشهدًا بالفيلسوف الفرنسي «دنيس ديدور» وهو يصف الحواس قائلًا: إن النظر هو الأكثر سطحية، السمع هو الحاسة الأكثر غرورًا، والمذاق الأكثر تطيُّرًا، واللمس هو الأكثر عمقًا، ووصف الشم على أنه حاسة الرغبة.

قال لها عاصي: إن اللمس يُمكن أن يشعل النار دون عيدان ثقاب في الروح، أخبرها بأن الجسد أكثر بلاغة من الحروف، والنشوة أصدق من الحُزن، ولكنها أصرَّت على أن العين هي التي يبدأ من حيزها الضيق النار، لتتفشى في الروح والجسد والحواس بأجمعها.. فإن لم يرَ لن يتغزل ولن تُثار شهواته، لن يُدين أحدهم، فما عليه سوى أن يغض بصره..

يا الله! كم تحمل سماتٍ من اسمها.. فهي نور قلبه، تُنير ظلمته.. تقربه لله وكأن تلك وظيفتها على الأرض.. أن تذكِّر الآخرين بالآخرة.. ولكن ذلك النور خفت بعد الحادث، اختفى النور، فأصبحت نورا كحرف وحيد مُتسائل.. أسيتبدد ذلك الأمل؟ أسأتجاوز كُل ما حدث مؤخرًا؟ هل سأنجو؟ أصبحت حرفًا واحدًا ساكنًا تتراقص الهمزة بداخله فتزعزع إيمانه.

جلس عاصي مع نورا، ليجدها تواجه ما حل بها بالسخرية، سخرت من حالها حتى بكت وهي تقول:

- أبدو كالمسخ!

نظر لها عاصي في حنو ليقول:

- توقعت منك انهيارًا بذلك الكبرياء، فإنه يُشبهك.. ولكنكِ تعلمين أنه لا بأس بالبُكاء والصراخ والسخط على العالم وسبِّه.. لا بأس أن تصدمك موازين القدر، لا بأس أن تستيقظي وتتساءلي لماذا أنا خصيصًا؟ ولكن حتى لا تُحبطي، لن تصلي لإجابات مُرضية.. ستتكئين فقط على إيمانك بالقدَر خيره وشره، ستحاولين تخيُّل أسوأ سيناريوهات كان من المُمكن أن تحدث لتهوني بَلْواكِ.. لن يكون سهلًا، ولكن أتذكر مقولة «إن عظمة النار تكمن في أنها تحرق وتحترق».. فيجب أن تحترقي أولًا يا نورا، ليكون كُل شيء على ما يُرام لاحقًا.. فهي ضريبة الحياة.

- وإن لم يكن شيء على ما يُرام؟

- سأكون هُنا، سنخطط لحرق العالم عن بكرة أبيه.

- وإن أحرقتك، ولم يتسنَّ لك النجاة؟

- سأخلق من رمادي هيكلًا يلازمك.. لن أتخلى عنكِ أيًّا كانت حالتي، لن تنجي من لعنة حُبي المريضة المُرْضية.

تبتسم وهي تعلم أنه يعي كُل حرف يتفوه به، تحاول تشتيت انتباهها عن الألم، فسألته عن امرأته الغامضة.. يقول لها إنها تعلم ما أصابها، وإنها تطمئن عليها من حين لآخر.. تسأله عن علاقتهما، ليبتسم ويقول:

- أجدني في حالة وفاء لوهم حضورها، أنتظر لمح طيفها لتختفي شمس الواقع المُهلك، ويحضر ليلي بقدومها، تتلألأ النجوم من عينيها، ويدبك القمر على خطوات قدمها البدوية..

تراقص الأمواج كما تتمايل خصلات شعرها مع الريح، ويستمد اليود رائحته من عطرها.. أريد الغرق بها كلما تحدثت، أريد أن أتنفس منها كُلما تنهَّدت.. لم أحبَّ ملامحها فقط، أحببتُ الحُزن الذي ترك بصمته على روحها فجعل من عينيها حفرة كونية سوداء تبتلع كُل ما يجذب نظرها، ضائع بداخلها كرائد فضاء بلا جاذبية، لا به يُحلق ولا به يهوي، ولا يوجد نهاية فيزيائية لضياعه بها. فقط الضياع بها اهتداء، الموت بها حياة.

- هل هذا حُب أم استجداء له؟ أعني بالتأكيد أنك تعلم أن الحُب مُجرد وهم، ثم إنك لا تعلم عنها شيئًا.. ربما أنت فقط اشتقت لما أحسستَ به مع ورد.. كفاك حلمًا واستيقظ.

نظر لها ببعض خيبة الأمل، ولكنه يعلم أنها ليست في أفضل حالاتها لتكون كما عهدها، فقال لها باقتضاب:

- هل تظنين أنني ما زلت أحب ورد؟

لتقول له:

- إن توقفت الشمس عن الشروق ستعكف عن حُبها.

يضحك بسخرية:

- عزيزتي أنا لم تبزغ شمس على عالمي منذ أعوام الآن، أنا توقفت عن حُب ورد، ولكنني لن أتوقف أبدًا عن رغبتي المُلحة في إصلاح ما أفسدته معها.. لن أتخطى ما فعلته بها، ولعنتي الأبدية سيكون حنيني إليها.. أريد أن ألقاها ليس إشفاءً لحنيني، بل للتخلص من لعنة الندم التي لاحقتني منذ مغيبها، أريد أن ألقاها

لأبرر لها خطئي. أن أشرحه وأعتذر عنه.. فالكِبْر لم يتملك من قلبي مثلما زعمت، الكِبْر لن يكون معصيتي مثل إبليس.. أريد أن أجعلها تغفر لي ما لم أفعله، وخصيصًا ما فعلته.. في الماضي كُنت أنتظر الشروق. كُنت أظن أنه بغياب ورد اختفى النور، حتى وجدت ليل، وخلقَتْ من عتمتي نهارًا، خلقتْ من العدم الوجود، حولت الهزائم لانتصارات، وجدت أنه بالليل متعة لن تجدها في النهار.. حقيقة يزيفها النور، بالليل ستر لا يفضحه سواك، لا يُعريك ضوء ولا تكشف عوراتك عين، لا يتلصص على جروحك أحد، ولن تلاحظ ندوبك روح.. أنا كُنت أظن أنني أحب ورد، ولكني وجدتُ أنني أعاني من تأنيب ضمير لن يحله سوى رؤيتها والحديث معها، اختفاؤها أهلكني ليس لأنني أريدها.. فما كُسِر بيننا لا يُمكن إصلاحه، ومشاعرنا ماتت.. الثقة مثل العذرية مُجرد أن تفقدها لا يُمكن أن تزرعها مُجددًا.

* * *

ورد أحبت طهارتي، تنصلت من عُهري دائمًا.. أخفته حتى عن نفسها؛ لكي تقع في حبي غضت بصرها عن نصفي الوخيم.. والحُب ما هو إلا تقبُّل النصفين، معاشرتهما.. صدمها الواقع. أحيانًا أشعر بأن غيابها المُفاجئ ما هو إلا رأفة من الله بحالي.. فما كُنت سأنجو فراقها لو تمكنت من الوصول إليها، من أن أظل طوال حياتي أستسمحها.. لم أكن لأتخطاها أبدًا، لم يكن يتسنّى لي الخلاص لو كُنت على دراية بأحداث حياتها المُختلفة.. لم أكن

لأتحمل استبعادي ونفيي من نطاقها.. هذا الذي بيني وبين ليل لا أجد له اسمًا، ولكنه بالتأكيد لا يشبه ما بيني وبين ورد، لا يقربه بصلة.. رُبما ما كان بيني وبين ورد كان حُبًّا، وما بيني وبين ليل حالة استثنائية، حالة تعصف بك.. تجعلك تستلذ بالمغيب؛ لأنك ستتذوق لذة الحضور من جديد، تجعلك تتقبل الخسارة؛ لأن الخسارة لها مكسب.. مع ورد وجدتُ الحُب، ومع ليل وجدتُني.

ابتسمت نورا وهي تقول:

- كُلما وجدتُك تتحدث عن ليل أتذكر حين كُنت صغيرة، وقرأت لمصطفى صادق الرافعي رواية وجدتُ بها جملة تقول: «أريدها لا تعرفني ولا أعرفها، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها.. تتكلم ساكتةً، وأرد عليها بسكوتي، صمتٌ ضائعٌ كالعبث، ولكن له في القلبين عمل كلام طويل».

كُلما تحدثت عنها أجد تلك الجملة تمر بعقلي مرارًا وتكرارًا، وأتعجب كيف يُمكن أن يمس أحدهم قلبك قبل أن يمس عقلك.

يقول لها:

- ما يمس العقل أولًا ليس حُبًّا خالصًا، بل إنه كذبة صادقة، الحُب هو الخطأ الذي لا تُمانع أن ترتكبه مثلما كُنا أطفالًا لا نُمانع أن نضع إصبعنا في مفتاح الكهرباء.. كبرنا وأصبحنا لا نُمانع أن نضع قلوبنا في هاوية الحُب.. في الاثنين هلاكنا، ولكننا كُنا نظن أن بهما لذة خفية، العقل وظيفته الأبدية أن يُبقيك على قيد الحياة، أن يحافظ على بقائك، أما القلب فوظيفته أن يُشعرك بأنك على قيد الحياة.

انتهى حديثهما بابتسامتها التي كانت تغلبه دائمًا، منذ أعوام صداقتهما الأولى يشعر بأنه يحاول أن يغلب مُعتقداتها السماوية للغاية بمعتقداته الحياتية. لكنه وجد أنه يُهزم لابتسامتها دائمًا.

شعر بروح ورد تحوم حولهما، ابتسم وهو يهمُّ بالرحيل من عِند نورا.. يعلم أنه سيذهب لمنزله.. سيودِّع شبح الماضي قريبًا، لكن هل سيودِّعه شبح الماضي أم سيلاحقه رغمًا عنه.. ما لم يعلمه عاصي أنه يلتصق بالروح ما حيت، كندبة لا يزول أثرها مهما اندمل الجرح.

***

عاد عاصي إليَّ، اتخذني شاهدًا على موعد سرِّي مع مذكرات امرأة تشي بها لنفسها فقط، تُخبره مخاوفها، ماضيها، تخبره عما حل بها من فواجع، عما مسَّ قلبها من حُزن.. عن رائحة اليود التي ما زالت في ورقها منذ أغرقته، عن كحلها الذي لم تستطع ملُوحتي غلب ملوحته على ورقها.

عاد يضمُّ مذكراتها، وكأنه يضمُّ ندوبها، يلمس ورقها وكأنه يمس يديها برفق ويأخذها من الارتجال للحقيقة التي تتهرَّب منها، يحررها من النقطة للفاصلة، يقفز بها فوق حروف الأبجدية؛ ليصلا لأعلى قمم الهمزات.. ليس للنجاة بل للهلاك.. فكُلما ازداد الارتفاع عُلوًّا كُلما ازداد السقوط عمقًا، ولإيمانه بأنه يحرُم على النفس قتل النفس إلا في الحُب والكتابة.. فالكتابة صلاة الروح.. فطالما كانت الأبجدية وسيلته للانتحار والنجاة، ينظر إلى الحروف المحفورة بها «رُبما.. يومًا ما» وهو يُردد «رُبما».. ليبدأ في قراءة ما قد

حان دوره كرجل متمرس يعري أسرار فتاة، ويعلم جيدًا من أين يبدأ كي يكشف ماضيها.

ترك عينيه تغوصان في صورة داخل المذكرات لم يلمحها من قبل عندما كان يتفقَّد المذكرات على عجل.. صورةٌ لطِفل مُعلقة بورقة تضمُّها بين سطورها وكأنها تحميه من السقوط.. كان الطفل له نفس ملامحها.. يملك أنفها ونفس تكوين وجهها، عيناه زرقاوان لا شكَّ أنها تهرب للبحر من شوقها له.. نفس بياض العينين.. عينان كالموج وما يتوسطهما بحر.. يملك غمازتين تجعلانه يبدو أكثر شغبًا.. أستطيع سماع رنة ضحكته، وتخيُّل نبرة صوته الحنون، وغرفته، وألعابه، لأعلم أنني سأندم على ما أنا أقدم عليه، ولكنه عقابي اللذيذ.



(١٦)

عزيزي غيث..

لا أعلم كم قد يكون عُمرك وأنت تقرأ هذه الرسالة؟ لكن عُمرك الآن وأنا أركض فوق تلك السطور لاهثة لأترك لك دليلًا على وجود إمٍّ لك غير تلك التي تظنُّها أمك هو خمس سنوات، تتفجَّر براكين من الحُزن بقلبي كُلما ظننتُ أنك رُبما تلقبها بـ«ماما» الآن.

لكنني في الوقت ذاته أتوسل أن يكون تفوُّهك الرائع لتلك الحروف الأربع له وقع على روحها، فتحسن معاملتك يا صغيري حتى يردَّك الله لي، اشتقتُ لضمِّك إلى صدري، كُنت أشعر بأنني يُمكنني أن أهدم العالم إذا حزنت، وأشيده مُجددًا إذا ابتسمت، أن أعطيك روحي إن مرضت.. لا أعلم ماذا قاله لك وهو يسحبك من عالمي، لا أعلم كيف أقنع روحك الصغيرة بترك «ماما» في فراشها آخذًا حقائبك ولعبك وأشياءك الصغيرة جميعها راحلًا.

رُبما أخبرك أنه سيأخذك لـ«ديزني لاند»، أو رُبما أنه سيُحضر لك الكثير من الشوكولا، أو وعدك بتأخير ميعاد نومك ساعة أخرى.. رُبما أيضًا أخبرك بأنني سأستيقظ لألحق بكما، ولكنني لم أفعل.. وربما أنت غاضب مني الآن.. آه عزيزي لو فقط أعلم ماذا حدث!

لو علمتُ أنني سأفقدك لما مانعت زواجه الثاني، لما غضبتُ

حين علمت أن امرأة أخرى شاركتني اسمه أنا التي لم أحمل منه شيئًا على كُل حال.. لو علمتُ منذ لحظة لقائنا الأولى أنه سيكون نهايتي لما امتثلت له.. لكن نحن لا نعلم النهايات من البداية يا صغيري.

لا أعلم إن كُنت سأكون بالحظ الكافي لأعثر عليك.. لكن إن لم تحدث معجزة ووجدتني أنت بدلًا مني بعد أعوام.. فآمل إن لم أكن على قيد الحياة أن تجد تلك الرسالة، لكن أعلم أنه ليس لديَّ صبر على فراقك.. سأطوف العالم بلدًا بلدًا، مدينة مدينة.. لكن إن وافتني المنية قبل أن أصل لك ولو بشارع، لو ركضتُ أنادي اسمك تحت نافذتك، لكنك لم تسمعني؛ لأنك تضع سماعاتك أو مندمجًا مع لعبتك المُفضلة.. لو علمت الحقيقة قبل أن أخبرك أنا بها فلا تظنني امرأة سيئة، فكُل ما فعلته كان محاولة ألا يأخذك أحد مني.. لم أعلم أنه كان مكتوبًا لنا الفراق، ولكن صدقني ولو علمتُ ذلك لكررتُ فعلتي للمرة الثانية، فحياتك حتى في البُعد عني مع «شريف» هي أفضل مما أنقذتك منه.

سأخبرك بكُل ما حدث منذ طلبت الطلاق فور علمتُ بزواجه.. فأنا لم أمانع خياناته المتعددة لي، لم أبالِ، ولكن تأذى كبريائي كثيرًا حين علمتُ، وكُنت أظن أنه لا يُمكنه تنفيذ تهديد أخذك مني، أقسم لم أجازف بك ولو لوهلة، ولكنني لم أتوقع أن يأخذك ويرحل لبلد بعيد.. حاولتُ الوصول حتى لزوجته السابقة عساها تعلم منزلًا له خارج البلاد، أو أحد أستطيع سؤاله.. كانت تشعر بالشفقة تجاهي وبالسعادة والغضب الخفيين أنه لم يأخذ بناتها هي أيضًا معه أثناء اختطافك، أظنها تساءلت إن لم يكن يحبهم

مقدار حُبه لك.. أظنها لم تعاشره للقدر الذي يجعلها تُدرك أنه لا يُحب أحدًا.. لا يُبالي سوى بمخططاته الخاصة.. لكن للحق هو ليس بذلك السوء، فأنا التي أخرجت منه ذلك الجانب بتمنّعي عنه، لم أكن أريد سواك، فعاقبني بك.. كُنت أنت كُل ما تبقى لي من أهل وولد ووطن، زهدتُ بك العالم فأصبحتُ لاجئة لا أنتمي لبقعة ولا جسد، أصبحتُ أسيرة ذكراك.

غيثي، ملاكِي، وهلاكِي.

أتذكر كيف كُنت أعاني إحدى نوبات اشتياقي لأمي ليضمني أبي فيزداد بُكائي، أتذكر تلك الغصة بروحي حتى الآن.. كُنت أشعر وكأن قلبي يتفتت.. أخبرته يومها بنبرتي الطفولية التي جعلته دائمًا عاجزًا أمام حُزني.. فكان حُزني أكثر ثقلًا مني، أكبر مني عُمرًا وحملًا.. كُنت أجد في عينيه شفقة ممزوجة بغضب خفي.. وكأنني أنا من سرقت عُمر أمي.. لكن وإن فعلتُ صدقني منذ أنجبتك وأنا أعلم أنها فعلت ذلك عن طيب روح، منذ أنجبتك أحببت أمي أكثر، أحببت أبي وجدتي.. منذ ضممتك للوهلة الأولى، وأنا أشعر أنني لم أَلِدْك من رحمي فقط، بل استأصلتُ قلبي ووضعته في جسدك الصغير.. كُلما ظننتُ أنك تشعر الآن كما شعرت يومها، أنك تظن أنني تركتك، آه يا صغيري، تتفتت بقايا قلبي المكلوم، أنا هُنا دائمًا، حولك وداخلك، أقسم أن الصلة التي بيني وبينك لا يُمكن أن يقطعها بلاد ولا حدود.

أشعر بصدري ينقبض حين تمرض.. إنه الشعور نفسه الذي كان يُصيبني قبل أن تمرض وأنت بين ضلوعي.. فأعلم أنك

مريض، وأقضي أيامي في بُكاء وسهر حتى تخفَّ انقباضة صدري، فأعلم أنك أصبحت بخير.

أكتب لك لأنك لست هنا، أكتب لكي تستشعر دفء حروفي، حتى تغفو بين انحناءات أبجديتي مثلما غفيت فوقِ أحبالي الصوتية.. أريدك أن تشعر بحُبي غير المشروط، اللامتناهي، أعلم أنك تشعر بي.

كُنت في الثالثة من عُمرك، وكُنت قد تركتك في حضانة ما لدوام كامل.. وحين وصلتُ وجدت معلمتك تقف ويدك في يدها، وتحمل أشياءك الصغيرة.. تحمل حقيبتك وزجاجتك ولعبتك المُفضلة، وتقفز مكانك حتى وجدتَني أقترب، فركضتَ إليَّ تصرخ حروفك الأربع الذين أصبحوا كُل ما أطمحه من لُغة، أضمك بكلتا ذراعي، بجسدي بأكمله، وكأنني حين ولدتُك نقصت ولا أكتمل إلا بك. لأقول لك بنبرة ضاحكة: أكنت راحلًا وحدك؟

لتقول المعلمة إنها وجدتك تحضِّر أشياءك وتجمعها وتقول: «ماما جاية»، وهي تحاول أن تخبرك بأنني قد أتأخر أكثر، وأن تلعب مع أصدقائك، ولكنك صممتَ، وكعادتك العنيدة يا صغيري أرضختَها لما أردتُ.

فسألتك وأنا أضحك: كيف علمتُ يا بطلي أنني قادمة؟

لتضع يدك الصغيرة على قلبك، وتنظر لي بعينيك الواسعتين: هُنا.

تنتابني الرغبة في ضمِّك والبُكاء كُلما وجدت أي طفل رائع رزقني الله، كُلما تذكرت أنني في لحظة جنون ظننت أنني لن أكون

أمًّا جيدة؛ لأنني ليس لديَّ أي مرجع للأمومة، فإنه شيء لم أعهده أبدًا، ولكن قدر ما سمعت أنه فطري، ويقذفه الله في قلبك.. كُنت أتشكَّك في ذلك أحيانًا، ولا أظنه فطريًّا لتلك اللحظة.. أنا فقط أحببتك، أحببت صوتك الباكي حين نزلت لذلك العالم، أحببت ابتسامتك، وأحببت أول ضمَّة وأول قُبلة من شفتيك.. لم تقبِّل وجهي بل روحي، طهَّرت روحي من الذنوب، وطهَّرت قلبي من المعاصي، وطهَّرت جسدي ممن سواك.

أحببتُ أبي أكثر بوجودك حتى فقدته.. تذكرت أنني كُنت لا أمانع غضبه مني.. ولا أنه يراني خيبة أمله العظيمة، لم أمانع كُل ذلك؛ فقد تأقلمتُ عليه منذ طفولتي، لدرجة أنني أذكر أنني دعوت الله أن يموت؛ لأنني لا أحبه، ولكن الآن وقد استجاب الله لدعائي ها أنا أبكي وأصرخ وأنا أدعو الله أن يردَّه لي ولكن بلا جدوى.

أحببتُ العالم بوجودك وزهدته برحيلك.. سأعيدك لضلوعي أعدك يا صغيري، ولكن لذلك الوقت اشعُر بي في قلبك دائمًا.

أمك.

* * *

كانت تلك آخر أحرف المذكرة، وكأن ليل لم تجِدْ ما يُمكن أن يُقال بعد ما قالته لغيثها، لا يوجد ما يستحق أن يُقال لغيره.. شعر عاصي بدموع في عينيه، وهو يلمس صورة «غيث» في الصفحة المُقابلة.. هو الذي يعلم جيدًا كيف يشعر الطفل بعيدًا عن أمه، يعلم ماذا تحمَّلت أمه؛ كيلا يُعيد أبوه فعلته مُجددًا.. شعر أن ليل ما هي إلا أمه وغيث ما هو إلا هو.. كره شريف كما كره أباه، وتمنى

لو أنه قابله لا لشيء سوى أن يُريه أنه لا يُمكن نهب محبة أحدهم، لا يُمكن اختلاس المشاعر ولا سلب القلب بالعزل، فلا يُمكنك أن تجعل أحدهم يحبك فقط لأنك كُل ما تبقى له، لأنه ليس لديه غيرك.. بل سيكرهك دهرًا؛ لأنك حرمته ممن سواك.

افترش عاصي الرمال أمامي مستسلمًا لفيض حزنه على حكاية غيث وليل، هُزم أمام فيض الذكريات ونظر لي مليًّا.. للحق وجدتُ مشقَّة في التعرف عليه للوهلة الأولى بشعره المُهندم ولحيته التي أفرجت عن ملامح وجهه أخيرًا.. لكنني وجدت مشقة في تقبُّل وجوده دون صوت أم كلثوم.. لكنه رُبما يحاول التخلُّص من طيف ورد.

جلس أمامي، ورغم غياب ورد لكنني شعرت بحضورها رغمًا عنه، رغم تغيُّره الجذري بسبب ليل، كان دخولها عاصفًا استثنائيًّا عصف بوحدته، ومسَّ قلبه رغمًا عنه، ولكن بعينيه تلك النظرة وكأنها ذنبه الأزلي، كما لُعن قابيل في الأرض؛ لقتله هابيل، فقد أصابته لعنة الشتات منذ كسر قلبها.

أخبرني أنه سيُسافر إلى «موركوت» في سويسرا مع بعض من نخبة المصورين العرب، أعرف تلك القرية جيدًا؛ فهي تسلب العقول والقلوب، جنة على الأرض.. فهي بُنيت على تلة شديدة الانحدار على شاطئ بُحيرة «لوغانو» والبحيرة الجليدية في سويسرا.. تُعرَف بأنها «قرية الأزقة الصغيرة»، وبها الكثير من البيوت الأرستقراطية القديمة مع طراز معماري قديم خلاب.

إنها البقعة المثالية لمصور عالمي كعاصي.

كان قد انشغل عن عمله كثيرًا مؤخرًا.. وبعد تحسُّن وضع نورا، وبعد أن قلبت ليل عالمه رأسًا على عقب صار بحاجة إلى الانعزال قليلًا.. بحاجة لأن يفقد روحه في عدسة الكاميرا، في وجوه الناس وملامحهم.. أن يُحضِّر لموسم جديد من المسابقات والأحداث التي لا يجب أن يتخلَّف عنها، فالشهرة فيزيائية للغاية، ما أن تترك مكانك حتى يحل محلك أحدهم، وإن لم يكن شخصًا سيكون ذرات الهواء.. لكن في كل الأحوال لن تترك مكانك للفراغ، فيجب أن تحافظ عليه؛ إذا ما خلقت لاسمك صدى في تلك المجتمعات.

صار يأتي يوميًّا يجلس معي كُل مساء، يرجوني أن تظهر ليل ليراها قبل أن يرحل لفترة ليست بقليلة، رُبما سيختفي لموسم الصيف بأكمله.. كان يعلم أنه لن يستطيع الرحيل قبل أن يودِّعها، قبل أن يضمَّها لصدره كما يودُّ أن يضمُّ أمه.. مشاعره تجاهها أخذت منحنى أكثر عمقًا، أكثر عنفوانًا، أكثر قوةً.. أصبح لا يُمانع فراقها؛ ليقينه بأنهما سيتقابلان مُجددًا، ولكنه يقضي فراقها ينتظرها، يقضي غيابها مع حروفها.

* * *

الآن وقد انتهت أو رُبما هو فقط قد وجدها وسلبها منها قبل أن تُفرِغ كُل ما بقلبها وصار هذا عقابه القدري.. أنه لن يعلم أبدًا بقية القصة.. لكن أظن هي نفسها لم تكن لتكتبها، لا لشيء، ولكن أحيانًا الحقائق تكون أثقل من أن تحملها الأبجدية، ولذلك يأتون إليّ.

إنه من الأسهل التحدُّث إلى الأشياء لا الأشخاص.. خصيصًا

لو لي.. فأنا البحر.. أنا وحدي من أستطيع حمل كُل تلك الأهوال والآلام دون أن أنهار، ولا أبدي لهم أي امتعاض، أحمل أسرارهم في أمواجي، أحملها بعيدًا وأريهم ما أخف وزنها.. هي التي اتخذت رئتيهم محلها، فأفقدتهم القدرة على التنفس بشكل طبيعي، وأصبحوا كأنهم يتنفسون من ثقب إبرة، ولكن ككُل شيء في هذا العالم حتى نحن يوجد منا أنواع؛ أنهار، وبحيرات، وبحار، ومحيطات.. فهُناك أنواع من الأسرار.. نجد أن بعض الأسرار بالخفة التي تجعلها تطفو وتتفتت؛ بسبب الملوحة وتختفي وكأنها لم تحدث، وأخرى أكثر ثقلًا تترك أثرها بي، ولا تستسلم للتلاشي بسهولة.. وأخرى أعلم أننا سنقضي الأبد سويًّا؛ فلا ملوحتي قادرة على إذابتها، ولا هي بالخفة التي تجعلها تطفو، ولكنها تغرق حتى تصل للقاع، وتبقى هُناك تقضي أيامها مع الظلمات حتى يبتلعها النسيان.

وهُنالك أسرار لا أقدر على مُجاراتها، لا أتمكَّن من احتوائها رغم محاولاتي، وعندما تُهلكني أجدني أفيض للخلق مثلما أفاضوا إليّ، ولكنني أشكو لهم، فأجدهم يهرعون ويركضون لكُل صوب وحدب.. لا يستطيعون تحمُّل ما حملتُه عنهم على مدار أعوام حتى إن بعضًا منهم يفقد حياته من هول الحقيقة، لن أنكر أنني شعرتُ بشيء يؤلم، وكأنني رغبت أن أعتذر للأحياء عن ضحاياهم، وللضحايا عن أحيائهم الذين لم يعرفوا قيمتهم قط، وسيثقب ندمهم أرواحهم.. فلكل ضحية منهم قصة معي رُبما ما زالت تطفو، ورُبما ركدت في قاعي، ورُبما كانت أكبر من أن تبقى بداخلي، فلفظتها وبحثت عنها حتى أودت بحياته.

هل من معاشرتي للبشر أصبحت مثلهم أشعر بالندم والألم؟ هل تطورت مشاعري أم إنها لحظة استثنائية ستمرُّ ولا تعني شيئًا على الإطلاق؟ لم أصل لإجابة، ولكنني أعلم أنني سأكتشف حتمًا!

***

قطع تضارُبَ أمواجي تأثرًا بالقمر المكتمل صوتُ عاصي وهو يقول بينما ظل ليل يقترب منا جالسًا بلا حِراك:

- الآن قد اكتمل العالم وليس القمر فقط.

جاء صدى ضحكتها، أظن أنها المرة الأولى التي أسمعها تضحك بتلك النبرة.. هدأ غضبي، وهدأت أمواجي بالتبعية لتجلس بجواره.. ينظر لها مُبتسمًا وهو يتأملها في صمت وكأنه ينبهر بجمالها في كُل مرة يراها، وكأن العالم بأجمعه لم يعهد مثيلًا لها من قبل تنظر له وتُطيل النظر لتقطع صمتهما العذب قائلة:

- لماذا تتطلَّع إليَّ هكذا؟

- أحاول أن أحفظ ملامحك جيدًا.. أحاول أن أحفر تعابير وجهك بذاكرتي، عينك التي تقصُّ ما لن تتفوه به شفتاكِ، ولغة جسدك التي تفضح رغباتك الدفينة، تعبر عن اضطرابك، أتأمل خصلات شعرك المتمردة وأذنيكِ الصغيرتين.. كانت دائمًا تقول جدتي لأبي لأن أذنيه صغيرتين، فلذلك لا يسمع لأحد غيره.. أتأمل محياكِ وأضيع به، بتفاصيله الكثيرة.. أظن قد خلق الله الكون أجمعه في خمسة أيام، ووهب لكِ وحدك يومًا كاملًا لينحتك بتلك الدقة.

تورَّدت وجنتاها، ونظرت لي وكأنها تستنجد بي، ولكنني

الآن وقد رأيتُ عاصي هائمًا بها، متوحد بها، منزوٍ على تفاصيلها الدقيقة.. أستطيع تخمين أنه يحاول إيجاد طريقة يُخبرها بها بإنه راحل للصيف، وسيعود في الخريف رُبما أو على بداية الشتاء مثلما التقيا للمرة الأولى.. لطالما أحب الشتاء، ولكنه الآن لديه الكثير من الأسباب ليبقى مُمتنًا له أبد الدهر.

لا يعلم كيف قد مرَّ ما يقرب العام على دخولها العاصف الاستثنائي لعالمه.. مرَّ بالكثير ورغم قلة حضورها ألا أنها كانت تظهر تمامًا في الوقت الذي يجب أن تظهر فيه.. كانت دقائق حضورها كافية لتغفر أعوامًا من الفراق، كان سطو وجودها له وقعه الطاغي على روحه أقوى حتى في الغياب، فكأنه يمسك بها من كُل الجوانب.

قطع صمتها الصاخب تلك المرة ويقول:

- ليل.

تنتبه له، وتتمدد على جنبها ساندة رأسها على يديها، وتنظر له في استفهام، وبما أنه حاز انتباهها أكمل:

- أنا لستُ من الرجال الذين يأخذون الحُب على محمل الجدية.. لأعوام على الأقل توقفت عن أخذه بتلك الجدية، ولستُ بالسطحية التي تجعلني أقول لكِ إنني أحبك، ولكنني بالصراحة التي ترغمني أن أقولك لكِ إنكِ عصفتِ بوجداني، قلبتِ خريطة عالمي، أصبحتِ قِبلتي، فوليتُ قلبي شطر روحك.. حوَّلتِ مسار قلبي وأخرجتِ الشوك من فؤادي، طهرتِ ندوب الماضي.. جعلتِ صخب العالم يبدو كلحن لهاوزر، لم تخفي حقيقته، بل حولتِه لجمال عريق.. لم تخفي قبحه بل جعلتِه يبدو كحدائق مُغرية من الجحيم،

لم تُغيِّري من تركيب حُزني.. كُنتِ هُنا وحزنتِ معي، فأصبحتُ سعيدًا بصورة يائسة.. لم تخبريني أن الغد سيكون بخير.. وحدك أنتِ لم تكذبي عليَّ، ولكنك مكثتِ معي على مدار شهور.. الآن حتى بغيابك حاضرة.. والآن وقد حان دور غيابي، فأريد أن أعلم إن كُنت سأبقى حاضرًا؟

اعتدلَتْ من جِلستها، وثقل صوت نفَسها.. هي التي لم تكن موفقة كثيرًا في الحُب.. تكبَّدت عناء تخطي أحدهما والهروب من آخر، قبل أن يُصيبها سهم العشق، تنهَّدت وهي لا تعلم أيجب أن تبدأ بالركض منه أم إليه.. لكنها تأملت موجي قليلًا.. أظنُّها تفكر بي أيضًا كحل بديل يُمكن أن تلجأ إليه للهرب.

وجدها عاصي مُشتتة، وهو يعلم ما يجول بخاطرها؛ ليرمي لها ورقته الأخيرة:

- أريد أن أعرف ما هذا الذي بيننا.. حتى لو لم يُكن هنالك شيء أريد أن أعرف.

وضعت يديها على وجهها وهي تقول:

- لا أعلم، أنا لا أعلم.

ساد الصمت قليلًا.. بدأت نوبة من نوبات هياجي غير المبررة، لا أرغب في مشاهدة نهاية تلك القصة قبل بدايتها.. تحركت ليل، نهضت وأخذت تتحرك إيابًا وذهابًا كطفل مُعاقب.. بينما عاصي ساكن يتأملها تارة، ويتأمل دخان سيجارته.. تبدو في عينيه نظرة حقد أن للدخان خاصية التلاشي، وهو مُجبر أن يكون هُنا في تلك اللحظة ليس له مهرب.

في النهاية جلست إلى جواره قائلة:

- هل تعلم كم يكون أنانيًّا الشخصُ المُتعب؟

- لا بأس، فأنا قضيتُ حياتي الشخص الأناني والجاني لا أمانع معكِ أن أكون الضحية.

- لكنني لا أستطيع، لن أتحمَّل خيبة أمل أخرى، ولا أن أكون غُصة بقلب أحدهم، فما زلتُ أُعاقَب على أفعالي لتلك اللحظة.. أنت لا تعلم عني شيئًا.. لا عن حياتي ولا عن الماضي.. لا تعلم من أين أنا، مَن عائلتي.. من أحببتُ ومن أحبَّني، لا تعلم ماذا فقدتُ وماذا انتزعتُ وماذا انتُزِع مني.. لا تقول إنك تُريد أن تعرف ماذا نحن حين أنك لا تعرف حتى من أنا.

- ستُفاجئين من قدر معرفتي بِك.

- ستُفاجأ أنت من مقدار جهلك بي.

- أعلميني إذًا، لديَّ من الوقت ما يسمح للِكِ بإخباري كُل ما لم تخبريني به.

- أنا من ليس لديه الجرأة أن يعترف بكُل ما فعله وكُل ما فُعِل به.. من الأفضل أن تبقى بعض الأشياء خفية؛ فمعرفتها لن تُزيدها إلا قُبحًا.

- لكني أخبرك أنني لن أتأثر بأيٍّ كان ما ستخبرينني به، ليل أنا لن أرحل.

- ألم تخبرني يومًا: «لا تعِدِي أحدهم بما ليس بيدك، لا تعِدِي أحدًا بقلبك أو بما يتعلق بالموت والحياة»؟

يصمت عاصي قليلًا، ثم يقول لها:

- أنا راحل، سأسافر للخريف فقط.. كُنت أودُّ لو أعلم أنني سأعود لأجدك أو حتى في لحظة جنون غير متوقعة تقررين الرحيل معي.. لكن إن كُنتِ تخافين أن تسببي خيبة أمل مُجددًا، فقد سببتِها بالفعل.

أخرجت ورقةً من حقيبتها وقلمًا تكتب له شيئًا، ثم نظرت له في ترجٍّ:

- هذا رقمي، هاتفني أرجوك في غيابك.

- أهذه أنانية المُتعب؟

- نعم، أريدك ولا أريدك.. أنا في منتصف الرغبة، في منتصف الحُب، تائهة بين الوجود والعدم.. قد فقدت الكثير، وكُلما تعلقت بشيء ثكلته.. لا أريد أن أسمح لك بأن تكون نقطة ضعف جديدة لي، ولا أن أسمح للقدر بأن يجعلك خنجري المُحبب الذي سيجد موضعه في ظهري ليخترق شغاف قلبي.. هذه أنانية المرتعب يا عاصي، لأعوام لم أشعر ما شعرت به بجوارك هُنا، لم أشعر بالسكينة التي شعرتها في حضرتك.. ولستُ مُستعدة لخسارة أيٍّ من ذلك.. أقسم ليس لديَّ القدرة على فقدانك ولا على المجازفة بِك، أن أرمي بك في هاوية النصيب، وأنتظر إما أن يجمع بيننا أو يفرقنا للأبد.. لن أعطيه فرصة أن يختار لنا مصيرنا.

نظر في عينيها، وجد دمعةً تحاول أن تجد طريقها على وجهها، ولكن أظن أنه قد تحول مجراها، فأصبحت تصبُّ في قلبها.. اقترب منها يضمُّ رأسها إلى صدره وهو يقول:

- عزيزتي لن أنضمَّ لدولاب هزائمك.. أعدُك، سأكون هُنا

بجوارك تحت أي مُسمى وبأي شكل.

تنهدت وكأنها اكتشفت رئتيها للتو، وتركت العنان لدموع قد أرهقها نزفها وحدها.. وهنا بدأ عاصي في الغناء لها: «الليل وسماه ونجومه وقمره.. وأنت وأنا يا حبيبي هنا».

ضحكت ليل بين دموعها، وأسندت رأسها على ضلوعه مُستكينة.

رغمًا عنه تذكَّر ورد التي أرادت السكينة فقط، ها هو علم كيف يمنح السكينة لامرأة يود لو أنه يمنحها العالم بأكمله، وكانت تلك المرة الأولى التي يغني فيها عاصي لأحدهم «أم كلثوم» وأغنية غير «أراك عصيَّ الدمع»، لأول مرة لا تتمحور حياة عاصي عليه فقط، يحتضن ندوب أحدهم، يقبل بما يريده الآخرون لا بما يريده هو.. يبقى وإن كان ليس بالمكانة التي يرجوها.. وعلى الرغم من كُل شيء لو رأته ورد وهو بين ذراعي امرأة أخرى يغني من أجلها، يضمها ليُريحها لا ليُريح قلبه لأصبحت فخورة به للغاية، سوف تدرك أن غيابها قد جعل منه رجلًا أفضل على الأقل.

* * *

انقضى الليل، لم يتحركا طوال الليل، وكأنهما بعد أعوام قد وجدا مسكنًا أخيرًا لكل منهما.. لا تعلم ليل إلى متى، لكنها لا تُمانع، ولو كان فقط لدقائق معدودة.. مُرتعبة لكنها لا تُمانع أن تدحر خوفها من أجل المكوث في هذا الحيز الضيق، وكأنها أخيرًا قد نجحت في حيازة جزء من هذا العالم.. انقضى الليل وهي تعلم أنها لن تراه لفترة لا بأس بها، تُريد أن تتشبع منه وبه.. لكنها لا

تملك رفاهية الوقت.

عند الشروق تأمَّلها وهو يبتسم، ويعلن نهاية لقائهما.. ابتسمت له وهي تعلم أنه حين يلتقيان مُجددًا رُبما لن يكونا بالمشاعر ذاتها، فلقد نضجت بالقدر الذي يجعلها تعلم أن المشاعر مثل الزرع كُلما سُقي نبت، ولكن أيمكن سقاية الزرع في البعد؟ لا تعلم، ولكنها تودُّ لو تركض خلفه على خارطة العالم.. لكن ماذا لو رجع غيث لمصر في تلك الأثناء؟ لن تستطيع أن تتبع هواها، فتفقد أمل إيجاد غيث.. ستختار أمومتها كما فعلتْ دائمًا.

* * *

(١٧)

برحيل عاصي بدأت رحلة قد حدَّدها القدر كُليًا، لم تكن لتخطر على بال بشر.. سينقلب عالمها رأسًا على عقب في أثناء سعيه للربح.

ما إن خطت أقدامه المطار حتى شعر بأنه يُريد أن يعود، يريد أن يضمَّها مرة أخيرة.. كان يودُّ لو أنها جاءت معه، لو أنهما هُنا الآن سويًا.. يرتاب من حقيقة أنه يُريدها دائمًا.. قطعه عن أفكاره صوت عثمان، أحد أصدقائه من المصورين، التقيا قبل أعوام في إحدى ورش التصوير.. كان عثمان قد وجد شغفه مؤخرًا.. يبدو مُحطمًا، لكن عاصي لم يحاول أن يقترب من ندباته أبدًا.. سأله:

- ماذا تُريد أن تأكل؟ أنا أتضور جوعًا لم أستطع تناول طعام الطائرة كان بشعًا.

ابتسم وهو يردُّ:

- هل هُنالك بشاعة أكثر من مغادرة وطن بعدما بدأت أخيرًا في الشعور بالانتماء له؟

- نعم، يُمكنك العودة له دائمًا طالما انتميت له، ولكن الأكثر بشاعة ألا تجد وطنًا يحتويك، فكأنك مُشرد دائمًا، بلا أهل ولا ملجأ.. لا يُمكن أن يسعك الكون إن لم ينتمِ قلبك لأرض أو لقلب، وبناءً على «أخيرًا» التي تفوَّهت بها فأنت انتميت لقلب بعد

أعوام من اللجوء.

- أي قلب فإنه ليس فقط وطنًا بل أوطان.. إنه ليس انتماءً بل انتماءات، فقد كُنت ضالًا واهتديت.

- لماذا أنت هُنا يا رجل؟ بربك أنت عاشق.. عُد إلى وطنك.

- أنا هُنا لأن الحُب الحقيقي ينمو بالمسافة، بالهجر. أتذكر نزار قباني قال يومًا: «إن لم يزدك البُعد حُبًّا فأنت لم تُحب حقًّا»، أريد أن أشتاق لها كالمجنون هي التي لطالما أفقدتني عقلي، امرأة تطارحني الرقص كما تطارحني الصمت، جاءت مباغتة كل التوقعات.. امرأة مُمكنها مُستحيل ومُستحيلها مُحال.. امرأة لا منطق بوجودها ولا بغيابها، لا تخشى المغيب؛ لأنها تعلم.. ستظهر لتجدني بانتظارها أريد أن أُجَنَّ جنونها.. أن تركض خلف قلبها رغمًا عنها، أن تفقد قدرتها على التحكم به.. أن تغلب مخاوفها بي ولأجلي.

- أنت هُنا لاختبار حُبكما إذًا.

- ليس لي، فأنا لا أحتاج لاختبار لأتأكد من انتمائي لها، فأنا نفيت كُل انتماء ليس لعينيها، كُل سماء ليست غيومها خصلات شعرها المتطاير، كُل أرض لا تمسها قدماها، كُل غلاف جوي لا يحمل في ثناياه رائحتها امرأة يكون الحُزن معها شاعريًّا للغاية، فبربك كيف تكون السعادة؟ فقط هي من تحتاج أن تتيقن من أنه لا يُمكن الشفاء بالفراق، وإنه ليس هُنالك مهرب مني.

- ماذا لو وجدَت مهربًا منك؟

- لن أكذب، ساورتني بعض الشكوك، وشعرتُ بأنني أركض فوق حقل ألغام، وفكرتُ بذلك، ولكنها خسرت الكثير

بالفعل، وما خوفها كُله إلا من خسارة ما بحوزتها.. خوفها الحالي هو خسارتي.. فكُل ما هي بحاجة إليه أن تُدرك أن الخوف هو خيانة للحياة، هو نقيضها.. الخوف هو الموت على قيد الحياة.

- يُمكناك الحديث عنها للأبد، ولكن لأمتلك الطاقة لمواكبتك هذه المرة سأحتاج أن آكل، وأظن أنك لن تجد لك فتاة تلك المرة لتجالسك حتى نعود كعادتك، فإنها تفيض في عقلك قبل قلبك، فما زال أمامنا الكثير من الوقت لنتحدث فيه.

تحركا وهما يتأملان البُحيرة التي تحوط القرية من كُل صوب، يتأملان البيوت الأرستقراطية القديمة وطرازها المعماري الرائع.. يلتقطان صورًا تنقطع لها الأنفاس بعدما استعاد الشجر بريقه من شتاء قارص، وبعدما تنفست الأرض الصعداء، وأزاحت الجليد الذي كان يُغطي أغصانها.. تخلصت من عبئه، وحل الربيع ببدايته الجديدة يُصلح ما فعله الخريف والشتاء، ليأتي الصيف كبطل مُتأخر يتسلم الكرة الأرضية على أتم وجهه، فيجد الشجر بخير، قد لُقحت الزهور، وهاجرت الطيور، وتكاثرت الحيوانات، وخرجت من بياتها الشتوي.

حلَّ الصيف على الأرض مثلما حل على قلب عاصي، فمثلما ألهبت الشمس الأرض ألهب قلبه الشوق، ولكنه حاول تجاهل شعوره قدر الإمكان، أخذ يصوِّر انعكاس البيوت والشجر على البُحيرة مثلما يرجو أن تلتقط عدسة تأثير ليل على قلبه، وانعكاس وجودها على روحه.. لا يعلم كيف يُمكنه النجاة دونها لتلك الفترة.. وبينما يسخر من نفسه قاطعه عثمان، وهو يخبره عن مطعم

صغير مُناسب للطعام والتصوير في الوقت ذاته..

***

ترك «عثمان» يأكل أذنيه بكلامه وذكرياته في ذلك المكان.. قد أخبره عن فتاة قد جاء إلى هُنا منذ ما يقارب سنوات لكي ينساها، ولكنه جاء لهذا المطعم ليأكل ويجرب النبيذ؛ لأن هذا المطعم معروف بنبيذه الرائع، فوجد فتاة سرقت قلبه من اللحظات الأولى، ليبدأ عاصي في الانتباه له أكثر، ويراقب حركة يديه وهو يتحدث عنها، وكأنه ينحتها من الهواء وهو يقول:

- كانت تجلس مندمجة في رواية تقرأها ودخان سيجارتها يصنع أبطالًا من خيالها، وكأنها ترسم بالهواء، كانت ملامحها العربية هي أكثر ما جذبني، كان لديها شامة أقسم لو أنها مُصنفة لكُتب عليها «شامة قسطنطينية جزائرية الأصل.. شعرها الأسود الذي يشبه ليل فلسطين قبل الغارات وجلستها.. كانت توحي بالكبرياء الشرقي المتأصل، ترتدي خُلخالًا عربيًا من الفضة يزين كاحلها.. أدهشتني كُل هذه التفاصيل المُرهقة، لم يبدُ على جسدها أي إرهاق من جمعهم كلهم في ثناياها.. لم أستطع مقاومة سِحرها، شعرتُ بأنها تجذبني لها رغمًا عني، فذهبتُ إليها أحادثها بالفرنسية؛ لتُجيبني بلكنة عربية لا خطأ بها:

- مليح إنه حادثتني أنا بدل ما تظنك أجنبية شي مُتحرش.

سألتها وكأنني أتهرب من اتهامها:

- وددتُ لو أعلم المزيد عن تلك الرواية فقط لا غير، لو كانت أجنبية ما ظنتني مُتحرشًا من الأساس؛ فقط نساء العرب إذا قال

لكم رجل: صباح الخير رميتموه بسوء الظن!

انتقلت للفرنسية، وكأنها تداري خجلها، وتتنصل من عروبتها؛ لأني في مجتمعاتنا الشرقية مُتحرش فكيف لها أن تُحادثني.. أما بالفرنسية فأنا مُجرد شخص فضولي:

- وإن لم تكن مُتحرشًا فأنت أحمق، فلبروست مقولة تقول: «أن تشرح تفاصيل الرواية كأن تنسى السعر على هدية»!

نظرت لها في عدم إدراك، فأعطتني الرواية وهي تقول:

- لا بأس، قرأتُها ثلاث مرات من قبل، أشعر بالألفة كُلما قرأتها.. آمل أن تجد سكونك في أحرفها.

- وكيف أجدك مُجددًا؛ لأطمئنك أنني قد وجدتُ سكينتي بها؟ أعني أظن إنكِ تعلمين مقولة: «أحمق من يُعير كتابًا، وأحمق منه من يُعيده»، وأنتِ أخبرتِني للتو أنني أحمق، فلا أمانع ردَّه لكِ.

ابتسمت وبعينيها بريق أقسم أنه أنار ما ظننته مات بفؤادي، وكأنها أعادت له الحياة مُجددًا، وهي تُمسك قلمها، وتحرر حبره على ورق كتابها برقم هاتفها؛ لتعطيه لي دون أن تتحدث، فقط رحلت وتركت ابتسامتها ورقم هاتفها.

تفاجأ عاصي بدمعة تتلألأ في عيني عثمان وهو يقول:

كانت قصة خرافية، حكاية خارج حدود الكون، لم يكُن من المُرهق أن أكون نفسي معها، كُنت أنا بكُل طهري وخطاياي، بكُل عُقدي ومخاوفي، لم تهوِّنهم ولم تهوِّلهم فقط تقبَّلتهم.. لم أكن أنا، بل كُنت أفضل نسخة يُمكن أن أتخيلها مني، تحررتُ من سجن القبيلة والأهل والدم، وبينما كانت تنازع نفسها بين دينها وبيني اختارتني

وأنا خذلتُها.. لم آخذ بيديها وأهرب بها من العالم ومن به، وأكتفي بها، اللعنة على العادات والمجتمع والدم والأهل، قبيلتي لم تقبل، وأنا لم أحاول كما تستحق، فما زلتُ أهلوس بها من حينها.. في الحقيقة اللعنة عليَّ وحدي، ولسُخرية القدر جئت لهُنا لا لأنساها بل لأتذكرها.. يبدو أنني من بحاجة أن تُصاحبني فتاة حتى نعود.

ابتسم عاصي، ويربت على كتفه ويقول:

- أتتذكر كل تلك المرات التي سافرنا فيها سويًّا، وشغلتُ جسدي عن قلبي، لم تفلح.. فحتى النساء بغيابهن ينتقمن، فلا يُمكن أن تدرك قدر حُبك لهن حتى لحظة الفراق.. حتى وإن حاولت أن تستبدلهن ستذكِّرك رائحة امرأة أخرى كيف كانت رائحتها، لن يتذمر الجسد، ولكن العقل والقلب سيكونان كالهلاك.

- كيف وقعتَ في العشق مُجددًا؟

- حين لم أحاول، ظهرت تلك المرأة من العدم، كُنت في أسوأ حالاتي ولم يتخذ الأمر أكثر من وجودها الصامت معي لأشعر أنني أفضل.. وجدت قلبي يدقُّ مجددًا، وكأنها بلمستها الأولى جسَّت نبضي، وأعادت بشراييني الحياة من جديد، تلك المرأة حياتها مُدمرة كُليًا، ولكنني على استعداد أن أعيد تشييد عالمها، وأصلح كُل ما فسد بقلبي.. زوجها اعتُقِل وطلَّقها، ثم تزوجت وأنجبت، ثم أخذ زوجها ابنهما منها، وهرب خارج البلاد.

ردَّ عثمان بأسى:

- أشعر بالإرهاق.. ماذا لو استرحنا اليوم وأكملنا رحلتنا غدًا؟

ابتسم له عاصي في تفهُّم، وذهبا إلى الفندق، كان مبنيًّا على الطراز اليوناني.. غرفه عبارة عن شقق صغيرة، يوجد بها بار وحمام وغرفة نوم كبيرة تمتلك إطلالة على البُحيرة.. أنشأ عاصي مع البحيرة علاقة صداقة وطيدة حين جاء هُنا من قبل.. كانت ورد هي من اقترحت عليه تلك الوجهة، فكانت دائمة السفر.. كانا يمران بمرحلة سيئة بعلاقتهما، فاشترت له تذكرة طيران، وحجزت له في ذلك الفندق خمس ليال وقالت له:

- أنت بحاجة للابتعاد قليلًا حتى تستطيع أن ترى الأمور بصورة أوضح، وأنا أيضًا بحاجة لأن أتخلص من تأثير عينيك لأقرر.

- لماذا تلك القرية؟ إنهم يتحدثون بالفرنسية وأنا لا أجيدها.

- حتى أضمن وفاءك.

- عزيزتي.. الخيانة الجسدية لا تحتاج لإجادة للغة، هي لغة بحدِّ ذاتها.. لا يوجد أقوى من لغة الجسد، وأنا أجيدها للغاية.

- عاصي يُمكنني أن ألقي بك بين مئات السيدات، وأعلم أنك لن تخونني.. إنما كنت أقصد وفاءك للصمت، للتفكير.. ليس لي.

- لماذا لا تُسافرين أنتِ إذًا؟

- خشيت ألا أعود.

- وما أدراكِ أنني سأعود؟

- على الرغم من حماقاتك، لكنني أعلم جيدًا أنه إذا أنهى أحد منا تلك العلاقة سيكون أنا وليس أنت.

- أذلك من ثقتك بحبي لكِ؟

- بل لثقتي بأنانيتك المُفرطة التي لن تجعلك ترحمني من عذابي، أنت يُمكنك أن تدفعني للرحيل، ولكنك لن ترحل.. ليس لحُبك، بل لخوفك من الحياة بدوني، خوفك من الحياة دون أن تجد من يسامحك على كِبرك، من يغفر لك دون أن تطلب السماح.. هذا سيجعلك تبقى للأبد، إن لم يكن من أجل الحُب فمن أجل المغفرة.. أنت تُحب حقيقة أنني أَلِدُك مُجددًا بعد كُل خطيئة، وحدي أنا من يملك حق الإجهاض يا عاصي، ولكنني لن أجهضكَ.

لتضحك وتلمس وجهه بيدها، وتقترب منه لتقبِّله فيجمع أحرفها وهي تقول:

- يا الله كيف تعصف بنا مشاعرنا لتلك الدرجة من الهزل؟

يهمس لها:

- سأعود.

لتحتضنه وتقول:

- ليتك لا تعود يا عاصي.

ليضمَّها بكلتا ذراعيه ويقول:

- سأنتظر أن تغفري لي، لن يكون انتظاري بلا جدوى.. فأي انتظار أنتِ بنهايته هو غاية.

* * *

في أثناء سفره مُجرد أن اطمأنَّت أنه قد وصل أغلقت هاتفها، لم تردَّ على رسائله، ولا مكالماته الهاتفية، اختفت تمامًا.. شعر بالقلق حتى إنه هاتف نورا، وجعلها تذهب إليها حتى طمأنته أنها بخير،

فقط لا تُريد التحدث إليه، قضى لياليه يتنقل من مكان لآخر، مُشرَّدًا.. أراد أن يسمع صوتها، وكُلما تمنَّعت عنه استوقدت تلك الرغبة في قلبه، حتى وصله صوتها في آخر ليلة هاتفته:

- كيف كانت سفريتك؟
- ناقصة بدونك.
- هل أعجبك الفندق؟
- كان ليعجبني أكثر لو أنكِ شاركتِني فيه.
- سنتحدث عندما تعود.
- ورد، لماذا تفعلين بنا هذا؟ أنتِ تخاطرين بعلاقتنا، أعلم أنني لستُ أفضل الرجال، ولكنني لستُ أسوأهم.. أنا أحبك أليس هذا كافيًا؟
- عاصي كِبرك يغتالني، لا أمانع أن تخطئ؛ فنحن بشر، ولستُ بالسذاجة التي تجعلني أطلب منك ألا تفعل، ولكن حين تُخطئ يجب أن تعتذر، أن أرى الندم بعينيك لأثق بأنك لن تفعلها مُجددًا.. أنا لا أمانع أن تخطئ مئات المرات، وسأغفرها لك جميعها، ولكنني لن أغفر أن تُعيد الخطأ ذاته مرارًا وتكرارًا.. الحُب ليس كافيًا إن كُنت ستطعنني مئات المرات، وتتوقع أنه مثل السحر سيخفي ندوب أفعالك دون أن تحاول حتى أن تُبدي أسفك.
- ورد.. هل تحاولين إخباري بقرارك؟
- أترى؟! وإن كُنت أحاول أنت حتى لم تحاول أن تجعلني أعدِل عنه!
- سأحاول، أعدك.

- عُد يا عاصي، ولكن تلك المرة هي الأخيرة، إن خذلتني لن تجدني مُجددًا.. أرجوك.

يفيق من ذكرياته، فيجد وجهه مُبللًا بالدموع، ما زال يشعر بقُبلتها المحمومة.. بانتفاضة قلبها المكلوم من كِبره.. كان كُل ما هي بحاجة إليه اعتذارٌ عن كُل ما سبَّبه لها، أن يعلم أنه يؤلمها.. أن يعوِّضها عن كُل ما فعله.. تذكر تلك الليلة كان بمعرض دولي، وأخذها معه، فكانت هُناك امرأة جميلة للغاية.. طلبت منه رقمه لتهاتفه في حالة إن احتاجت لمصور محترف لأي ندوة أو مؤتمر دولي.. كانت سيدة أعمال كبيرة، وبالطبع لم يُمانع؛ فهو رجل يعلم من أين تؤكل الكتف.. وجدت ورد في عين السيدة ما هو أكثر من مُجرد عمل، ذهبت إليه، فضمَّها وربت على ظهرها، وهو يُعرِّفها عليها ليقول:

- مدام زهرة، سيدة أعمال.. بالطبع حضرتك غنية عن التعريف، ولكن ورد لا تهتم كثيرًا بمجال التجارة، فلذلك وجب التعريف.

- مدام سابقًا، نلتُ حُريتي أخيرًا.

نظرت لها ورد بريبة وهي تقول:

- أنا لا أفهم كثيرًا بعالم الأعمال؛ لأنه بلا روح، لا أستطيع تخيُّل حياتي فقط مع الأرقام والربح والخسارة.. في كليهما جمال خاصّ لا يُمكن أن تريه إن شعرتِ بالهزيمة.

لتبتسم وتتجاهل ورد لتقول:

- زوجتك حالمة للغاية، لا شك أنك بتلك الرومانسية، وترى

العالم من منظور آخر.

قبّل رأس ورد وهو يقول:

- هي الجزء الألطف من العالم.

* * *

تشاجرا حين عادا للفندق. كانت تلقي ثيابها بغضب، وهي تقول له إن تلك السيدة حرباء، يوجد بعينيها رغبة تجاهك.. اقترب منها وهو يضحك:

- هل اقتنعتِ أخيرًا بأنني رجل لا مثيل له.. وإن كُل من سيراني سيقع بحُبي؟

تبتسم وهي تضع يدها فوق قلبه:

- أنت مراوغ، وتعلم ماذا يجب أن تقول ومتى، فتُطمعهم في قلبك، ولكنني أعلم جيدًا أنه ملكي فقط، لو حاموا حولك لأعوام لن يأخذوا منه ولو نبضة واحدة.

- لماذا تغارين إذًا؟

- لأنني لن أسمح لأحدهم أن يحاول، وأنت لن تسمح لها.

رفع عاصي يده في الهواء وهو يقول مازحًا:

- عُلم ويُنفذ يا افندم.

دفعته بيديها بمزيج من الغضب والمزاح، فوقع أرضًا، وأخذها معه، مرّت الليلة بسلام ظاهري.. لتتخطى لحظات غضبها، ولكنها لا تتخطى أبدًا مخاوفها. ضمّها لصدره ليلًا فينام ولا تنام.. تتأمله وتحاول أن تجد بملامحه ما يُمكن أن تكره، ولكنها لا تجد، فتدفن رأسها في المسافة التي تفصل رأسه عن كتفه وتغفو.

يعلم أن الذكريات ستطارده ولن يستطيع النوم، قرر أن يتحداها ويذهب إلى البار الذي سبق وأخبرَتْه عنه، تذكَّر أنه كان يفكر كثيرًا إذ جاءت إلى هُنا بعدما افترقا، تذكَّر يوم وجد طرْقًا على الباب حين كان يمرُّ بأقصى مراحل اكتئابه، فلم يكن يُغادر فراشه حتى ليفتح.. بعد عِناد الطارق وجده مُحضرًا من المحكمة معه ورق قضية الطلاق، وهو يطلب منه توقيع الاستلام.. رفض حينها استلام المحضر، وقال له أن يذهب لها، ويخبرها بأنه لن يطلِّقها، ستأتي له.. لن تتركه، أشفق المُحضر على حاله وهو يقول له إنه ليس بيده شيء يجب أن يستلمه ويوقِّع.. صرخ وهو يقول: «لن تتركني».. بعد محاولات من المُحضر بإقناعه بالذهاب إلى الجلسة وإخبار القاضي أنه يحبها، ولا يريد أن يطلِّقها اقتنع عاصي ووقَّع بالفعل، ولكن لم تكن قوة بالعالم كافية لإبقاء ورد إذ أرادت الرحيل.. وكان يعلم ذلك جيدًا.

* * *

خطت قدماه للبار، ووجده كما كان لم يتغير مُطلقًا، حتى الساقي.. فقط تجعَّدت ملامحه قليلًا.. تخيَّل لو أن كُل شيء كما كان، لو هاتفته ورد الآن.. لكنه ابتسم.. شعر أنه قد شُفي من وهمها، على الرغم من الذكريات، ولكنه لم يشعر بألم.. شعر بغصَّة بقلبه حين فكر بـ«ليل».. يؤذيه استحواذها عليه، استيلاؤها على قلبه وعقله وجسده..

رغم كل النساء من حوله لم يلقِ لهم بالًا، ولكن فقط وقوع شالها من على كتفها جعل قلبه ينتفض، وجسده يتمرد، وعقله

تذوب خلاياه.. يؤذيه امتناعها عنه؛ لظنها أنه لن يستطيع تقبُّل كُل ماضيها، قطع صوتَ أفكاره رجلٌ في الأربعين رُبما أو أكبر قليلًا، ولكن له جسد رشيق، عيناه حادَّتان وأنفه دقيق.. يبدو أرستقراطيًّا بقميصه المُنمق وحذائه الذي لم يمسَّ أرضًا قبل اليوم، مفتاح سيارته المرسيديس وهاتفه الحديث.. لكن هذا حال أهل سويسرا جميعهم.. قطع أفكار عاصي وتأمله الرجل صوته وهو يقول بالعربية:

- يا رجل لا تعتمد كثيرًا على كونك في بلد غربي لتتحدث عن خصوصياتك بصوت مسموع.

ابتسم عاصي وهو يقول:

- هذا فقط أنا، أنا بذلك الحظ الذي يجعل من بين جميع المواطنين أن يجلس بجواري رجل مُغترب!

ضحك الرجل وهو يقول:

- لا بأس إذا أردت أن تُشاركني ما كُنت تحادث نفسك به، فعلى أغلب الأحوال لن تراني مُجددًا ولن أراك.. لكن أخبرني أولًا كيف عرفت ذلك المكان، إنه ليس معروف بين السُياح.

- يُمكنك أن تقول إنني عشقتُ امرأة تبحث دائمًا عن غير المألوف، لا يُغريها المُتاح.. كُنت أحب وجعي بها، كُنت لا أطمح شفائي منها.

- هل هي من جعلتك تُحدِّث روحك؟

- لو كانت هي لما حادثتُ نفسي، فقد عهدتُ يُتم عواطفي معها.. تعبث بعقلي امرأة أخرى، تجعلني أشعر وكأني مولود

حديث الولادة، يكتشف العالم من عينيها.. يبدو العالم كبيرًا للغاية بين ضلوعها، أجلس معها على طاولة الخيبات نحتسي هزائمنا بينما نأكل ألمنا حتى ننتشي من الأوجاع.. لا أعلم إن كان من المُمكن إصلاح ما فسد بها، ولكنني لا أمانع خرابها.

- لا تتخلَّ عنها، كُنت حُطامًا أنا أيضًا حين ظهرت زوجتي. كُنت قد تزوجت امرأة أحبَّتني كثيرًا ولم أحبها، ثم أخرى أحببتها كثيرًا ولم تُحبني، ولكنني كُنت بالحظ الكافي الذي يجعلني أجرب أعدل وأعظم أنواع الحُب -المُتبادل- كانت هي أيضًا مليئة بالخيبات، أؤمن بأن أعمق حُب سيجدك وأنت في أحلك حالاتك.. لن يجعل الربيع يحل بل، سيجعلك تستمتع بالشتاء.

- إذًا لماذا أنت هُنا؟

- زوجتي كُلما أغضبتها، تجعلني آتي إلى ذلك المكان كأنه رُكن المعاقبة.. أجلس وحدي حتى أستوعب خطأي، فأعتذر لها، ثم أهاتفها أخبرها كم أحبها وكم أمقت فراقها، وإن لدينا حياة جميلة أريد أن أقضيها معها فتغفر لي.

- أستطيع فهمك، مررتُ بمثل هذا الشيء، ولكنني لستُ بذكائك.. لم أعتذر حينما كان يجب أن أفعل.. النساء حين يقعن في العشق يكُنَّ متشابهين لحدِّ الجنون.

- لا أظن ذلك، لكُل امرأة نكهة مُختلفة، حتى نطقها لكلمة «أحبك» رغم تشابه الحروف والنطق، ولكنها تختلف من قلب لآخر.. رغم تشابه الأجساد لكن المذاق مُختلف، لا توجد امرأة بالعالم تشبه الأخرى حتى في عقليتهن لا يحبان أن يرتدين نفس

الملابس حتى لا يتشابهن.. أما نحن فلا نُبالي.. بل يُمكن أن نحتفل إذ حدثت مثل تلك الصدفة.. قدر بساطتهن هو قدر تعقيدهن.. فقط يُرِدْن الحُب والأمان.

- ولماذا فشلتَ سابقًا إن كُنت تعلم كُل ذلك؟

-- بل لأنني فشلتُ تعلمتُ كُل ذلك.

ثم حلَّ الصمت؛ كانا يتكلمان ثم يصمتان فجأة كأنهما يحاولان ألا يقولا أكثر من نصف الحقيقة، ألا يبوحا بأكثر من نصف الألم، يعترفان بنصف الماضي؛ فالكذب أحيانًا ينقذ الحقيقة.

شرب الرجل كثيرًا، ألقى بعقله في هاوية الماضي والذكريات ليجده يخرج هاتفه، يضع بصمته في المكان الخاطئ؛ ليساعده عاصي وهو يقول له:

- اكتب رقمك، أريد أن أراك كثيرًا حين تعود لمصر.

ابتسم عاصي، فأحب لُطف إنه ثمل، ولكنه يُريد أن يقابله مُجددًا.. كتب رقمه وهاتفه حتى يكون لديه رقمه هو أيضًا.. عادا لصمتهما من جديد، ثم سأله كيف سيعود للمنزل إن كان بعيدًا.. يمكنه أن يوصله، ولكن الرجل أخبره أنه لا بأس.. حين تحفظ الأسفلت لا يُمكن أن يُصيبك شيء.. ابتسم عاصي وودَّعه، أخبره بأنه يجب أن يعود للفندق، فلديه يوم حافل غدًا.

قرر أنه سيذهب للفندق مشيًا، تعجَّب من خلُوِّ المكان وهدوئه.. أخرج محفظته وبحث عن الورقة التي كتبت ليل عليها رقم هاتفها، تأملها قليلًا، وبدأ تحدي الأرقام له.. حاول أن يتحجَّج لنفسه بفرق التوقيت، ولكنها مُجرد ساعة لعينة.. تفصل

بينه وبينها ساعة ومئات الأميال والكثير من المخاوف.. في النهاية هاتفها ليلتقطه من ظنونه صوتها على الطرف الآخر:

- كُنت أعلم أنك ستُحادثني.

ضحك قائلًا:

- ما هي مُشكلتي مع النساء؟ دائمًا ما يتوقعن أفعالي!

- نساء؟

- لهذا المكان الكثير من الذكريات، سأقصُّها عليكِ حتمًا عندما أعود.

- كيف كان يومك؟

- عشوائي للغاية، نوبات الحنين تجتاح كُل من أقابلهم، وكأن العالم يتآمر على قلبي بألا يسهو عنكِ ولو للحظات.

- هل تسعى لنسياني؟

- هل تعلمين ماذا يعني أن يُهاتفك رجل فجرًا فقط ليقول لكِ كم يتمنى لو أن كُل تلك المسافات والبوابات والحدود تتبخر، ولا يفصل بيننا سوى حدود الجسد التي رغمًا عنا لا يُمكننا تخطيها.

- لا أعلم فبالنسبة لي هذا حُب.. العاشق هو الوحيد الذي يغلب الوقت، لا يُبالي به.. لا يخضع لقواعده؛ فتوقيته غير مُطابق لتوقيت الأرض، ولكنك أنكرت حُبك في آخر مُقابلة لنا.. فأخبرني أنت ماذا يعني هذا؟

- هذا يعني إنك امرأة تعلم كيف تغلب رجلًا لم يُغلب من قبل.

- لم أسعَ لهزيمتك.

- إن كان مُقابل هزيمتك لي بقاءك فمزقيني، أغلبيني.. أحرقيني؛ فرمادي سأضعه مُجددًا بين يديكِ؛ لتُشكليني كما تشائين.

- ألا تخشى أن أبحث عن رجل يعلم كيف يغلبني؟

- عزيزتي، أنا أستطيع أن أغلبك بلمسة.. سأدمِّر كبريائك بنظرة، سأفجر أنوثتك بابتسامة.. فأنا رجلٌ يعلم جيدًا كيف يغلب امرأة، ولكنني للمرة الأولى لا أمانع الهزيمة.. فالهزيمة أمام عينيكِ انتصار.

- لا أعلم ما الذي يُغريني بك أكثر، أهو غرورك أم تخليك عنه أمامي.

- تعالَيْ، أريدك.

- لن أخبرك كم أودُّ لو أنني أتحدى كُل ما بداخلي وأركض لك، ولكنني لا أستطيع يا عاصي.. أعتذر.

شعر بكبريائه يزأر في تلك اللحظة، لم يستطع المقاومة:

- ليل لقلبك وقت العالم بأكمله، وإن كنتِ محظوظة بالدرجة الكافية ستعودين لتجديني أنتظرك.

- ليس من العدل أن تنتظر.

- ولكنكِ تودِّين لو أنني سأنتظر للأبد، لن أفعل ذلك يا ليل.. سأنتظرك، ولكن فقط حتى تخور قواي، حتى يهلك قلبي من دونك، وإن لم تظهري لي وأنا في تلك الحالة المُزرية سأرحل، ولو جئتِ بعدي مُباشرةً لن أنظر خلفي..

- هل أنت ثمل؟

- بل مُنتشٍ من الذكريات.. هل تعلمين أنه في المكان ذاته

أنا كُنت أنتِ.. وهي كانت أنا؟ لا أعلم أتلك العدالة الإلهية أم سخرية القدر؟ ولكن كُنت أعلم أنها ستنتظر مثلما تعلمين أنني سأفعل، وهذه هي أنانية المُنهك.

- سأهاتفك في الصباح.

- سأنتظرك.

أغلق ووصل إلى الفندق، ليجد هاتفه يرنُّ برقم غير معروف.. ردَّ فوجد صوت مُسعف بعد مُعاناة ليقنعه بأنه لا يُجيد الفرنسية ويتحدث الإنجليزية.. نادى له مُسعفًا آخر أخبره بأن صاحب هذا الهاتف قد تعرض لحادث، وأن رقمه هو آخر مَن هاتفه قبل الحادث.

تذكَّر الرجل الثمل، وهو يطلب منه أن يكتب رقمه.. طلب من المُسعف أن يقول له اسم المستشفى، وهو لا يعلم ماذا يجب أن يفعل، وكيف يذهب، فوجد سيارة أجرة تتحرك.. ركض لها وهو يحاول استبقاء المُسعف حتى أعطى الهاتف للسائق، فتحدثا قليلًا، وهو يشرح له مكان المستشفى حتى وصل إلى هُناك، دخل ليسأل عنه وهو لا يذكر اسمه حتى، بدأ في إخبارهم بأنهم من هاتفوه ليخبروه عن الحالة، فأخذوه إليه، كان في وضع لا بأس به، بعض الجروح الغير مقلقة واشتباه بارتجاج في المخ، تطوع عاصي بتعجيل بعض اجراءات الكشف عليه وعمل الأشعة المقطعية اللازمة للاطمئنان عليه حتى استقرت حالته بشكل كبير.. بدأ الرجل يفيق تدريجيًا من ضعفه.. قال له عاصي وهو يبتسم:

- هل خانك الأسفلت؟

- أخاف أن يخونني العُمر، أريد رؤية زوجتي وابني.. هلا

أخبرتهم أن يتصلوا بهما مُجددًا.

ابتسم له عاصي وهو يقول له:

- هوِّن عليك، أنت بخير.

- ماتت أمي في حادث سير أيضًا، كانت تبدو بسيطة للغاية، وكأنه لم يصبها شيء، ولكن الموت يأتيك بغتة.. يجب أن تكون مُستعدًّا له دائمًا، أرجوك ذكِّرهم.

أومأ برأسه في تفهُّم وهو يتجه إلى الاستقبال يحاول استخدام إنجليزيته في إخبارهم.. وجد امرأة تمرُّ بجانبه وبيدها طفل، وتسألهم بلهفة عن زوجها.. أوقفته نبرة صوتها، خبَّأ وجهه بيده، وأعطاها ظهره، وهو يصارع دقَّات قلبه المتلاحقة..

أخذ يسترق السمع، ويدقِّق في لغتها الفرنسية المُتقنة، وفي مخارج حروفها المُميزة.. تحرك خلفها يلاحقها للغرفة، بينما تلفحه رائحة عطرها التي يعرفها عن ظهر قلب.. حتى وجدها تركض للرجل والطفل كذلك، وتسأله عما به، هل يشعر بشيء؟ هل يؤلمه شيء؟

قال لها إنه بخير وهمس لها: «أنا آسف».. بكت وهو يخبرها إن كان صديقه ما زال هنا، لكنه خرج ليخبر الاستقبال أن يهاتفهم مجددًا.. سألها: هل رأيته؟ ضمَّته، وهي تقول:

- لا أهتم، لم أرَ أحدًا؛ كُنت مرتعبة.

ثم لمح الطفل يبتسم عندما مسَّ أباه شعره، ففكَّر هل يشبه الرجل أم يشبهها؟ كم ودَّ لو أنها ضمَّته هو أيضًا وسألته عما به.. كيف يستطيع أن يشعر بكُل شيء هكذا دُفعة واحدة، يُريد أن يخبرها عن مناطق تؤلمه لم يكن يعلم بوجودها من قبل، وأن تُقبِّلها

له مثلما كانت تفعل.. يُريد أن ينتشلها من ذراع ذلك الرجل.. وفي الوقت ذاته يُريد أن يزرعها فيه، فها هي ورد أخيرًا قد وجدت رجلًا يعتذر لها إن أخطأ، يُحبها في السر والعلن.. رجلًا خاف أن يموت قبل أن يراها.. لكنها كانت مرتعبة حتى إنها لم تلاحظه، لم تستوقفها رائحته؟ وكأنه صار شبحًا لا وجود له.

رحل من المستشفى قبل أن تراه، وهو يتحسس جسده من حين لآخر، كان قد حلَّ الصباح عندما خرج من المستشفى.. وجد الكثير من المواطنين ذاهبين إلى عملهم.. كان يصطدم بهم من حين لآخر؛ ليتأكد أن جسده ملموس ومرئيٌّ.. يتحرك في صدمة، يحاول الركض، ولكن قدميه لا تُساعده.. يحاول الركض من قدَر جمعهما في مدينة لطالما كانت نقطة تحوُّل فارقة في حياتهم، مدينة قطع وعدًا بها أنه سيتغير، ليعود بعد أعوام يجدها بين ذراعي رجل آخر، وفي قلبه امرأة غيرها.. شعر أنه يريد ليل في تلك اللحظة، أن تضمَّه.

تذكَّر تلك الليلة التي اكتشفت فيها ورد خيانته، كان يلحقها وهو يصرخ بها أن تتوقف.. ذلك الجزء من الحقيقة الذي حاول دائمًا إنكاره وتجاهله، الليلة التي أفقدها فيها ما هو أكبر من كبريائها، فعل بها ما هو أبشع من تفتيت قلبها.

كانت تصرخ به أن يغرب عن حياتها، بينما هو يركض ليلحقها.. كانت تبدو ككرة النار التي تحرق الطريق من خلفها، شعر أن أحشاءه تحترق، رجل روحه تغلي لا يعلم هل من ارتياعه من فقدانها، أم إن هذا هو كبرياؤه الذي يغلي؛ لأنه يركض خلفها ولكنه لم يهتم لحظتها؟ بقي يلاحقها حتى أمسك ذراعيها بقوة تليق

بسرعتها وغضبها.. ظلت تصرخ به وتركله، ولكنه لم يأبه بها، لم يشعر بألم في جسده، بل في قلبه، وكأن كل جسده تحوَّل لشرايين تتدفق فقط تجاهها وكأنها مصبه.. يُحكم إمساكها تاركًا إياها تركله، تسبُّه وتلعنه حتى تفرغ بعضًا من غضبها، ثم وضعها بداخل سيارته، وأغلقها وهي تصرخ وتضرب الزجاج بقدمها تحاول الخروج حتى ركب وهو يقود بأسرع ما لديه، يحاول أن يستبدل غضبها بخوف، أي نوع آخر من المشاعر حتى لو كان سلبيًا لتبدأ في الصراخ حتى الانهيار.

– عاصي توقف، سأقفز من السيارة أقسِم.

– لن تستطيعي فتحها، لا تهلكيني وتهلكي نفسك عبثًا.. لن أتركك.

تصرخ به:

– أكرهك، أكرهك.. ألا يؤلمك كبرياؤك لهذا؟

– أنتِ فقط من تؤلمينني الآن.

– أنت مُختلٌّ، معتوه.. مريض، أكرهك.. أنت ستقتلني يومًا ما ثم تركض كالمجاذيب تخبر الخلق أنك متَّ بسببي؛ لأنني قتلتك بموتي.

– كفى، أنتِ لا تفهمين ما حدث.

– لا أريد أن أفهم، أنا أكرهك.

حاولَتْ إجباره على إيقاف السيارة فجأة، فأصبح لا يستطيع التحكم بها، بدأ يفقد قدرته على كبحها؛ لتنقلب السيارة، ثم يفيقِ بعد دقائق أو ساعات لا يعلم، يجد نفسه في سيارة إسعاف على أنفه

جهاز تنفُّس، يقول المسعف أرقامًا كثيرة لا يفهم منها شيئًا وعندما يفيق تمامًا يطلب منه أن يقول له اسمه، سِنَّه.. فيصمت قليلًا يحاول استيعاب ما حدث ثم ينزع جهاز التنفس، ويحاول منعه المسعف، ولكنه ينزعه على كُل حال ليسأله:

- ورد؟

- السيدة التي كانت معك بالسيارة؟

ليومئ برأسه:

- ذهبت بسيارة إسعاف قبلك، كانت حالتها أخطر، ولكن لا تقلق ستكون بخير.

يفقد وعيه مُجددًا، وإذ كُل ما كان هو بحاجة إليه أن يخبره أحد فقط أن كُل شيء سيكون بخير، فبقي على مدار ساعات يفقد وعيه، ثم يفيق، ثم يفقده مُجددًا، هكذا دواليك حتى استقرَّت حالته ليعيش في أحلام لم تتركه فيها ورد، أحلام لم يصِبهما مكروه، في أحلام كم تمنى لو أنها واقعه الذي لن يحظى به أبدًا.

يفيق عاصي في النهاية، ويحدث ما جعله يتمنى لو أنه فقدَ حياته بدلًا من إفقادها رغبتها العظمى في الحياة.

* * *

عاد من شروده اللعين في ذكرى ورد التي طاردته حتى في أقصى الأرض.. افتقد ليل بشدة.. أخرج هاتفه، نظر لاسمها، وأغمض عينيه وهو يتصل بها.. جاءه صوتها الناعس:

- أأنت بخير؟

- لا.

- ما بك؟

- لم أخبرك من قبل، ولكنني كُنت متزوجًا منها.. أحببتها كثيرًا، ولكن ليس بمقدار حُبي لنفسي، اليوم مُصادفة وجدتني أجالس زوجها دون أن أعلم، تحدثنا عنها دون أن نعلم أنها نفس الشخص.. حادثته عنك، وأخبرته أنني واقع في حُبك، نعم أنا عاشق وأحتسى بعض النبيذ، ثم تركته وهاتفتك في طريقي للفندق.. ولكنه تعرض لحادث، كان قد أخذ رقم هاتفي، ووجدت المُسعف يهاتفني، وذهبتُ له لأجدها هي وابنهما يركضان عليه مرتعبين، لا أعلم ماذا أصابني.

لم يتلقَّ ردًّا.. نظر للهاتف، فوجد أنه قد انتهت المكالمة بعد ٤ ثوان فقط.. لم يكن لديه رصيد كافٍ ليُهاتفها، فجلس أرضًا يحاول تمالُك أعصابه؛ ليجد رسالة على الواتساب منها:

- أأنت بخير؟

صمت قليلًا ثم يرسل لها رسالة صوتية:

- فقط أردتُ أن أخبرك أنني أحبك، سأنتظرك دائمًا.

ثم أغلق هاتفه، وهو يعدُها بألا يخذلها، ويعد نفسه بأنه سيهزم هذه المدينة، سيأخذ وعدًا فيها وسينفذه.. ذهب للفندق وجد عثمان أمام غرفته مُتحمسًا ليومهما.. تركه وفتح عاصي الغرفة، ودخل تاركًا الباب مفتوحًا، ليدخل من خلفه عثمان وهو يسأله:

- ماذا بك يا رجل؟ يبدو وكأنك تعرضت للنهب.

ليضحك عاصي وهو يقول:

- بالفعل، تم نهب ماضيي.. تم الاحتيال على أحلامي، لقد

سُرِقت يا عثمان.

بعدم استيعاب قال:

- من؟ وكيف؟ لماذا لم تُهاتف الشرطة؟

- هل يُمكن أن تُعيد الشُرطة أعوامي السابقة التي أضعتها على سراب؟ أنا كُنت أعضُّ على قلبي ندمًا، وكانت هي بين ذراعي رجل آخر.. حتى إن لديها طفلًا.. أتعلم أنها لم تُرِد طفلًا أبدًا؟ رُبما فقط لم تُرد أن أكون أنا أباه، هل أبدو كرجل سيئ يا عثمان؟ أنت تعرفني منذ أعوام، هل تظن أنني كنت سأصبح أبًا سيئًا؟

- أنت لم تكن سيئًا قط، أنت فقط تائه.. مثل أعمى يتحسس طريقه، ولكن ليس على مهل، تتحسَّسه ركضًا، مما يجعلك تؤذي المُحيطين بك.

يصمت عاصي وهو يلقي بهاتفه ومحفظته على المنضدة، يخلع قميصه ويرمي بجسده فوق السرير، طامعًا لا في الراحة، بل في التلاشي.. ييأس عثمان من محاولة الفهم فيرحل.

يتيه عاصي في وجه ليل.. يتذكر رائحتها، يتذكر ورد وتهميشه.. يشعر بأن قلبه ينفلق نصفين، لا لم يعد يُحبها، لم يعد يشتهيها، ولا يشتاق لها.. فقط وجودها أمامه بعد كل تلك الأعوام مع زوجها وطفلها قد أخلَّ توازنه.. قضى وقتًا صعبا حتى استطاع النوم، ثم وجد طرْقًا على الباب، لم يتذكر أن يضع لافتة «عدم الإزعاج» على الباب.. قرر أن يتجاهل الطرق حتى يرحل أو يدخل عامل خدمة الغرف.. لكنه كان مُرهقًا بالدرجة التي تجعله لا يُبالي بهوية الشخص الذي سيدخل الآن.. شعر بأحدهم يقترب من فراشه،

انتفض.. وجد رائحتها قد طغت على المكان.. همَّ من مضجعه لينظر، فيجدها، ثم صمت.

لا يعلم أهي أمامه حقًا أم من وحي خياله.. فتعثر بطيفها كثيرًا أثناء غيابها، فأصبح لا يدري كيف يميِّز حقيقة وجودها من عدمه.. شعر بأنه مؤخرًا بحاجة لأن يتبع إرشادات المرور؛ حتى يتجنب كل تلك الحوادث القدرية.. وجدها واقفة في فستان برتقالي، حقيبتها السوداء التي تتناسق مع حذائها.. كعادتها تنسيق الألوان هوايتها الأعظم، شعرها غجري، ولكن ليس بعشوائيته السابقة، على الرغم من عبثيته، لكنه يبدو أكثر منطقية رُبما أكثر نضجًا.. تبدو عيناها أكثر حدة أو رُبما أكثر تحديًا.. تلمع في يدها دبلة لا تحمل اسمه، تغيَّر جسدها قليلًا، جسدها الذي يحفظه عن ظهر قلب، يعرف أسوأ مخاوفها، وأسرارها الدفينة.. على الرغم من درايته التامة بها، ولكنها تقف أمامه كالغريبة.. يتأمل تغيراتها، وهو يفكر كيف يُمكن أن نصبح غرباء مع من اخترق حدود أجسادنا، مع من سكن قلوبنا، مع من مسَّ أعمق جزء من أرواحنا. وإن نسي العقل كيف ينسى القلب؟ كيف يُمكن أن تكون المسافة بيننا بذلك القُرب، ولكنها تبدو بذلك البُعد. اعتدل في جلسته لتتأمله في صمت.. يبدأ بالهمس:

- أهذا أنتِ حقًا؟

- أتظنني لم أكن لأميز رائحتك وهيئتك.

- ولكنكِ لم تريني!

- عزيزي، هل يجب أن أراك حقًا؟

- ألا يجب؟

- لم يكن الأمر على هذا النحو معنا مُطلقًا.

- لا تقولي معنا، فلا تجمعنا أرض ولا سماء ولا ذكرى لتجمعنا اللغة يا ورد.

ثم وضع يديه فوق وجهه، وبدا وكأنه يتذكر شيئًا مهمًّا وصاح بحزن:

- ورد!! هل تعلمين كم عام مرَّ على تلفُّظي باسمك؟

- أنا لستُ هنا لأحدِّثك عن الماضي.

- لماذا أنتِ هنا؟ وكيف علمتِ بأنني هُنا؟

- الذي جعلك تعتنق مذاهبي تلك السفرية سيجعلك تأتي لذلك الفندق حتمًا.

سألها بتحدٍّ:

- مم أنتِ مُرتعبة لتُخططي لكُل ذلك؟

- تعلم جيدًا أنك لا تُخيفني، أنا لا أخشاك.

كان يبدو عليها الثقة، جلست واضعة قدمًا على قدم، وكأنها في مملكتها.. تعلم أنها في موضع قوة رغم أن ما أتى بها هو ضعفها.

- هل زوجك يعلم أنكِ هُنا؟

- أنا هُنا لأجله.

تصعقه الكلمة.. «لأجله».. يتأملها في صمت لتُكمل هي:

- لديَّ عائلة أحبها كثيرًا، لن أسمح لك أن تُخرِّب حاضري مثلما خرَّبت ماضيَّ يا عاصي.

- ذلك الماضي الذي لم تتكبدي عناء إصلاحه؟

- لا ذلك الماضي الذي حطَّمته أنت بكُل ما أوتيت من قوة وحيل.

- لم تسمعيني، فقط حملتِ حقيبة غيابك ورحلتِ، لم تجعليني أخبرك أنني لم أخُنْك قط.

- هل تظن أن الخيانة هي إتمام العلاقة يا عاصي؟ يا إلهي ألم تنضج مُطلقًا طوال الأعوام السابقة؟ أنا حتى ولو لم أظهر لم تكن لتستطيع أن تخونني يا عاصي.. أعلم ذلك جيدًا.

- ماذا حدث إذًا؟

- أنت ما حدث.

- كيف استطاع أن يسرق منكِ طفلًا؟ كيف استطاع أن يُنبت من رحمك روحًا؟ وهل فعل ذلك بذريعة المعاشرة الزوجية أم ممارسة الحُب؟

- أرحمني بتلك القسوة في نظرك التي تجعله يلفظ روحًا؟

- بل إنني أتذكر ذلك الحادث، كُنت أنا من تلقَّى الخبر من الطبيب يا ورد، عندما رأيتُ ذلك الطفل بين ذراعيك شعرتُ بالغيرة لا عليكِ، بل شعرت أن ذلك الطفل كان يجب أن ينتمي لي.

- الطب تقدم كثيرًا، وإن كُنت تظنه ابنك فأنت أحمق.

- لماذا لم يكن ابني يا ورد؟

- لن أذكِّرك بفعلتك، ولكنني سأقول لك لأنني كُنت مشغولة للغاية في ولادتك كُل مرة، أهلكتُ رحِمي، وللحق لم أكن لأترك ابني يُبتلى بأب لا يعرف كيف يبكي، رجل لا يعتذر.. أنت حتمًا كُنت ستبقى مثله الأعلى؛ لأنك رجل رائع وسيصبح مثلك.. لم

أرِد لطفلي أن يكون بتلك العظمة وبقدر عظمته قسوته يا عاصي.. أن يكون عسلًا مُسممًا يؤذي كُل من يخطو حياته.. أن يقع في شباكه كُل من يراه، ولكنها شباك مسممة ستكون هلاكهم جميعًا.. لا أريد أن أخلق قنبلة موقوتة للعالم، فالعالم سيئ بما يكفي ذاته.

- هل أنا بذاك السوء؟ أي قسوة تتحدثين عنها!

- لم تكن مُطلقًا، أنت مزيج من الأشياء السيئة التي لا يُمكن كرهها مُطلقًا، ولذلك فالخلاص مِنك مُحال عزيزي.. صدِّقني لو كان كُرهك بتلك السهولة لما عانيتُ يومًا، قسوتك تكمن في معرفتك ما يؤذيني.. ولكنك تفعله على كُل حال، ليس لأنك تُريد إيذائي، بل لأنك لا تُمانع إيلامي، وذلك كان أسوأ من تعمُّد الخطأ يا عاصي.

- أكُنتِ معي لأنكِ أحببتني أم لأنك لم تستطيعي كرهي؟

- كُنت معك لأنني أحببتك، فما استطعت كُرهك يومًا.

- وكيف تخطيتِني؟

- في البداية لم أعلم كيف يُمكن تخطِّيك، كُنت وحيدة وحزينة للغاية.. كُنت مُحطمة فتخبَّطتُ كثيرًا. شعرتُ بقلبي يعتصر من الألم، شعرت بروحي تدمي كُلما وجدتُ عنك خبرًا نازعت قلبي ألا يهاتفك ليسمع صوتك فيسترجع نبضه.. في البداية كان كُل شيء في غاية المشقة، ولكن كُلما مّر الوقت تكيَّفت مع صعوبة الوضع، وكُلما تدنَّت معاناتي تدريجيًا، كان الوقت صديقًا رقيقًا وفيًّا حتى وجدتُ زوجي.. مررنا بالكثير معًا.. تحمَّل مخاوفي ومحاها جميعًا، هل تتذكر ذلك القلم الأزرق الذي يمتلك ممحاة؟ كُنت أنت

القلم، وكان هو الممحاة.. لم يفتح معي صفحةً جديدةً؛ لأنه يعلم إن فعل ذلك لن يختفي أثر ما فعلته بي أبدًا، فأصلح التي امتلكها، وبطريقة ما كان ذلك كُل ما أحتاجه. كان يعلم كيف يُصلح كُل ما أ فسدته أنت، لم يُخفِ ندوبي أو يشفيها، بل جعل منها لوحة فنية فائقة الحُزن والشجن.

- كان يجب أن أعلم أنه أنتِ حين قال لي إنه سيهاتفك يعتذر لكِ ثم ستغفرين له، ثم ستكملان حياتكما الرائعة سويًّا، كيف لم أعلم!

- لأنك لم تفعل ذلك أبدًا، فكيف لك أن تتوقع أن كُل ما أنا بحاجة إليه بتلك البساطة.

- أردتُ أن أجدك لأعوام، ولكنني لم أبحث، لم أحاول أن أعثر عليك؛ خشية مواجهة لن أربحها.. كُنت أعلم أن جسدي لم يكن ليتحمل خسارتك وخسارة آخر معاركنا، كان ليُدمَّر كبريائي من هزيمتي، وكان ليتفتت قلبي على فراقك.. كان ليدمى جسدي وروحي.

- لا تدري كم أنا مُمتنة لفعلتك هذه؛ لأنك لم تحاول العثور عليَّ فوجدتُ ذاتي.

نهض ذاهبًا إليها.. تحسَّس شعرها بيده، لتنهض وتنفضه عنها، ثم تقول:

- عاصي، ارحل من هُنا، أنت رحلت منذ زمن فما لبقائك مغزى.

- أنا لستُ هُنا لأجلك، أنا لم أعلم بوجودك حتى.. تكرهين

كبري، ولكنكِ أصبحتِ مثلي، تظنين أنكِ محور الكون.

شعرت ورد بالتوتر، واستحوذ كِبر عاصي على الغرفة، حتى إنه أشعر ورد بضيق في التنفس كعادتها كُلما تعرضت لنوبة هلع.. بدأت في التنفس ثقيلًا، فعلم عاصي تلك الحالة جيدًا، إنها لا تهدأ بسهولة.. يتذكر المرة الأولى التي تعرضت فيها لنوبة هلع.. كانت المرة الأولى تطلب منه أن ينفصلا لبعض الوقت، وعندما منعه كبره من أن يحاول أن يصلح ما أفسده، وأخبرها بأنه القرار الأنسب تعرضت لنوبة هلع بقيت معها ما يقارب النصف ساعة، تخلصا منها بعد صعوبة.

اقترب لها، وهمست له أن يبتعد من بين أنفاسها المتثاقلة، ولكنه تغاضى عن صوتها الواهن، وضمَّها لصدره، للمرة الأولى منذ أعوام يشعر بأنه استردَّ قلبه كاملًا، لم يرتعش جسده للمسها، لم يجد رائحتها رائعة كما كانت، لم يغمض عينيه حتى ليتحسس وجودها بروحه.. ليس لأنها أصبحت أقل روعة من ذي قبل، بل لأنه هو من تبدَّل، بوصلة قلبه تغيَّر مؤشرها، فأصبحت تجاه ليل.

للمرة الأولى لم يشعر أنها تنتمي لضلوعه، وكأنها مُجرد مستأجر قد أعاد ملكية بيته بعدما استأجرها لصاحب العقار الحقيقي.. بقيت تبكي لدقائق بين ذراعيه، همس لها وهو يفرغ آخر ما في قلبه لها، وكأن في تلك الضمة شفاءه من لعنتها:

- هل سيُفيد اعتذاري؟

- مُطلقًا، ولكن عليك أن تعلم أنني مقتنعة بأنني لستُ محور الكون، ولكنني لطالما كُنت محور كونك.

تحرك مُبتعدًا عنها ليرنَّ هاتفه.. ذهب إليه ثم سألها:

- هل هُنالك شيء آخر؟، فمحور كوني يهاتفني.

نظرت له بغضب، ثم رحلت لتركل الباب بقدمها، وتترك رائحتها بذرات الهواء، ولكنه لا يبالي ولو قليلًا، ليبتسم بينما يجيب «ليل»:

- اشتقتُ إليكِ!

- كيف يومك؟

- ليس لديكِ فكرة عن مدى عبثيته، وليس لديكِ فكرة كم أنا حُرٌّ وسعيدٌ وبحاجة إليكِ الآن؛ لأخبرك كم أحبك.. ليتكِ بالجنون الكافي الذي يجعلني أستيقظ على طرقك لبابي!

- ليت العالم باللُّطف الكافي الذي يجعلني آتي لعندك، ولا أجبر على الرحيل.

- يُمكنه أن يكون بذلك اللُطف، فقط لو شاركتِني ما يمنعك.

- بعض الأحمال تثقل إذا تمت مشاركتها، تعوَّد قلبي حمل عبء الماضي وحدي.. لا أعلم كيف أشاركك حزني، ولكن كُل ما يُمكنك معرفته إنه ليس بهين.

- ليل، لا يُمكنني توقع إن لم تخبريني.. فما أنا بمُنجِّم!

- هل تصدِّق بالتنجيم؟

- كذب المنجمون ولو صدقوا عزيزتي.. ولستُ بكاذب، لا أمانع أن أرمي بقلبي في التهُلكة، ولكنني لا أخطو تجاه الهلاك طمعًا في النجاة.. يُمكنني أن أكون أحمق، ولكنني لستُ مُغفلًا.

- عاصي، أنا قضيتُ حياتي أتغافل عن كُل شيء.

- وكيف انتهى بكِ المطاف؟

- ليس بخير.

- هل تنتقمين مما فُعل بكِ مني! لو ترينني أستحق ذلك المصير فافعلي بي ما شئتِ.

- لا أنت تستحقه ولا أنا استحققته، ولكن هذه هي الحياة، عادلة فقط في ظلمها.

- لكنكِ الآن لا تختلفين مُطلقًا عنهم.

- وأنت لا تختلف عني حتمًا، عمتَ مساءً.

أغلقت الهاتف، وتركت عاصي غارقًا في غضبه وفي خيبته.. غارقًا في نفسه، في رائحة ورد التي تسخر منه الآن شاهدةً على خذلانه، على رغبته العظيمة بها، عن حُبه الذي ينهش قلبه.. لا يعلم كيف يقنعها أنه يعلم كُل شيء ولا يُمانع.. لا يُبالي إن طافا الأرض شرقًا وغربًا ليجدا «غيث»، لا يبالي حُبها القديم لليث، ولا زواجها المزيف من شريف.. لا يُمانع.. أراد أن يهاتفها ويخبرها بكُل شيء، ولكنه ترك كِبره يمنعه تلك المرة، تركه عن طيب خاطر.. يجب أن تُعاني قليلًا فقدانه؛ لتشعر بأنها تريد أن تنقذ ما تبقى منهما.

هيمن على عقله بقايا ذكريات الحادث التي حاول مقاومتها كثيرًا، ولكنه تذكَّر ذلك الطبيب الذي ترجَّاه كثيرًا ليخبره عما بزوجته ليخبره:

- مدام ورد مُصابة بما يُسمى «ورم ليفي رحمي».

نظر له عاصي في عدم فهم وعدم استيعاب، ليلحقه الطبيب

من ظنونه ويقول له:

- لا تقلق إنه نمو غير سرطاني، العديد من النساء تُصاب به، ولكن معظمهن لا يعرف أن لديهن أورامًا ليفية رحمية؛ لأنها غالبًا لا تسبب أي أعراض، بل يتم اكتشافها بالصُدفة، ولكن لكونها مُصابة بـه، وقد أدى الحادث إلى مضاعفات، فنسبة فقدان أي جنين مرتفعة للغاية، وقد تصل المضاعفات للعقم.. ننتظر حتى تستقر حالتها لنستطيع التحديد.

- هل أخبرتَها؟!

- كانت تحمل جنينًا بالفعل، عُمره أسبوعان.

صمت وهو يشعر وكأن العالم يدور به..

استسلم للنوم، تركه يهيمن على جسده، شعر به يحتلُّ أطرافه أولًا ثم عينيه.. ودَّ لو أن النوم يستطيع احتلال عقله الذي لا يغفو أيضًا، ولكنه ما لبث أن هرب من واقعه حتى وجده في أحلامه وكأنه مُطارَد.. تلاحقه مخاوفه أينما ذهب.. ليجد رائحتها احتلَّت ذرات الهواء بدلًا من رائحة الماضي التي كانت تتحرش به، وجدها بجانبه، نظر لها فابتسمت بحنو.. شعر بيدها تتحسس رأسه، تمر برفق بين خصلات شعره، وكأنها تمحو بلمساتها كُل ما يؤرِّقه، تتحسس ندوب سهره لأيام، تتحسس ذاكرته وتعرف كُل ما لم يخبرها به.. همَّ بالحديث فأسكتته بلمسة ضاغطة، فأغمض عينيه واستسلم ليديها.. تركها تعبث بعقله كيفما تشاء، تعبث بخارطة المستقبل وجغرافية جسده، تركها كصلصال يتشكَّل للتوِّ مع لمساتها حتى وجد صوت نغمة هاتفه، وجد صعوبة في فتح عينيه،

ولكنه حاول على كُل حال ليأخذ هاتفه ويجد رقم زوج ورد.. يهاتفه ليجيبه:

- مرحبًا.

- أهلًا، كيف حالك الآن؟

- بخير، الفضل لك.. أردتُ أن أشكرك، ولكني لم أجدك، أأنت من الأبطال الخارقين الذين يفعلون الخير ثم يختفون؟!

- أي بطل؟ صدِّقني أنا قد أكون أي شيء، ولكنني قطعًا لستُ بطلًا.. فقد عندما عُدتُ وجدتُ زوجتك وابنك، فلم أستطع أن أقاطع تلك اللحظة الحميمية.

- ستقابلهما غدًا.

- كيف؟

- أريد أن أردَّ لك معروفك، وأستضيفك لفنجان قهوة، ورُبما إن استطعت أخذك إلى جولة لجميع الأماكن السياحية.

- ولكنك مريض.

- سآخذك بالسيارة، لا تخف لم يكن الوضع بذلك السوء.

- وهو كذلك، سآتي لعندك نحتسي قهوتنا، ولكن لديَّ عمل سأنهيه أولًا.

- سأنتظرك.

يتذكر ورد وتحدِّيها له، فابتسم، ونظر بجانبه وهو يهمس باسم ليل ليجد فراغ طيفها، يغمض عينيه مُجددًا يحاول استدعاءها؛ فهو ليس مُغفلًا.. كان يعلم أنها من وحي خياله، ليغفو رغمًا عنه، ويستيقظ صباحًا على ضوء الشمس الذي يعاكس عينيه.. يبتسم

فيشعر أن الوقت يداهمه، يجب أن يذهب مع عثمان ثم إلى لقائه مع زوج ورد، حضر عثمان وعاصي يحضر حقيبته وكاميرته:

- كيف حالك اليوم يا رجل؟ كُنت بحالة مُزرية البارحة.

- كان رأسي طافيًا، شعرتُ بأنني في مكان بعيد لا أتذكر أين، ومررتُ بالكثير من المُصادفات، جميعها تقودني لوجهة واحدة؛ لسبب سأكتشفه حتمًا.

- هل بِك عقل لنحضر الاجتماع أم أعفيك منه؟

- عقل؟!، لو لديَّ عقل ما وقعتُ في تلك الفوضى التي لا أستطيع التحكم بها.

- أي فوضى يا رجل!

- فوضى الروح، عبثية الواقع أسقطتني في هاوية الماضي، ولا أعلم إن كُنت سأخرج منها سالمًا أم لا.

- أأنت في ورطة؟

- أنا متورط عاطفيًا حتى النخاع، ولكنني مُنقاد لطريق لا أستطيع توقُّع نهايته.

- إذًا أنت بخير، فأنت رجل يعيش في الظلام؛ حتى يُنير قلبه طريقه.

- ثم أهلك بسببه.

- لم أعهدك رجلًا تسعى للنجاة.

- فقط التفكير في الهلاك يؤلمني.

ابتسم عثمان وهو يقول:

- صدِّقني أعلم شعورك، ولكنني لو أن لديَّ القدرة على

إرجاع الزمن لاخترت الهلاك على النجاة كُلما سنحت لي الفُرصة.. فأنا قد نجوتُ ظاهريًا، ولكنني هُلكت بسبب كُل ما نجوتُ به.

- هل ما زلت تشتاق لها؟

- أشتاق لنفسي معها، كُنت أكثر حُرية.. كُنت سعيدًا، لا أتذكر الكثير من المواقف أو التفاصيل، فقط أتذكر المرة الأولى التي أضحكتها، والمرة الأخيرة التي أبكيتها.. كانت عندما تضحك تكون كالشمس، وحين تبكي تصبح كالقمر، مع أنهما يُنيران العالم بنورهما، ولكن كان يغلبهم الكسوف والخسوف أحيانًا، كان يُخيِّم على العالم الظُلمة حين تحزن، وتشرق الأنوار مُجددًا برجوع بسمتها تدريجيًا لمحياها.

صمت عاصي، فلا جلَد له على المواساة.. ليس لديه سعة للحديث حتى، أضرمت النار في قلبه، فشعر بأنها وحدها من ستستطيع أن تهدّئ ثورته، من يمكنها أن تُخمد حُزنه.. يريد أن يحادث نورا ليقصَّ عليها كُل ما حدث مؤخرًا، وليطمئن عليها، يعلم أنها خضعت لأكثر من عملية، وكان يهاتف والدتها باستمرار، ولكنه الآن يُريدها بكُل ما به من أنانية، يُريد رفيقته التي يُمكنه أن يرمي بداخلها كُل ما يؤرقه، يشتاق لصوتها ونبرتها الضاحكة حتى تلك التي تسخر من آلامه كانت تهوِّن عليه بطريقة ما.

* * *

وجده عثمان تائهًا في رأسه، أجَّجت نار الاشتياق قلبه.. ألقى عثمان نصف نظرة على وجهه المشوَّش المُضطرب ليربت على كتفه في

صمت.. ابتسم له عاصي دون أن ينظر إليه تمامًا، ثم رحل عثمان ليترك عاصي وحده أمام هاتفه، بين ثلاث نساء، واحدة تمثل له الماضي، أخرى تمثل له المُستقبل، وواحدة تمثل له الماضي والحاضر والمستقبل.. ليبتسم ويهاتف نورا، ليجد صوتها وهي تضحك وتقول:

- اشتقتُ لك!

- نوري، تتذكرين ذلك الكتاب الذي قضيتِ أعوامًا من عُمرك لا تقرئين سواه كان به مقولة «إن الأرواح كعيسى، ولكنها بعد حلولها في الأجساد يكون نفسها جرحًا تارةً ومرهمًا أخرى».

- أجل.

- لماذا كُل أنفاسي جروح إذًا؟

- عزيزي كُل عاشق يأخذ ما يُناسب ندوبه، فما أسمعه أنا صوت انفتاح باب الجنة يُمكن أن تسمعه أنت صوت انغلاقها.. قرأت البارحة اقتباسًا رغبتُ لو أنني أيقظتك لأقرأه لك لولا فروق التوقيت، فلم أستطع النوم حتى تحادثني.. اسمع:

«دائمًا أقول لنفسي: أين كانون النار هذا؟ المحترقون في العالم من هُم؟ وكان جيَشان نفسي وخفَقان قلبي.. يُدحرجني من سرٍّ إلى سرٍّ آخر.. في مُختلَى ذهني طُغيان فكري أبعد هدوء الخيال وراحته عن وجودي. أريد أن أكون إلى جانب الموجودات الخارجية، أخرج من الفضاءات القريبة، وأعرج إلى السماوات، وأنزل في القمر وفي النجوم وفي الهدوء المُحبب لذلك المكان أنشغل بسير الأبدية.. ولكن هذه جميعًا كانت أحلامًا لذيذة إلى أن طلعت شمس روحي

في سماء حياتي المظلمة»[1].

- ظهرت ورد مُجددًا، ولكنها ظهرت كزوجة وأم.. ولا أعلم كيف انتهى بي السبيل رفيق زوجها، ليل تقاوم حبي، وأنا أقاوم مقاومتها لي.

- ليل لا تقاومك، ليل طير لا يلتقط كُل حبة.. كُل ما عليك فعله هو ألا تكون مُجرد حبة ستضمن نجاتها من الوحدة لدقائق لتتركها تتضور اشتياقًا لما تبقى من عُمرها، بل عُشّ سيؤويها دائمًا.

- لماذا لم تنصدمي مما أخبرتُك به عن ورد؟

- لأنني أعلم.

- تعلمين كيف؟

- أنا أعلم لأنني لم أنقطع عنها أبدًا، هي تهاتفني باستمرار؛ لتطمئن عليَّ من بعد الحادث، فأخبرتني عما حدث.

- أكنتِ تعلمين أنها تزوجت، وأصبحت أمًّا ولم تخبريني!

- كُنت أعلم ولكن...

- نورا، على مدار أعوام كُنت معك ندمًا عما فعلته بها، ندمًا على ذلك الحادث الذي كانت هي ضحيته الوحيدة.. حين ظننتُ أنها فقدت أعظم حق لها، كُنت أغرق يوميًّا في الندم، وأنجو لأغرق مُجددًا، وكأنه عقاب لن ينتهي، حاولتُ الوصول إليها، ولكنها كانت قد اختفت، وحدك تعلمين لو أنني تحدثتُ لأضرمتُ النار في هذا العالم من كبر ما كان بداخلي تلك الآونة، ولكنك على الرغم من كُل ذلك آثرتِ الصمت!

(١) كتاب «مولانا جلال الدين وشيخه شمس التبريزي» - عطاء الله تدين.

- عاصي، لم أكن لأرتكب خطيئة فضِّ العهد.

- ماذا عن خطيئة الكذب؟ ماذا عن الخذلان الذي أشعر به الآن، ألا يُحتسب خطيئة أيضًا؟

- كان يجب أن تدفع ثمن خطاياك!

- منذ متى نصَّبتِ قلبك إلهًا يعاقب ويُثيب؟

- منذ أن نصبتَ نفسك قديسًا لا يخطئ.

حلَّ صمت الخذلان، صمتت نورا وصمت عاصي، بينما يدور بينهما الكثير من النزاعات الصامتة، الكثير من العتاب الخافت، يفضِّلان الصمت على التفوُّه بما لن ينسياه أبدًا.. يشعر بغليان في دمه، لماذا هو هُنا والآن؟ لماذا اكتشف كُل تلك الأشياء؟ لم يكن ليخطر له ما يمهده له القدر.

أغلق معها فوجد زوج ورد يهاتفه:

- مرحبًا، متى سأنال شرف زيارتك؟

- إن كُنتَ متفرغًا فالشرف لي؛ لأشرب قهوتك الصباحية.

- بانتظارك إذًا، سأرسل لك الموقع.

- وهو كذلك يا صديقي.

أغلق وهو يشعر أنه تم التلاعب به لفترة لا بأس بها، يعلم أنها لن تمر مرور الكرام، سيعزف على أوتار مخاوف ورد لينتقم من أعوامه المُهدرة على سراب.. سيأخذ لها صورة بكادر قد تُسجن بداخله للأبد ما سُجن داخل ذنبه منذ أن اختفت.

إذًا ليبدأ العبث.

وصلته رسالة بها الموقع، ولحقتها رسالة يقول فيها زوجها: أنتظرك.

ابتسم بحقد لن يقدر على إخفائه.

وصل إلى وجهته، بيتًا كالقلعة، طراز عتيق للغاية على سفح جبل يبدو أسطوريًّا، وكأنه ينتمي لأسرة حاكمة من عصر ما.. عاصي يؤمن بأن البيوت كساكنيها، تأخذ من روحهم.. هُناك بيوت تفتح لك قلبها، وبيوت تفتح لك غرفًا من الصقيع القابع في جدرانها، تفتح لك أبواب وحدتها، وهذا البيت ليس بالدفء المُدعى، هذا البيت به الكثير من الأسرار، الكثير من الخبايا.. يكاد يُجزم بأن بكُل ركن سُمًّا ملكيًّا سيودي بعلاقتهما إن احتسى أحدهما جرعة الصراحة وواجه الآخر.. اقترب أكثر فأكثر، فوجد البوابة تُفتح له على مصراعيها، ولوهلة تخَيَّل أنه رُبما استقلَّ آلة زمن، وعادت به لزمن قد حاول الهرب منه بما أوتي من عزم، ولكن لا مهرب، عليه أن يستعد للمُبارزة، أن يحمل سيفه ويقطع الماضي بالحاضر، أن يقطع الخطيئة بالطهر.. أن يقطع ورد بليل، ويقطع ماضيهما بحاضرها.

وصل إلى مدخل القلعة، ليجد زوجها ينتظره، وقف مُبتسمًا.. يبدو عليه الألم قليلًا، ولكنه حتمًا رجل قوي يقف شامخًا متجاهلًا كسوره الداخلية والخارجية.. بدأ عاصي بالاقتراب مع ابتسامة خفيفة يعلم أنها ستكون بداية مغامرة، وأنه لن يخرج من تلك القلعة كما دخلها، على الأقل لن تكون هي كما دخلها، رُبما سيكون هو سُمُّها الملكي.

- عاصي، مرحبًا يا رجل.. وأخيرًا قررت أن تهلَّ علينا... لا أعلم ماذا يجب أن أسأل وما الذي أريد أن أعرفه عنك تحديدًا،

ولكنك رجل مُثير للاهتمام، وليس من السهل أبدًا إثارة فضولي للحق.

هلَّت رائحة ورد تسبقها، حتى تظهر حدود جسدها، ليقول عاصي ساخرًا بنبرة جادَّة للغاية:

- نعم، غريب كُلٌّ منا عن الآخر، ولكننا متعارفان تمامًا.

- أشعر وكأنني أعرفك من مكان ما.

- أجل، من الماضي.

- كيف؟

تجحظ عينا ورد وهي تقترب من زوجها.. تبتسم لتهمس له بينما تلمس يديه: «شريف يا عزيزي، الفطور جاهز».

- يقبِّل يدها وهو يقول:

- ورد.. هذا عاصي.. الغريب الذي أصبح صديقي بين ليلة وضُحاها.

يقترب لها عاصي، يلمس يدها فتشد على يده، ليبتسم رغمًا عنه وهو يقول:

- أشكرك على الفطور مُقدمًا مدام ورد، تشرفتُ بمقابلتك.

تبتسم له في توتر لم تستطع إخفاءه، فيتحرك نحو الطاولة يتبعها زوجها.

ينظر للطاولة ويجد فطوره المفضل «شاي» و«بيض بالطماطم» وبعض الجبن.. ينظر لها بتعجُّب:

- أأنتِ ساحرة؟

تردُّ عليه دون أن ترفع عينيها:

- لماذا؟
- كيف علمتِ أنني لا أحب القهوة وأفضِّل الشاي؟
- لم أعلم، فقط لم أعلم قهوتك، فقررت أن أسلك الطريق الآمن.. أعني من الذي لا يُحب الشاي؟!
يقترب شريف من ورد وهو يمسك يدها ويقول:
- ولكن هذا لا ينكر أنكِ ساحرة بالفعل.
يبتسم عاصي فيسأله «شريف»:
- أأنت متزوج؟
- كُنت، ولكنني لم أكن موفقًا كثيرًا.
- ألن تُعيد الكرَّة؟
- قريبًا للغاية.
ترتبك حركات ورد كلما تطرقت المواضيع للماضي.. أُكمل شريف إرضاء فضوله:
- ماذا تفعل هُنا من الأساس؟ بجانب إنقاذك للغرباء!
- كفى يا رجل، لم أفعل شيئًا.. كُنت هُنالك بصورة قدرية للغاية فقط.. أنا مصور إن سمحت لي بالتباهي.. مصور عالمي.. وأنا هُنا لبضعة أشهر.. لديَّ مشروع أعمل عليه أنا وأحد أصدقائي.
- لا تقلل أرجوك مما فعلته.. اسمح لي أن أصطحبكما لأفضل الأماكن إذًا، الأماكن التي لا يعرفها سوى المواطنون.
- سيكون من دواعي سروري حقًا، سأخبر عثمان رفيقي بذلك حتمًا.

***

يدقُّ هاتف «عاصي» ويُضيء باسم «ليل»، فيبتهج وجهه، ثم يعتذر ناهضًا.. تنظر ورد بفضول ممزج بغريزة حُب التملك والغيرة، ليبتسم شريف وهو يقول:

- أظن أن «قريبًا للغاية» هي من تحادثك.

ابتسم عاصي وهو يستأذن بالنهوض ليُجيبها:

- اشتقتُ لكِ.

تحرك مبتعدًا، شعر أن جدران الكذب تخيِّم على شرايينه.. أو أن طهارة ليل لا يجب أن تُدنَّس بأرواح ضحايا تلك القلعة، هنالك شعور دفين يجعله مُتيقنًا أن تلك القلعة أقيمت فوق ضحايا «شريف»، فوق «صمت» ورد.. صمتها الذي هو أبشع جريمة يُمكن أن ترتكبها، فمهما مرَّ من وقت، ومن فرقة فهو يعلم ورد كما يعلم خطوط يديه، من عينيها يفهم شعورها.. هي تُحب زوجها، ولكنها مُجبرة على الكثير من الأشياء معه، وامرأة مثل ورد لا تصمت إلا إذ ارتكبت خطيئة، أيًّا كان حجمها، يكبِّلها ضميرها.. يذكِّرها دائمًا بما فعلته كُلما همَّت بالاعتراض، وكأنه يسلب منها حق الحُرية، ويخلق بها نزعة التبعية والاستكانة. تلك فترة هدوء ما يسبق العاصفة.. ستتمرَّد قريبًا خاصةً مع رؤيتها له.. ستستحضر أي امرأة كانت وأي امرأة أضحت.. ستختار نفسها مُجددًا.

جاء صوت ليل وهي تقول:

- أتعلم تلك الخرافة التاريخية عن القمر والشمس؟

ابتسم وهو يهمس:

- أنيريني بها.

- تقول إن الشمس والقمر كانا حبيبين واقعين في غرام أحدهما الآخر، ولكن لم يستطيعا البقاء سويًا؛ بسبب اختلاف توقيتهما، ولذلك خُلق الكسوف، كمُساندة من الأرض لهما، فتكسر غيابهما كُل حين وآخر، فيتعانقان.

- أظننا الأرض ولسنا الشمس والقمر في تلك القصة، وإن الكسوف هو ما يحدث بفراقنا.. بحلوله تهبُّ العواصف، وتنفجر الحمم والبراكين، تحدُث الفيضانات.. بفراقنا يختلُّ التوازن البيئي، الآن العالم بأجمعه في ظلام دامس؛ لأنكِ لستِ هُنا ولا أنا هُناك.

- يكفي إذًا، ليحلَّ الصباح.

- يكفي أن تحلِّي أنتِ لتنتهي الحروب ويحلَّ السلام على عالمي، أن يُنير ضوؤكِ ظلمات الندوب، أن تمحو نبرة صوتك أصوات الشياطين التي تعبث بعقلي، يكفي للغاية أن تحتل ذراتك الغلاف الجوي ليصبح العالم مكانًا يستحق الوجود من الأساس.. أترك لِلَمْسَتك زمام أمور روحي.. أنتِ حقي وحقيقتي وحقائق الكون الخفية، أنتِ الليل الذي يستر من العين، ولكنه يكشف الروح، أنتِ ليل المخاوف، ليل الماضي. تستطيعين أن تستريَ عورة الألم.. قبلك كُنت فارغًا تمامًا، قلبي مُشرع، ولكنه غير مسكون.. كُنت مُجرد استراحة لطيفة للغرباء، يحجزون ليلة بين ضلوعي، ثم يأخذون بقاياهم صباحًا وهُم يلملمون أشلاء أجسادهم المُرهقة، يلملمون آخر ذرات شهواتهم، يلبسون ما قد يستر عن أعين الناس ما أصاب أجسادهم.. لم أكن رقيقًا معهم، ولكنني لم أكن بالقسوة التي تمنعهم من اللجوء لي كُلما كانوا بحاجة لمسكّن يضم خيباتهم،

كُنت أخاف كثيرًا من أن أقضي حياتي مُجرد «مضيف»، كُنت أشعر بأن البُقع الداكنة في روحي تزداد دكنًا كُلما مرَّ على روحي خلق جديد.. وكأنني أستخلص ندوبهم، وأحتفظ بها لنفسي كجائزة، آلمتني كُل الحقائق التي سقطت في قاعي، وكأنني صعقني البرق، ولكنه ليس بالبرق الذي يُمكن أن تعلم بوجوده حقًا.. أنت تكتشفه في ثناياك، عندما تمسُّ رمادك فتعلم أنه تم صعقه.. استنزف كُل شيء سلامتي العقلية، ولكنك أنتِ الحقيقة الوحيدة التي لا تؤلم.

- ولكنك لا يُمكنك أن تعلم عُمق الحقيقة الفعلي، فالحقيقة مثل مُثلث برمودا يُمكن أن تضيعك بداخلها، وتشعر أنك قيد الوصول، بينما أنت مفقود في هاوية الوهم، ولا خلاص لتحليقك سوى تحطيمك.

- تحطيمي بكِ هو إعادة لتشكيلي من جديد، هو فرصة للخلاص مما أجبرتني الحياة أن أكونه.. الأمر أشبه بأن تُكسر عظامك؛ لتُعيد تشكيلها بشكل يليق بك، مثل أسطورة المستذئب كُلما اكتمل القمر اكتمل ألمه لكي يصل إلى أكثر طور حقيقي له.

- لكن يكتمل القمر لليلة واحدة فقط.

- لأن العالم هزلي للغاية، لن يستطيع تحمُّل هذا القدر من الحقيقة يوميًّا، أما عن عالمي فقمري مُكتمل ما دام هلال وجهك يسطع كُل يوم.

- وكم من الحقيقة تظن أنك تستطيع أن تتحمَّل؟

- سأبهرك صدقيني.

- عاصي؟

- يُمكنك أن تسأليني عن الأشياء التي لن يؤذيكِ معرفتها.
- الأمر مُعقد، وهُنالك الكثير من الأشياء المُستعصية على فهمي.
- ما يرفض استيعابه العقل هو استكانة للقلب.
- ولكنني أُفضِّل أن أُقتَل بالحقيقة على أن أستكين بأكذوبة.
- هذه أعظم الأكاذيب صدقًا عزيزتي، لا أحد يُفضِّل أن يسقط سقف أوهامه فوق قلبه.. لا أحد يفضِّل أن يبقى تحت أنقاض الحقيقة، أن يتحول لرماد، ويحترق بآخر أمل له في النجاة.. ولكنه لا مفرَّ من ذلك، لا أحد يفضِّله، ولكن لا مهرب منه.. إنه ليس خيارًا، فالكذب ينكشف يومًا طالت المدة أو قصرت سيتم كشفه.
- عدني ألا تحرقني حقيقتك.
- عزيزتي، أنا رماد.. لا يُمكنني الحرق ولا الاحتراق.

يتذكر ورد، أسيحرقها قليلًا؟ ألديه القدرة الفيزيائية لفعل ذلك من الأساس؟ يقطع مكالمته صوت طفل ينادي على اسم «باتشو»، ينظر خلفه، فيجد كلبًا ينبح من على بُعد كان قد أزعجه نباحه مرارًا.. لكنه يعلم أن ذلك طبيعي؛ فهو غريب بالنسبة إليه، لكن نباحه تغيَّر عندما سمع صوت الطفل، أصبح أكثر حنانًا.. إذ يظن عاصي قد يصيب صديقه الصغير بسوء ذهب خلف الصوت، فلم يستطع كبح فضوله من رؤية ابن ورد وتأمُّل ملامحه.. ولا منع نفسه من لمسه.. هل يملك جِلدها، عينيها، ملامحها.. أم ملامح شريف زوجها؟ ليتحرك تجاه الصوت قليلًا بقدم مترددة، لم يظن أنه قد تكون مقابلة طفل صغير بتلك الصعوبة والهيبة حتى وصل

إليه.. ابتسم له الطفل:

- أأنت بطل أبي؟

ابتسم عاصي له ويقول:

- أتؤمن بالأبطال؟

- نعم، أخبرتني أمي أن ليس كُل الأبطال يرتدون عباءة ولباسًا.. هُنالك بعض الأبطال يرتدون ثياب عمال النظافة ورجال المطافئ أيضًا.

ظل يقول «و... و...» وهو يفكر من يُمكن أن يلقب بالأبطال أيضًا، ليقطع عاصي تفكيره وهو يجلس على ركبته أمامه:

- هل تعلم أن الأمهات بطلات أيضًا؟

- أخبرتني ورد بذلك يومًا.

- ماذا أخبرتك «ورد» أيضًا؟

- أنه يجب أن أكون بطل من لا بطل لهم، أن أساعد الجميع.

- ولكن هذا حمل كبير للغاية، لا يُمكنك أن تكون بطل الجميع، ولكن تذكَّر دائمًا أن تكون بطل نفسك، هذا شيء لن يستطيع أن يفعله أحد من أجلك.

- هل أنت بطل نفسك؟

- أنا عدوٌّ نفسي الأعظم.

- كيف ذلك؟

- صدقني أنا نفسي لا أعلم كيف حدث ذلك، ولكنني عندما تعمقتُ في أحداث حياتي السابقة، وجدتُ أنه لم يؤذني أحد سواي.

- هل قفزتُ من فوق تلة عالية، فتأذَّت قدماك؟

- قفزتُ من أعلى غيمة الوهم، فتأذَّت روحي.

- هل تنزف الروح دمًا كالقدم أيضًا؟

- تنزف نفسها، وكأنها مثل بالون الماء، تتسرَّب من روحك بقاياها، فتجد فقط بالونًا متهلهلًا لا يكون إلا جسدك.

- ولكنني أتخلص من البالون عندما يُصيبه ذلك، تقول ورد إنها «تلفت»، وتنفخ لي واحدة أخرى، لماذا لا تتخلص من روحك وتنفخ روحًا جديدة؟

- لأنه لا نستطيع أن نستأصل ما يُفسد بداخلنا، ونستبدله بواحد جديد.

- ذلك ما أخبرتني به ورد عندما أخبرتها أنني أريد أخًا.

- لماذا تُريد أخًا؟

- حتى ألعب معه، أشعر بالوحدة كثيرًا دونه.. لو كان هُنا لاستمتعنا كثيرًا؟

- كيف لك أن تتصور ذلك إن لم تحظَ بأخ أبدًا، لا يُمكنك معرفة الشعور إلا عندما تمُر به.

- بلى، يُمكن أن أتخيل.. أخبرتني أمي أنني يكفي أن أتخيلها لتكون معي، لذلك لا أفتقدها كثيرًا.. بل أفتقدها للحق، ولكنني أعلم أنها هُنا دائمًا.

تقطع حديثهما ورد بصوت فزع:

- عزيزي غيث، متى استيقظتَ، وكيف لم ترتدِ ثيابًا أثقل ستُصاب بالزكام.

ليتوقف عقل عاصي لوهلة، ويتحرَّش اسم غيث بعقله..

يتذكَّر صورة غيث المُلصقة في مذكرات «ليل».. الطفل يشبهه مع فارق العُمر، نفس الغمازتين، العينين الزرقاوين.. انتبه عقله فجأة لقوله «ماما»، ثم «ورد»، وكأنه لا يُشير لها، وتذكَّر صوت ورد وهي تقول: «عزيزي شريف».

تشتت عقله وصورة «ليل» قد اقتحمت عقل عاصي، ثم اختلَّ توازنه، وهو جالس على ركبته حتى جلس كُليًّا على الأرض.. ليسمع غيث يُخبر ورد:

- قابلت بطل أبي.

- لماذا لم تأتِ لي عندما استيقظت؟

- استيقظتُ على صوت نباح «باتشو»، ظننتُ أصابه مكروه.

- لا يُمكن أن يُصيب أي فرد منا مكروهًا في حدود ذلك البيت يا صغيري، لا تخف.

- وماذا عن خارجه؟

- لا يُمكن أن يؤذيك أي شيء تحت أي سماء، ولا على أي أرض، يكفي أن تعلم ذلك، لن أسمح بذلك.

تنظر ورد إلى عاصي وكأنها تُحذِّره:

- شريف بانتظارك في الداخل.

ثم تأخذ بيد غيث وتتحرك وضحكات غيث تعلو.. فمازالت تمتلك روحها الطفلة على كُل حال، روحها التي تشعر بمسؤوليتها الكاملة عن الخلق.. وكأنها وحدها من يجب أن تُصلح ما يفسده العالم في قلوب الآخرين.. رُبما لذلك تزوجت شريف؛ لأنها رأته مُحطَّمًا مما حدث مع ليل، أرادت أن تُصلح خرابه فعاث بها فسادًا،

دمَّر كُلَّ ما تؤمن به.. جعل بعينيها نظرة انهزام خفية تجعلها خانعة برضا، وهذا أقسى ما يُمكن أن يحدث لأحدهم.. أن يرضى ويتأقلم عما هو مُجبر عليه.

ما زال عاصي جالسًا في موضعه لا يعلم كم مرَّ من الوقت، يبدو أنه في أعمق أوقات النهار، أو رُبما النهار ذاته غرق في الأعماق. يتذكر مذكرات ليل وما ورَد بها أن شريف تزوج عليها، وخطف غيثها وهرب.. كيف يُمكن أن تشترك ورد في تلك الجريمة، هل لديها علم من الأساس؟ كيف يُمكن أن تسمح أن يُؤخذ طفل من أمِّه.. هي التي كانت تساعد القطط الضالة، ولكن لا تتبناها؛ حتى لا تفرِّقها عن أمها وإخوتها، هي التي قضت ليلة كاملة مع طفلة مفقودة في المكان ذاته؛ إيمانًا منها بأن أمها ستعود مُجددًا؛ بحثًا عنها، وبقيت محتضنة الطفلة التي كانت تُدعى «مريم» يتذكر حتى عادت أمها متلهِّفة تبكي، وهي تحمل صورة لها، وتسأل المارة، حتى رأتها مريم، وركضت لها ومن بين دموع الأم ودعواتها المتلاحقة لـ«ورد»، ولعاصي، وأن يرزقهم الله بالذرية الصالحة.. ليلتها نامت ورد بين ذراعيه مُستكينة.. كانت تبدو أجمل من المُعتاد، فبقي يتأملها قليلًا، ثم سألها:

- كيف يعمل قلبك؟

نظرت له ثم أغمضت عينيها وهي تجيبه:

- لا أعلم، في الحقيقة أنا لا أعلم ولا أقرر شيئًا.. أن تعلم وتقرر يعني أنك تملك الخيار، وأنا لا خيار لي، أنا مُجبرة على التصرف بتلك الطريقة؛ لأستطيع أن أغمض عينيَّ بتلك السكينة الآن.. إما

ذلك وإما ستطاردني ذكرى تلك اللحظات لأبد ما حييت.

وجد شريف يقترب منه وهو يسأله عما إذا كان بخير، حاول أن يتمالك نفسه:

- أجل، فقط بيتك تحفة فنية.. استسلمتُ للمصور الذي بداخلي.

- رأيتُ معك كاميرتك، إن أردت يُمكنك أن تصوِّر ما شئت، ويمكن أن أبدأ نزهتي معك من منزلي، إنه لشرف لي أن يصوِّر بيتي مصور مثلك.

- سأحب ذلك كثيرًا، يُمكنني حتى أن أبدأ الآن، ولكن هل يُمكن أن يصوِّر معنا غيث؟ تعلم تأثير الأطفال على الأرواح.

ليقول فزعًا: لا.

ثم ينظر حوله بريبة وهو يحاول اختلاق كذبة معقولة لانفعاله المُبالغ فيه.

- لا أحب أن يظهر ابني للإعلام كثيرًا، تعلم أنا رجل لي أعداء يكرهون نجاحي، ولا أريد أن يُصيب ابني أو زوجتي أي مكروه بسببي.. أفقد عقلي فقط من تخيُّل ذلك حتى.. اعذرني.

- حسنًا، ماذا لو لم تظهر ملامحه البتة؟

ليصمت شريف قليلًا؛ خجلًا من إلحاح عاصي.

- لا أظن سيكون لديَّ أي مانع، دعني أستشير ورد أيضًا.

ليدخلا سويًا إلى القلعة، فتأتي ورد ويلاحقها غيث يلهو ضاحكًا، فيسألها شريف:

- عزيزتي، انبهر عاصي بمنزلنا، وقرَّر أن يأخذ له بعض

الصور الفوتوغرافية وغيث سيكون هو...

لتقاطعه ورد:

- قطعًا لا.

حل الصمت قليلًا، ولكن عندما سمع غيث اسمه قفز أمام عاصي:

- ما هذا الذي ترفضه ورد؟

- أن أتخذ لك بعض الصور وأنت تلهو.

صرخ بحماس وهو يقفز حتى وصل لورد، وهو يتوسل لها ويترجَّاها أن تسمح لهما لتنظر ورد إلى عاصي بغضب.. فهي تعلم أنه قصد أن يخبره حتى يقنعها غيث.. لكنها أرادت أن تعرف نيَّته، وأنه لا يوجد شيء يخفيه.. يدور في عقلها أن الأحمق يظنه ابنه، لتقبِّل ورد رأس غيث، وتنزل له على ركبتها:

- ماذا لو أخبرتك أنني لا أريد ذلك؟

- لماذا؟

- لماذا تُريد أنت ذلك؟

- لما لا أريده؟

- إن أقنعتني سأوافق، أعدك، ولكن لا تعبث معي بردٍّ أسئلتي بسؤال.. يجب أن تكون صريح وحازم تدافع عما تُريده، وتقف خلف آرائك لا أن تتحايل على الوضع.

يشرد قليلًا وكأنه يبحث عن سبب قوي بالقدر الذي يجعلها توافق.. تجلس ورد أرضًا وغيث بين قدميها يُفكِّر.. يتأملها شريف بإعجاب، ويتأملها عاصي في ترقُّب، ليقطع إعجاب ذاك وترقب

ذاك صوت غيث:

- أريد أن تصل تلك الصور للجنة.

صمتوا جميعهم، ضمَّته ورد.. نظر شريف لأسفل، غاص عاصي في أفكاره.. هل أخبروه حقًا أن «ليل» ماتت؛ ليقنعوه بأن يأتي إلى هُنا!

نهض عاصي في غضب وحرقة في صدره، انتزع «غيث» من بين قدميها واحتضنه، نظرت له ورد في تعجُّب، وابتسم شريف قليلًا وهو يشاهد الموقف في صمت.

أمسك يديه وهو يهمس له:

- أقسم لك بكُل أيمان العالم.. ستصل تلك الصور لجنَّتك. أعدك.

لمس غيث وجه عاصي، فارتجف عاصي قليلًا، يده الصغيرة غاصت في ذقنه الكثيفة حتى دخل بين ضلوعه.. ارتعش قلبه وهو يتأمل تحركات الصغير ولمساته التي تغيِّر موضعها، رائحته تشبه ليل.. روحه قطعة منها، ثم ابتعد قليلًا وقال له:

- هل أنت أيضًا لديك من تُريد أن تصل إليه في الجنة؟

دمعت عينا عاصي قليلًا وهو يومئ برأسه، ليضمه غيث مُجددًا وهو يقول:

- لا بأس، سأصوِّرك أنا أيضًا؛ لتأخذ صورك مع صوري.

ابتسم حتى ضحك من براءته من بين دموعه المسجونة داخل عينيه، أخذت تتأمله ورد في حنوٍّ كعادتها كُلما أصاب قلبه حُزن، ولكن تلك المرة كغريبة، كعابرة رأت موقفًا حرَّك مشاعرها،

وليس كـ«وردته».. لم يزعجه ذلك على الإطلاق، بل نهض ليُحضر كاميرته، وبالفعل قضوا النهار حتى الغروب يتخذون وضعيات مُختلفة، وقد نجح في التقاط صور عائلية لهم جميعًا، ولغيث وحده، نجح في التقاط دليل نجاة «ليل» من ظلامها الحالك.

هاتفته «ليل» ليبتسم ويتحرك مُبتعدًا.. عادت تسأله:

- أترغب أن تتجول معي في اللا مكان؟

- أي مكان معك هو وجهتي، ولكن ما هو اللا مكان؟

- إنه بعيد عن أمكنة العالم، طريق نمهّده لنا وحدنا.. لا تمسُّه قدم سوانا، ذلك الطريق الذي ستنكسر فيه طرقنا الموازية، وستتحد، رُبما حينها لن ننفصل مُجددًا.

- أخاف مما تفعلينه بقلبي، أصدِّق كُل حروفك أنا الذي يشكك بـ«مرحبًا»، ولكنك تبدين لقلبي شفافة لا ضباب فيكِ، على الرغم من مخاوفك القاتمة المُظلمة.. ليس بكِ إلا حبة واحدة من الأمل، ولسوء الحظ أو حُسنه لا أرى سواها.. تلك الحبة الصغيرة تتغلب على كُل شيء، تجعلك كتلة من النور تقتحم روحي، وتنشر الحياة في ثنايا قلبي.. أنا دونك مُجرد ميت مُتحرك لا حياة فيه ولا روح.

- عاصي؟

- أعلم، هُنالك الكثير لا تخبرينني به.

كان ينظر إلى غيث ثم يبتسم ويُكمل:

- ولكنني أعدك، سأنهي كل تلك الحواجز التي تمنعك من الركض إليَّ الآن.

- عاصي، أنا حجزت تذكرة إلى سويسرا.. بلا عودة، عودتي

ستكون معك.

- كيف؟! متى ستصلين؟

- سأهاتفك حين أصل.

- هل أنتِ قادمة حقًّا لي؟

- لم يهدأ قلبي، ظننتُ أنني سأتخطى الأمر، وسأستطيع صبرًا على فراقك، ولكنني وجدتُه مثل القنبلة التي فجَّرت كُل ندوبي.. تلك المسافات والحدود التي بيننا جعلتني أشعر بأنني أصبحتُ غريبة عن نفسي، هُنالك شيء يجبرني على القدوم إليك، شيء بداخلي يجعلني موقنة بأن ما أبحث عنه وحدك أنت من تملكه.. أو على الأقل وحدك من تملك القدرة على تعويضي عنه.. أعلم أنه يجب أن نخوض نقاشًا جادًا عن كُل ما حدث مؤخرًا، كُل ما لم تخبرني ولم أخبرك به، وحتى أن يحدث ذلك فقط أعلم أنك تعويضي العادل من الله، رغم أنني والله لا أقبل العوض فيما خسرت إن كان كنوز العالم.

* * *

نظر عاصي إلى «غيث» وهو يلهو ويضحك، وهو يفكر كيف يُمكن أن يُعيده إلى حُضنها دون أن يشكَّ فيه شريف ولا ورد.

تناولا العشاء سويًّا مع نظرات ورد التي تشعر بعدم الراحة لوجوده بذلك القرب من عائلتها، وشريف الذي يجد فيه صديقًا بعد أعوام من الغُربة، وغيث الذي وعده أن يقرأ له قصة قبل النوم بدلًا من وَرد تلك الليلة.

ما إن انتهيا من العشاء حتى قال غيث إنه يريد أن ينام، همَّت

ورد لتذهب به لفراشه، لكنه ذكَّرها بأن «عاصي» هو من سيقرأ له القصة اليوم، نظرت له ورد في حنو وهي تحاول إقناعه بأنه ضيف ومُرهق، رُبما يريد الرحيل، لكن عاصي قال له:

- ماذا تُريد أن أقرأ لك؟

- اخترع لي قصة جديدة.

حمله فوق ذراعيه وهو يخبره بأن يرشده لغرفته، ثم همس له «غيث» بأن يحمل كاميرته معه.. وأحضرها دون أن يلفت انتباه أحدهم، ثم دخلا إلى غرفته.

كانت غرفة زرقاء بها بعض من السحب على الجدران، ولون غروب الشمس في سقفها، ليقف غيث بجوار عاصي ممسكًا يديه الاثنتين وهو يسأله:

- أأعجبتك؟

- كثيرًا.. تشبه البحر.

- نعم، إنه يشبه مكاني المُفضل أنا وأمي.

التفت له وكأنه انتبه للتو أن رُبما ذلك المكان الذي رآها فيه للمرة الأولى رُبما هو مكانهما المُفضل.

جلس أرضًا وهو يقول له:

- أعلم مكانًا يشبه ذاك.. حوله الكثير من الجبال.

انتبه غيث:

- نعم والنوارس.

- تشعر أنه لا حاجز بينك وبين السماء.

- كُنت ألمس الشمس بيدي.

ابتسم عاصي وهو يقول:

- والنجوم كذلك.

- نعم، لديَّ مجموعة نجمية أسميتها أنا وأمي، كانت تُحضر شالها، وتضعه أسفل رأسها وتضمُّني لها ونتأمله حتى أغفو، ولكنها كانت تستطيع أن تصمد حتى الشروق.. كانت بطلة.

- أتفتقدها؟

- هي هُنا دائمًا، يصعب عليَّ القول إنني أشتاق لها وهي هُنا، ولكن أيضًا كُلما زاد حضورها اشتقتُ إليها أكثر.

صمت عاصي أمام تلك الحروف الصادقة الكبيرة من طفل صغير، رغب أن يضمَّه ويعتذر له، أو أن يهاتف ليل، ويجعله يُحادثها لترتوي ظمأة الشوق بينهما، ولكن ليتم جمعهما يجب ألا يعلم أحدهما شيئًا عن الآخر.

- هل يُمكنك أن تصوِّر لي مقطعِ فيديو لترسله مع باقي الصور إلى الجنة؟

- بالطبع.

وقف وهو يضم عاصي ويقبِّل وجهه بسرعة، ثم يهندم ثيابه، ويجلس فوق كرسيه الأزرق، ويطلب من عاصي أن يُظهر السُحب وألوان الغروب أيضًا؛ لتظن أنه في مكانهما المُفضل، فيستجيب، يأخذ وضعية تسمح بأن يلبِّي طلبات الفتى، ثم بدأ في إلقاء اشتياقه:

«أمي..

كُنت سأخبرك بأنني في مكاننا المُفضل، ولكنني قررت ألا أكذب مثلما أخبرتني مرارًا، هذه غرفتي.. أنظري هُنا غروبنا،

وهُنا السحب التي تخيلناها حيوانات، وهذا لون البحر، ولكنني لم أرسم النجوم، أنتِ نجمتي الوحيدة، أما كُل تلك النجوم فهي تابعة للكون ليس لي.

أعلم أنكِ سعيدة في الجنة، أخبرني أبي أن بها ما لم يخطر على قلب ولا عقل بشر، ولكنني أشعر بأن الجنة هي المحظوظة؛ لأنك بها، وأشعر أن كُل الكواكب أصبحت حزينة، نقص العالم نجمة كان ضوؤها أقوى من باقي النجوم التي تتخطى أعمارها ملايين الأعوام كما أخبرتِني من قبل.

أتخيلك هُنا، أخبرك بكُل شيء.. ولكنني سأخبرك مُجددًا رُبما حدث وانشغلتِ عني في الجنة قليلًا.

لقد دخلت المدرسة، ونجحتُ لعامين على التوالي، أصبحتُ من الأطفال الكبار الذين يكتبون بالقلم الأزرق، وتخليت عن القلم الرصاص، فتذكَّرتك حين قلتِ لي سأظل أسامح أخطاءك دون عقاب؛ حتى تتخلى عن القلم الرصاص، فيصبح ما تكتبه غير قابل للمسح، سأعاقبك بدلًا من أن تعاقبك الحياة.. ولكنني وجدتُ قلمًا أزرق له ممحاته الخاصة، فيُمكن أن أمحوها، هل ستظلين تسامحينني الآن أم سأعاقب من الحياة لأنكِ لستِ هُنا؟

لقد بدلتُ كُل أسناني، رميتها لجِنِّيَة الأسنان.. كانت تلك فترة مُنهكة، ولكنني تخطيتها.

حاولت إقناع أبي وورد بالحصول على أخ، ولكنهما لم يحضرا لي واحدًا، فأشعر بالغضب حيالهما، لو كُنتِ هُنا لما احتجتُ لأخ من الأساس.

يوجد تلك الفتاة بالمدرسة، تُدعى «قدر»، فقدت أمها أيضًا مثلما فقدتك، نتحدث كثيرًا عنكما، هل يُمكن أن تخبري أمها أنها تفتقدها أيضًا؟ إنها الفتاة التي سأتزوجها.. تملك عينيكِ، وتظن أن لون غرفتي أزرق لأنه لون عينيَّ، وحينها قبَّلتني على خدي، ولكن رأتنا ورد فنهرتني أنه يجب أن أحافظ على الفتاة التي أحب، ولا أقبِّلها إلا عندما يحين الوقت المُناسب.

كبر حجمي، كُل الثياب التي تعرفينها لقد صغرت عليَّ ولم أعد أرتديها.. حاولتُ ألا يحدث ذلك، ولكن لا فائدة.

أنا في مدينة جديدة، مع رفاق جدد، في منزل جديد، ولكنك في كُل شبر فيه، لا يسمح أبي لي بالتحدُّث مع الغرباء بالكاد مع رفاقي، ولكنني لا أحتاجهم؛ فأنتِ هُنا، وأتمنى أنني أحتلُّ جنَّتك أيضًا.

أم هل ننسى في الجنة؟ هل تتذكرينني؟!

ثم هجمت عليه نوبة بُكاء لم يستطع عاصي كبحها، فضمَّه وترك فيضان حُزنه يزيل كُل ما أمامه، تركه يبكي وقلبه يعتصر من الألم، وهو يعدُه بأنه سيُصلح كُل شيء.

نظر له «غيث» في ترجٍّ:

- لا تتأخر في إرساله، أرجوك.

- سأرسله الليلة، هيا يجب أن تغفو.. لا تعلم ما قد يحدث في الصباح.

- ماذا قد يحدث؟

- ما تتمناه.

- عاصي.

- نعم يا صغيري.
- شكرًا لك.
- وقتما تشاء.

وضعه في فراشه، وبقي معه حتى يغفو، ثم بدأ في التحرك إلى خارج الغرفة ليجد ورد أمامه، عيناها مغرغرتان بالدموع:

- كان للأيام وقع جيد عليك.
- وأنتِ أيضًا.. لطالما تيقنتُ أنكِ ستكونين أمًّا عظيمة، ولكن رؤية «غيث» كمثال حي أمامي تختلف تمامًا عن مُجرد التخيُّل.
- لا تسخر مني يا عاصي، تعلم أنني لستُ أمه.. سمعته يخبرك، وأنك سترسل رسالة لأمه في الجنة.. أرجو منك ألا تعشِّم قلبه الصغير بذلك الأمل الكاذب مُجددًا.. قد مررتُ بأعوام كثيرة سيئة من الكوابيس وبُكائه ليلًا، حتى جعلته يعتاد تلك الحياة وفراق أمه.
- كيف ماتت؟
- ليس لديَّ أدنى فكرة، لا يُحب شريف التحدث عن ذلك الأمر كثيرًا.
- ألم يزرع ذلك بداخلك أي شكٍّ؟
- لا، أنا أيضًا لم أحدِّثه عنك كثيرًا.. أحيانًا من الأفضل الردم على الندوب بدلًا من النبش بها.
- ولكنك حين تردمين على الندوب لا تختفي، بل تزداد لهيبًا، تُعاني حُمي الماضي، وتنفجرين بصديد الألم الذي لم يندمل بعدُ.
- أأنت نبشت بندوبك؟

- حتى نخرت عظامي.
- هل استأصلتني من قلبك بتلك الطريقة؟
- استأصلتُ روحي، ولم أستطع استئصالك.. كُنتِ متغلغلة بي بدرجة أعمق مما أظن.
- كيف نجوتَ؟
- لم أنجُ حتى ظهرت هي، وجدتْنِي في قاع الهاوية، فسقطت معي، ورقصنا سويًّا حتى انتشلنا القدر ورأف بنا.. هي من انتشلتك، كُلما تغلغلت بعظامي كُلما أخرجتك.. كانت عملية جراحية في غاية الخطورة، ولكن في غاية السلاسة في الوقت ذاته.
- مسرورة لأجلك.
- هُنالك شيء مُنطفئ بداخلك، أصلحيه قبل أن تسيطر العتمة على روحك.. لا تنتمي روحك للظلمة، لن تنجي هُناك.
- أنا لستُ تلك الفتاة الهشة البريئة، لا تخف يُمكنني أن أنجو في الجحيم الآن، لقد ثقل جلدي.
- لم تسنح لي الفرصة للاعتذار لكِ.. أعلم أنه رُبما لم يعد يعنيكِ الماضي، ولكنني أشعر بأنه يجب أن أعتذر، وأبدي أسفي لكِ على كُل ما حدث سواء بإرادتي أم رغمًا عني.. كُنت تستحقين ما هو أفضل.
- دع الماضي في موضعه، لن يغيره فعلًا، ولن يهونه اعتذار، ولكنني أشكرك على كُل حال.
ثم جاء شريف ليقف بينهما وهو يقول:
- عزيزتي، تأخرتِ في استدعاء عاصي، فقلقت عليكِ.. أكل

شيء بخير.

- نعم، أخذني الحديث مع أستاذ عاصي قليلًا.

- بلا شك، فهو رجل مُمتع حقًّا.

ابتسم عاصي وهو يشكره ثم يقول:

- لقد كانت ليلة طويلة حقًّا، اسمحا لي بالاستئذان، ولكنني بحاجة لعنوان منزلكما حتى أرسل لكما كُل الصور.. أعتذر فأنا أنتمي للمدرسة القديمة في التصوير وتحميض الصور، لا أفضِّل الشبكة العنكبوتية؛ إذ إن شباكها تُظلِّل على جودة الصور.

- لا بأس، سأرسل لك العنوان كتابةً على الواتساب.. هذا دقيق، اعذرني؛ فأنا أنتمي للمدرسة الحديثة.

- وهو كذلك.

يأتيه هاتف مُفاجئ ليرحل ثم ينتاب عاصي بعض الشكوك، فيتحرك خلفه تاركًا ورد تدخل عند «غيث»؛ لتتأكد أنه بخير.. سمعه يُهاتف أحدهم:

- متى طائرتها؟

- لا لن أخرب نظامي لأجلها، لن تستطيع فعل شيء على كُل حال حتى لو علمت أنه هُنا.. فقط أريد أن يراقبها أحدهم من لحظة وصولها لمطار الوصول حتى مطار العودة.. ستصل في الخامسة صباحًا؟ حسنًا أريد أن أعلم لمن جاءت ولماذا؟ كُل تحركاتها.. تابعني، إلى اللقاء.

* * *

جحظت عينا عاصي قليلًا، هو يعلم أن ليل قادمة.. أهو قوي

العلاقات لتلك الدرجة؟ يجب ألا تأتي له أو يظهر أي رابط بينهما.. لكن كيف وهي قادمة له من الأساس؟

مثَّل أنه يلملم أشياءه وهو يحاول أن يلملم خلايا عقله المتناثرة معه؛ كي لا يخطئ التصرف..

خرج من القلعة يلتقط أنفاسه، وكأنه خرج من عرين الأسد حيًّا، هاتف أحدهم وهو يقول له:

- أحتاج منك خدمة يا أخي، هل أنت لها؟

ليعم الهدوء الكاذب حتى تأتي الساعة المنتظرة، اللحظة التي ستواجه فيها ليل الماضي والحاضر والمستقبل سويًّا.. ستقابل كُل ما ظنَّت أنها تحررت منه.. لم يستطع النوم التسلل لعيني عاصي، ينتظر شريف التهديد الذي قد يحل على قلعته مُتجاهلًا حقيقة ارتيابه من مقدمها.

وصلت ليل المطار، وما إن همت بالخروج حتى وجدت طفلًا يعطيها خط هاتف.. نظرت له لتجد عليه ورقة مُلصقة «استخدميني»، ابتسمت ظنًّا منها أن عاصي الفاعل.

أخرجت شريحة الهاتف ووضعتها في هاتفها المحمول، وصلتها رسالة بها رقم سيارة.. انتظرتها حتى ظهرت أمامها السيارة، ووقف سائقها، فركبت معه دون أي شعور بالريبة، فوحْده عاصي يعلم أنها قادمة.. وما إن ركبت حتى قال لها السائق إنه يعلم وجهتها.

تحركت السيارة، وبقيت «ليل» تراقب الضوء الذي يتسلل للأرض، وكأنها علامة من القدر على تحرُّرها من سجن الظلام،

ظلت تراقب البحر والأزقة والأبنية القديمة الممتزجة مع الحديثة.. حتى توقف السائق، وأخبرها بأن هُنا وجهتها؛ لتصلها رسالة أخرى برقم الغرفة والدور.

شكرته وتحركت.. دخلت إلى الفندق وإلى مكتب الاستعلامات.. أخذت مفتاحها وصعدت، دخلت تبتسم وهي تظن أنها ستجد عاصي، ولكنها وجدت ما لم يخطر على بالها.. رأت صور ابنها مُلصقة بكُل مكان، رأت فيديو على التلفزيون بصورته وصوته.. ركضت لجهاز التحكُّم لترفع الصوت، رأته أمامها يقول: أمي، ويحكي عن إنجازاته.. انهارت، لم تستطع التحكُّم في نفسها، جلست أرضًا تلمس وجهه من على التلفاز، وهي تردد «غيث» وهي تصرخ.. مرَّ وقت وما زال الفيديو يُعاد مرارًا وتكرارًا وهي تبكي كأنها المرة الأولى، ولكن قطع نحيبها رسالة نصية:

«اتبعي التعليمات لتحصلي على ابنك».

أرسلت للرقم بيد مهتزة:

- مَن أنت؟

- لا يُهم، ستنتظرك سيارة بالغد أمام الفندق، سأبعث لكِ رقمها في الصباح.. يمكنك أن ترتاحي الآن من السفر.

- أرجوك، دعني أذهب لابني الآن.

- لا يُمكن، ستفسدين كُل شيء، وسيهرب أبوه به مُجددًا.

- لا يُمكنه؛ لديَّ ما يُمكن منعه، أقسم ليس لديه ما يُمكن فعله، فقط دعني أذهب إلى قسم الشرطة وعنوان شريف يكفيني.

- تصبحين على خير.

اتصلت بعاصي وهي تبكي.. ردَّ عليها بعد وقت:

- أين أنت؟ لقد حجزتُ لكِ في الفندق معي.

- حدثت الكثير من الأشياء.

- أأنتِ بخير؟

- نعم ولكنني سأمكث في فندق آخر، سأخبرك لاحقًا.

- أيحدث ما لا تخبرينني به مُجددًا؟!

- عاصي أرجوك.

- حسنًا لن أسأل، لن أسأل ولن أهاتفك.. حين تنتهي من أمورك حادثيني.

- لا تفعل ذلك، أرجوك.

- إلى لقاء مُحتمل.

ثم أغلق الخط وهو يهمس:

- تحمَّلي، أنتِ قوية.. يجب أن أبعدك عني قليلًا، ثم لن نفترق مُجددًا.

نظر إلى صورة غيث وهو يُردد:

- أعدكما.

انتصر عليه النوم في النهاية، حاملًا صورة غيث في يده، وليل في قلبه، حتى حل الصباح ليجد هاتفه يرن باسم شريف.. نظر إلى صورة «غيث» بجانبه، ثم فزع وهو يُجيبه:

- صباح الخير.

- ما ظننتك كسولًا، هيا اليوم هو يومنا الأول سأجول معك بالبلاد.

- آه.. حسنًا، سآتي إليك في الحال.

نهض على عجل، أمسك هاتفه يتفحصه لا رسائل من «ليل»، شيء بداخله مسرور أن خطته تسير على ما يرام.. لكن جزءًا آخر يستشيط غضبًا من أنها لا تُريد مشاركته ما يحدث لها وتمرُّ به وحدها.. لا أحد يستحق أن يمُرَّ بكُل ذلك العبث دون أن يجد من يميل رأسه عليه عندما يميل به العالم، لا أحد مهما بلغ سوؤه يستحق أن يواجه العالم وحده، كم يودُّ أن يذهب إليها، يؤمِّن خوفها، يُسكنها إليه.. يُخبرها أن كُل شيء سيكون بخير، يُخبرها أنه جاء من حيث يسكر الناس بالحُزن، ويعلم كيف يمزق أغشية القلب الاشتياق.. يخبرها أنه لا بأس بالبكاء الصامت والنحيب الضاحك، لا بأس بالأسرار، فوحده من لديه أسرار يعلم معنى الحياة، أما من غير ذلك فقد عاش حياةً مُملة لا روح بها، وحده من لديه أسرار لديه ما يخشى فقدانه، أما من ليس لديه، فلا أخطاء له ولا ندم، وكم خسر من لا ندم لديه.. يتذكر أنه أخبرها يومًا أنه «يحُب الصعاب، وإن كان طريقه سهلًا خلق له المتاعب ليغريه حتى ينهيه».

قالت له:

- أما عني فالمتاعب تجدني أينما أكن، لا تجعلني أتكبد عناء محاولة خلقها.

ليتها فهمت وقتها أن كُل ما يعرقل طريقها له ما هو إلا تحدٍّ من القدر له؛ لإكمال ما بدأه.

قطع ذكريات عقله صوت عثمان:

- يا أخي، كُل شيء كما نُخطط له.. إنها تنتظر فقط رسالة منك.

- لن أوفيك حقك، أنا مدين لك.

- يكفي أن تكون سعيدًا، رُدَّ ديني بابتسامتك.

بدأ عاصي في التحرك للموقع الذي أرسله له شريف، حتى وصل ووجد معه غيث وورد كما توقَّع تمامًا.. ابتسم لأنه يتحكم بزمام الأمور دون أي تدخُّل فعلي، وحين رآه غيث ركض تجاهه، فحمله عاصي وهو يقبِّل رأسه، ثم همس في أذنه «تم إرسال رسالتك»، فصرخ غيث في حماس، ثم قبَّل عاصي وهو يخبره:

- هل تظن يُمكن أن يصلك رد منها؟

- نعم.. يُمكن أن يصلك أنت.

ثم أشار لقلب غيث وهو يقول:

- هذا المُحتال يعرف كُل شيء.

* * *

وفي تلك اللحظة وصلته رسالة، فغيَّر موضعه موليًا ظهره للطريق.. بينما يتحدث مع شريف حاملًا غيث، وفي اللحظة ذاتها وصلت سيارة مُحكمة الغلق تحمل ليل بداخلها.. ليل التي لم يجفَّ وجهها منذ أمس، وهي تتحسس الزجاج دون أن تحاول النزول كما اتفقت هي وصاحب الرسائل النصية.. تتأمل ابنها بعد أعوام من الفرقة، ولا تستطيع ضمَّه لصدرها، لا تستطيع أن تستنشق رائحته، وتنطق اسمه، وتسمع كلمة «ماما» من فمه الصغير، لا تستطيع تلمُّس جسده الذي أصبح هو مفهومها للعالم.

حاول عاصي إضحاك غيث، لترى ضحكته، فما أن أضحكه حتى ضحكت، إلى أن نحبت، وكأنه اختلط لديها مفهوم السعادة والتعاسة، مفهوم الوجود والعدم.. بوجوده اختلَّت لديها كُل المفاهيم، فأصبح هو وحده كُل ما تؤمن به حق إيمان.. الآن هو أمامها يفصل بينهما لوح زجاجي، وبعض من الأمتار القصيرة، ولكنها تبدو وكأنها أميال وأميال مليئة بأشواك الشوق، ترغب لو أنها تركض له حتى تهلك قدميها.. أن تحمله بين ذراعيها حتى تسقط يديها من الإعياء، ولكنها رأت انعكاسها في الزجاج.. لا تبدو حتى كنفسها؛ تنكَّرت حتى تستطيع الهرب من رجال شريف المُحيطين بفندقها لتلك اللحظة.. وضعت يديها على الزجاج، وكأنها تلمسه وهي تفكر: «هل سيتعرف عليها لو رآها؟ أم عساه لا يتذكر؟ لقد كان صغيرًا للغاية عندما أخذه أبوه».. كيف أبعدوه عن حضنها؟ ماذا قالوا له؟

ظلَّت تحدِّق فيه، وتتأمل من حوله، وجدت شريف وزوجته.. وجدت غيث يضم زوجة أبيه.. لم تشعر بالضغينة بل الامتنان.. إنها عاملت ابنها جيدًا للدرجة التي تجعله يبادر بضمِّها، هي تعلم جيدًا أن غيث ليس بالطفل الذي يُحب أن يهدر مشاعره على من لا يستحقون رغم صغر سنه.. لكنه كان يعلم من يستحق ضمَّته، من يستحق قُبلة، ومن يكتفي بالابتسام له من على بُعد، على الرغم من لُطفه البالغ مع الجميع.

* * *

(١٨)

ظل عاصي يصوِّر الأماكن، ولا يدع غيث يغيب عن ناظريه، حتى قرر غيث أن يلعبا جميعهم الغميضة.. أخبرته ورد أنه ليس المكان المُناسب، ويوجد زحام لكنه لم يُبالِ... لم يكن بالطفل الذي يُمكن ترويضه بسهولة ما دام غير مُقتنع، خضعت له ولعبا جميعهم.. كان شريف هو من يجب أن يبحث عنهما.. ذهبت ورد وحاولت مصاحبة غيث، لكن غيث تمسَّك بمرافقة عاصي، فكانا في حديقة واسعة.. أخبر غيث عاصي أن يساعده في تسلُّق الشجرة.. وبالفعل حمله عاصي حتى استقرَّ جيدًا فوق الغصن، ثم رآه شريف، فركض عاصي بعدما تأكد أن غيث بخير.. كان همُّ شريف الأوحد هو أن يمسك عاصي، وكأن تلك اللعبة فقط لإمتاعه هو وليس غيث.. لكن لم يُمانع عاصي التحدي، فأخذ يركض حتى اختفيا عن الأنظار.. في حين كان سائق سيارة ليل يلاحق غيث أينما ذهب.. شعرت ليل بغصَّة في قلبها وهي تصرخ بالسائق أن يفتح السيارة، ولكنه لا يردُّ عليها.. تردد:

- أرجوك، ابني وحده هُناك.

لينطق أخيرًا:

- لا تخافي، لن يصيبه مكروه هو بخير.

حتى حاول غيث النزول من فوق الغصن. ظل ينادي على أبيه وورد وعاصي، ولكن ما من مُجيب.. قرر أن يعتمد على نفسه كعادته، ولكن لم يسعفه جسده الصغير في الاتزان.. سقط من فوق الغصن، سقط وحده دون أن يكون معه أحد.. ركض أبوه خلف رجل بدأ يشعر تجاهه بالتنافس، وكأن فطرته الذكورية تنبؤه بما يحدث من خلف ظهره مع نسائه.. رجل استحوذ على زوجته قبله، رجل وضع بصمته على جسد زوجته حتى إنها تتذكره أحيانًا وهي معه، والأخرى تتذكره في كُل الأوقات، وورد التي تتقن التخفي جيدًا لم يصِبها الشك؛ فهي تعلم أن تلك اللعبة قد تستمر لساعات؛ لأن غيث يتقنها جيدًا، ولأن شريف ينسى أحيانًا أنه يلاعب ابنه لا يلعب معه.. وجدت لنفسها رُكنًا تجلس فيه؛ لتستكين من كُل ما مرَّت به من ضغط في الليلة السابقة خصيصًا بظهور عاصي ومحاولاتها المُستميتة لعدم إظهار علاقتها السابقة.. أخبرت شريف أنها تزوجت من قبل، وتمت خيانتها، ولكنها لا تُحب أن تتحدث بالأمر مثلما لا يُحب هو التحدُّث عن زوجته المتوفاة.. اتفقا ضمنيًا دون أن يتفقا حقًّا أن يدعا الماضي في موضعه.

أما ليل التي يوجد بقلبها غصة لا تخونها أبدًا تحاول إقناع السائق أن يفتح أبواب السيارة، ولكن دون جدوى.. تخشى أن تتصرف بطيش حتى لا تفقد ابنها مُجددًا.

ظهر شريف يحمل غيث مغشيًا عليه، ويركض به تجاه السيارة، وورد تضع شيئًا على رأسه.. ويركض عاصي خلفهما.. رأت عاصي

وحددت ملامحه، ولكن لم يكن هذا ما استحوذ على اهتمامها في تلك اللحظة.. صرخت بالسائق أن يتبعهما، فلبى أمرها.. قاد شريف كالأحمق كعادته، وخلفه سيارة ليل.. بدأت في تجميع ملامح عاصي مليًّا.. ماذا يفعل مع تلك العائلة؟ ماذا لو كان هذا هو المشروع الذي لديه هنا في سويسرا؟ لكن طردت كُل تلك الأفكار من عقلها، بينما لا تتوقف عيناها عن ذرف الدموع.. تجلس في منتصف الكرسي الخلفي تشرع بجسدها للأمام في ترقب.. تراقب تحركاتهما في السيارة، تجلس ورد بالخلف، ويقود السيارة شريف وبجانبه عاصي، وما أن وصلا إلى المستشفى حتى أخبرت السائق أن يفتح الأبواب، رفض وقال لها: «إنها التعليمات»، صرخت به وهددته، وبقيت تصرخ وتصرخ حتى لان قلبه، وأخبرها بشرط أنها لن تفارقه.. وافقت وما أن فتح الأبواب حتى انطلقت كالصاروخ المُحترق لوجهته.

ذهبت إلى مكتب الاستعلامات تسأل عن حالة الطفل الذي وصل هُنا للتو.. لتنطق اسمه بحذر.. غيث لتخبرها الممرضة: «إنه في غرفة الطوارئ»، ركضت ومعها السائق حتى وصلا ليراها عاصي، ثم ينظر «للسائق» نظرة تحمل من اللوم ما يكفي، ولكنه يعلم أنه لا يوجد ما يُمكن إيقاف ليل عن القدوم لغيثها.. وقفت من على مسافة لا بأس بها.. ما زال تنكُّرها يؤدي دوره فلم يعرفها شريف.. ظهر الطبيب، وجد ورد وهي تبكي وتترجاه أن يخبرها كيف هو غيث؟ أخبرها أنه سقط فوق رأسه، ظلا ينتظران

التقرير المبدئي الذي جاء بعد دقائق قليلة من الانتظار القاتل..
قال الطبيب: لقد فقد الطفل الكثير من الدماء.. فصيلة دمه غير متوفرة بسهولة.. سنحتاج أن يتبرع أحد الوالدين، دون تفكير تقدم شريف خالعًا معطفه وهو يقول:

- أنا والده يمكنكم أن تأخذوا ما يكفيكم من دمائي.

ردَّ الطبيب:

«حتمًا ستفي بالغرض، فقط ستخضع للتحليلات السريعة اللازمة.

قام بالمطلوب منه في معمل المستشفى.. أخبروه أن فصيلة دم غيث هي (O) وأن فصيلة دمه (AB).. لن تصلح للأسف.. ما أن همت ليل بالتحرك إلا وتحرك سائق سيارة ليل وهو يقول:

- الطبيب يقول إن طفلكما يحتاج فصيلة دم O وهذه فصيلتي، أعلم أنها قليلة التواجد.. يُمكنني المساعدة.. خذا ما تشاءان مني.

نظر عاصي في امتنان، فنظرت ليل له وهي تحاول أن تشعر بامتنان كبير.. شعرت لوهلة أنها تعرفه، لم تفكر كثيرًا.. لم تكن تبالي سوى بسلامة غيث الآن.. حاولت أن تحتفظ بتلك الباروكة الشقراء على شعرها الغجري الداكن وتلك الملابس الملونة الفريبة مع قبعتها الفرنسية التي تخفي ملامحها جيدًا. بالفعل ذهب السائق معها؛ لفحصه عينة من دمائه، وعمل تحليل التوافق السريع؛ للتأكد منها.. اقتربت ورد وهي تشكر ليل:

- شكرًا لك كثيرًا أنتِ وزوجك باسم عائلتي.

نظرت لها وهي تبتسم في صمت.. في حين وقف عاصي على بُعد لا يتفحص وجه ليل فقط، لكن كُل ما بداخله يرغب في ضمِّها له، في إخبارها أن غيث بخير، فقط خسر بعض من الدماء وسيتم تدارك كل شيء فورًا، خسر الدماء إثر شجاعته واندفاعه اللذين اكتسبهما منها.. فقط لو أنهما وجداه أسرع لما حدث كُل ذلك.

ما إن انتهى السائق من التبرع بالدماء اللازمة حتى ذهب وأمسك بيد ليل، وهو يقول لها « أتشعرين أنكِ أفضل حالًا الآن؟».. لم ترد على سؤاله، أخبرته أنها يجب أن تجري اتصالًا هاتفيًا.

اضطرب عاصي من أن تحادثه، ولكنها لم تفعل.. ظلَّ يتأملها هي والسائق وإن هي إلا دقيقتان حتى عادت، وأخبرته أنها بخير، ولكنها تفضِّل لو أنها تنتظر قليلًا حتى ينتهي تحليلها أيضًا، مرَّت دقائق حتى جاء الطبيب يطلب مقابلة شريف.. اضطربت ليل كثيرًا، وبقيت تنظر للساعة المعلقة في يديها، ونظر لها عاصي في عدم فهم.

في مكتب الطبيب قال لشريف:

- أستاذ شريف، أعتقد أنه تم إخبارك أن فصيلة دم الطفل «غيث» هي O وفصيلة دمك هي AB.

- أجل ولحسن الحظ وجدنا متبرعًا.. ذلك السائق الشجاع.

- نعم لحسن الحظ، لكن لسوء الحظ هذا لا يعني سوى شيء واحد.

سمعا طرْقا على الباب، دخل أفراد من الشرطة وطلب أحدهم التحفظ على شريف بتهمه الخطف وتعريض حياة الطفل

للخطر بسبب الإهمال.

وقف شريف وهو يقول:

- ما هذا العبث، كيف يُمكن أن يخطف أحدهم ابنه.

هنا دخلت ليل.. كانت قد تجردت من تنكرها الأول.. قالت وهي ترد:

- بالضبط، لا يُمكن لأحدهم أن يختطف ابنه.

نظر شريف حوله في عدم استيعاب لتُكمل ليل:

- غيث ليس ابنك، هو ابني وحدي، أنت سرقت من عُمرنا أعوامًا سأحاسبك عليها.

نظر شريف للطبيب وللشرطي المسؤول وهو يقول بعدم تصديق:

- مُحال، هو ابني.

أُكمل الطبيب:

- يؤسفني إخبارك أنك لست والده.. فمُحال أن تكون فصيلة دمك AB وفصيلته O، ويكون ابنك في الآن ذاته.. تحليل الـ DNA يمكنه الحسم بالطبع.. لكن بشكل مبدئي هذه صيغة نفي مؤكدة.. نظرت ليل للشرطي وقالت:

- لقد خطف ابني مني لأعوام، لم يحافظ عليه.. يعيش هُنا منذ أعوام.. أعتقد أنه يُمكن أن يُطبق عليه القانون السويسري.

رد شريف مدافعًا:

- ماذا عن خداعها لي أن ذلك الطفل طفلي!

- أنا لم أخدعك، أنت لم تكن هُنا لأخدعك.. أنت كُنت مشغولًا للغاية في نزواتك وخياناتك وكذبك.. أنا حامل فيه قبل أن أتزوجك.. هل تعلم أنك لم تلمسني إلا بعدما حملتُ بشهرين؟ قضيتُ معك عامًا بأكمله لم تكتشف تلك الحقيقة..

ثم نظرت في عيني شريف بتحدٍ ولوم شديدين:

- ألم تتأمل ملامح غيث أبدًا؟ ألم تتساءل من أين له بعينين زرقاوين؟ ألم تتساءل أنفه الحادة هذه من أين ورثها؟ ماذا عن شعره الأشقر؟ ألم تمرَّ عليك لحظة أبوة واحدة بحكم معاشرتك لصغيري حتى؟ أنت لم تكن هُنا حقًّا ليتم خداعك حتى عندما خطفته من بين ضلوعي رميته بين ضلوع زوجتك، لم تمارس حتى أبوَّتك الكاذبة.. أنا ظلمتك فقط حين تزوجتك لأحمي ابني من قبيلة أبيه الحقيقي ليث، وأخفيت عنك سري.. لقد أخذت جزائي بإبعاد ابني عن حضني لأعوام معك.

- لكنني أحببتك، أنا حقًّا أحببتك.

- لا تُهِن الحُب بتهجي أحرفه.. أنت لا تعلم ما هو الحُب.

- ولكنني انتشلتك من ظلامك يا ليل، أخذتك لكنفي.. حميتكِ من العالم بأكمله، وفي المقابل لم آخذ منكِ ولو نظرة حُب واحدة ولو سهوًا.. حاولتُ تخطيكِ، حاولتُ نزعك من قلبي وحياتي، ولكنني فشلتُ.. لم أكن أعلم أن حُب ليث سيتطلب منكِ أعوامًا لتتخلصي منه، وبالتأكيد لم أكن أعلم أنه كُلما رأيتِ غيث وقعتِ في حُبه مُجددًا.

- لترميني في هلاكك، لتمزق كبريائي وقلبي وكُل ما تبقى بي.. ليتك لم تُحبني.. لو أنك تُهلك كل من أحببتهم.

تدخَّل الشرطي مع زميل له؛ ليأخذا شريف ويطلبان منه أن يلتزم الصمت حتى يأتي المُحامي الخاص به، بينما تتأمل ورد كُل ما يحدث في صدمة، ويرى عاصي ليل وهي تسترد ابنها بيدها، وما إن كبَّلا شريف من يديه حتى ركضت لعاصي.. نظر لهما شريف في عدم استيعاب، ليقول له عاصي:

- لم أكن أعلم من أنت، لو علمتُ من أنت منذ البداية لما تكبدت مشقة رفقتك في المستشفى.

احتضنته ليل، فازدادت دهشة ورد، وهي تنظر لهما حتى نطقت أخيرًا:

- أكنت تعلم أن أمه حية!

- ألم تعلمي أنتِ؟

- هل نسيتني للحد الذي يجعلك تظن أنني قد أتحمَّل بكاء طفل صغير لأعوام ونحيبه على فراق أمه، وأنا أعلم أنها حية تُرزق، هل تظنني لأفرط في حرقة قلبها المكلوم؟

- ورد التي أعرفها أيضًا لا تتزوج رجلًا متزوجًا بالفعل، وإن لم تعلمي إذًا لماذا رفضتِ أن ألتقط لغيث صورًا؟

- أخبرتك أنه قال لي إن زوجته توفيت، لم أكن أعلم عن وجودها شيئًا، ولأن شريف قد أخبرني مرارًا أنه تلقى رسائل تهديد، ولكن لأن لا أحد يعلم ملامح غيث فإنه بأمان..قالت من

بين نحيبها وهي تضع يديها فوق رأسها:

- يا إلهي كيف لم أعلم أنه يكذب؟ كيف لم يخبرني؟!

- لأنه يعرفك كما أعرفك ولو قليلًا، كان يعلم أنكِ قطعًا لم تكوني لتقبلي بتفريق طفل عن أمه.

نظرت لها ليل وهي تقترب:

- لا تخافِي، سيخرج شريف منها بسهولة.. فهو مُحتال، سيخرج مثل الشعر من العجين، ولكنه على الأقل سيأخذ الوقت المُناسب لأعود بابني، وأمحو كُل ما يربطه بذلك الرجل.. لكنني أريد أن أشكرك على حُسن استضافة طفلي..

نظرت لها ورد في عدم استيعاب، فقد حدث كُل شيء سريعًا لتمسك يد عاصي، وتقول له:

- مهلًا. أتلك هي المرأة ذاتها التي حدَّثتني عنها؟

ليومئ برأسه وهو ينظر لـ«ليل».

- أنتِ ذاتها زوجة شريف السابقة التي قال إنها ماتت؟

ليشعر بيدها ترتخي، فيلحقها عاصي قبل أن تسقط، ينادي أحد الممرضين حتى يأخذها أحدهم من بين ذراعيه بعدما أغشي عليها من هول كُل ما حدث بغتة.

ركضت ليل إلى غيث لتطمئنَّ عليه.. وذهب عاصي مع ورد، حتى بدأت تفيق قليلًا.. كان يمسح على شعرها في حنوٍّ بالغ، وحين فتحت عينيها بدأت في البُكاء:

- شعرتُ بأن هُنالك شيئًا خفيًا، ولكنني حتى كُنت أخشى

السؤال، فضَّلت الصمت على الحقيقة.

- لا بأس، لم يكُن هُناك ما يُمكنك فعله على كُل حال، أنتِ أحببتِ غيث، وهذا أعظم ما قد تمنحينه لطفل مكلوم.. الحُب، سيظل مُمتنًا لكِ أبد الدهر.. لو ترينه كيف يتحدث عنكِ.

- كيف سأعيش من دونه؟

- يُمكنكِ أن تأتي له وقتما تشائين، لن تمانع ليل على الإطلاق.

- ستُمانع حين تعلم أنني زوجتك القديمة.

- مُطلقًا، ستعرف أي امرأة كُنتِ يا ورد مع ابنها وهو وحيد في كنفك لا حول له ولا قوة.

- ولكنني لا أستطيع ترك شريف، أنا أحبه حقًّا.

- ستغفرين له؟

- لم يكتب لرحمي أن يلد أطفالًا، ولكن أن يخلق رجلًا مرارًا وتكرارًا وكأنني مُلقحة بالخذلان.

- فقط اعلمي أنني هُنا دائمًا، أنا بمسافة نطقك لأحرف اسمي.

- يجب أن أذهب لزوجي الآن، هو بحاجة لي.

- فقط أخبريه أنني لن أسمح له أن يؤذي ليل أو غيث مُجددًا، ولا حتى أن يؤذيكِ.. أنا هُنا الآن.

- أنا ذاتي لن أسمح له.

- كان من الجيد رؤيتك بعد كُل تلك الأعوام.

- ليتني تركتك مُنذ ندبتي الأولى منك لو كان فراقي لك

ليجعل منك ذلك الرجل الرائع الذي أراه أمامي الآن.

- لنترك كُل شيء كما حدث، فهذا أفضل سيناريو يُمكن أن يحدث.

- إلى اللقاء يا عاصي.

قبَّل يديها وهم راحلًا، ليجد ليل عند الباب تقف مبتسمةً فيقول لها:

- هذه زوجتي القديمة.

- ذوقك جيد بالنساء.

ابتسمت ورد وهي تحاول النهوض من موضعها، لتمنعها ليل لتقترب منها وتمسك يدها:

- يدك تلك أطعمت ولدي، وربتت على كتفيه، وسقته.. يدك تلك أنا مدينة لها بروحي، إنه ابنك أيضًا.. يُمكنك أن تأتي له وقتما تشائين.

- أعتذر لكِ بالنيابة عن شريف.

- لا يوجد قوة بالعالم ستعوِّضني عن غياب غيث عن ضلوعي لأعوام، ولا عن نومه الآن، وأنني لا أستطيع أن أسمع منه كلمة ماما.. لا يوجد قوة بالعالم يا ورد تستطيع أن تطفئ ناري سواه، فليستيقظ ليعود العالم بخير.

- كيف هو؟

- أعطوه مخدرًا خفيفًا؛ لأنه كان سيتحرك كثيرًا لو ظل مستيقظًا.

- هل يُمكن أن أراه؟

- بالطبع.

نهضت ورد معهما، تسنَّدت ورد على يد عاصي وعلى كتف ليل من الناحية الأخرى حتى وصلا إلى غيث، فوجداه نائمًا بجوار السائق الذي لم يكن سوى عثمان.

ظل الجميع في انتظار مرهق للمزيد من الاطمئنان على غيث.. بعد نصف ساعة تقريبًا بدأ غيث في الاستيقاظ، وجد أمامه أمه وعثمان وعاصي وورد.. لم يصدق أن هذه هي أمه.. ظل ينظر إليها ويتفحص وجهها بعينيه مليًا.. يتفحص ملامحها وينظر في عينيها وهي تبكي وترتجف ولا تستطيع أن تنطق.. سالت على خده الرقيق دموعه الحبيسة.. نظر لعاصي ولم يتمالك غيث نفسه بكي سائلًا:

- أتلك أمي حقًّا؟

أومأ عاصي برأسه، بينما صوت نحيب ليل يتحرَّش بأذنيه.

نظر لها غيث، وهو يمد لها يديه:

- ألتلك الدرجة يحبني الله، حتى يُعيدك من الجنة؟

- عزيزي، أنا كُنت في الجحيم دونك، والآن رضى عني الله وأدخلني جنته.

- أمي هذه أنتِ حقًّا؟

قالت من بين بُكائها:

- غيثي، ملاكِي.

- قد وعدني عاصي أن يوصل لكِ رسالتي.

- لا تدري كم أنا فخورة بك، فقط أريدك أن تعلم أنني سأغفر لك أي شيء، ولو أنك كتبت بدمي لا بالحبر، سأغفر لك يا صغيري.

ثم أخذت تضمُّه برفق شديد، وهي تبكي ويبكي غيث.. يبكي عاصي ويترك دموعه تنهمر معهما، وهو يحتضنهما ويتأملهما «عثمان» من على مسافة وهو يحبس دموعه.

وقفت ورد، ثم سحبت نفسها خارج تلك الصورة ذاهبةً إلى الرجل الذي سضطر أن تلده مُجددًا، وستغفر له بعدها.. ربما حينها يمكنها أن تخبره برأي طبيبها الخاص فيما يخص تحسن حالة رحمها وإمكانية حملها من جديد.. لكنها تلك المرة ستفعل ما بوسعها حتى تنعم بالعائلة التي تتمناها.

* * *

(١٩)

-بعد عدة أشهر-

وصلني اليوم خبر خروج نظير لي عن طوعه، فقد على إثره العديد من البشر حياتهم، أفاض على شعبه وأغرقهم فأشاركه آلامه، ولكنني أرحم منه، فقط أغرقهم برذاذ ملوحتي المليئة بالأسرار التي لا أعلم كيف لأجسادهم الصغيرة تحمُّل قسوتها، أنا الذي بقوتي وعظمتي وكِبري أجد صعوبة في استيعاب هذا الكم من الألم أحيانًا، ولكنني أشعر أنني أهدأ؛ إذ إن عائلتي الصغيرة المُفضلة على شطِّي الآن:

اقترب غيث من عاصي وهو يضع قصَّتهما في زجاجة، ويمسك بيد غيث، وهما يقتربان مني ويرميان بي سر وجودهما هُنا. سأل غيث:

- لماذا لم نحتفظ بها؟

- لأننا نحتفظ بها في قلوبنا، يجب أن يحتفظ البحر بنسخة أيضًا مما حدث.. إنه البطل الخفي لتلك الحكاية.

- ولكن لمن سيروي البحر قصتنا؟

تذكر نفسه قبل أن يقابل ليل تائهًا وحيدًا بائسًا.. يُلقي بجسده المُتهالك في أمواج البحر عساه يهلك، ثم ابتسم لغيث وهو يقول:

- لمن يجازف ويغوص في أعماقه، فيحصل على سر النجاة.

وضعت ليل شالًا تحت رأسها، فاقترب غيث لتضمُّه إلى صدرها، ويميل عاصي يتأملهما ويضع فوق ثلاثتهما شالًا آخر؛ حتى لا يبردوا في البقعة ذاتها التي تقابلا فيها للمرة الأولى، تعلو ضحكاتهم مثلما على صوت نحيبهم في الماضي.

* * *

(٢٠)

-في يناير ما لعام ما من أعوام الأرض-

يقترب مني ذلك الرجل الذي يبدو أنه أنهكه الحُزن..

يصرخ بي:

- قالت لي.

«لا أحد يرمي بنفسه إلى البحر إلا إذ كان يترجى النجاة، لا يغرق أحدهم من اليأس، بل من المعافرة.. فإن تركت جسدك للمياه رفعتك رغمًا عنك».

ماذا عني الآن وأنا قادم إليك كُلي يأس، لا أفقه عن السباحة شيئًا.. فقد غرقت في عينيها من اليوم الأول، والآن أطبق نظرياتها الفلسفية الحمقاء، ولكن كيف لها أن تنسى أن الغدر غريزة أولى لدى البحر؟

كيف لها ألا تعلم أن البحر لا يدقق في هوايتنا، بل ستختار لنا أمواجه ضفة لتحتوي ما تبقى من جثثنا، ليتحول من هويتنا لـ«غريق الضفة» أو رُبما «غريق الغرام الأحمق» أو رُبما سينتهي بي الحال وليمة للحيتان والأسماك.

كيف لك أن تنصفني أنت ولم ينصفني بحرها؟

كيف لك أن تتوقع نجاتي منك حين لم أنجُ منها؟

كُنت أعلم أنها لن تجلب لي السعادة، ولكنني بجانبها كُنت لأعيش تعاستي بسعادة، كان يكفي أن تكون هُنا.. أمن الصعب البقاء معي؟

هل سيكون من الصعب إبقائي بداخلك أيضًا؟

ليبدأ في الغوص فيَّ، جسده نحيل، ليس لديه حتى أدنى طاقة لمصارعة موجي.. حاولت أن أهدأ، وألا أتحدى حُزنه وطيشه.. تذكرت ذلك الرجل الذي قفز بداخلي منذ عقود، شعرتُ أنه رُبما قد حان الوقت.

لتهتاج أمواجي، وتعبث بجسده النحيل يمينًا ويسارًا.. تاركًا لي إياه، فأترحم به قليلًا حتى تضربه تلك الزجاجة، ينظر لقدميه، ويحاول أن يصل لها، حاولت تهدئة أمواجي، حتى وصلت به سالمًا إلى الشاطئ.. جلس وهو يحاول التقاط أنفاسه من معركة الحفاظ على حياته.. نظر حوله وبيده زجاجة بها أوراق، وكأنه يحاول التأكد من عدم ملكية تلك الزجاجة الضخمة لأحد، ما إن فتحها حتى وجد أول ورقة:

«هل يوجد حقًّا ما يُدعى سعادة، أم إنه سراب اختلقناه حتى لا نفقد الأمل، ونكمل ما تبقى من حياتنا هائمين بحثًا عنه؟».

وصورة لطفل بين أحضان أمه، ورجلٌ يحتضنها.

يوجد عليها جُملة بقلم أزرق:

«هذا ما سيرويه البحر لك».

ليعدل من جلسته، ويبدأ في قراءة باقي الأوراق، ويحاول أن يرتِّبها.

علمتُ حينها أنه يبحث عن النجاة لا الغرق.

***

تمت